السعادة مهنة شاقة

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ الكتاب: السعادة مهنة شاقة
❖ المؤلف: خليل جابو
❖ نوع العمل: رواية
❖ الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة
❖ الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر

❖ رقم الإيداع : 2019 / 19433
❖ الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754-48-5
❖ الغلاف: لوحة الفنان أصلان معمو

❖ تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
❖ المدير العام: جمال سليمان
❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
❖ تليفاكس: 002022402029 - 002026061014
❖ محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
❖ الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com
كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

+201065534541 +201208868826 fb.com/Books.Bibliomania/ fb.com/bibliomania.eg/ Insta:books.bibliomania/ Books ـ ببلومانيا fb.com/groups/Bibliomania.Books/ @BibliomaniaEg

السعادة مهنة شاقة

رواية

خليل جابو

www.bbibliomania.com

إهداء

إلى عائلتي

* * *

1

على عجلٍ من أمري كنتُ حين وُلدتُ، والآن أتأبّطُ عقارِبَ الخذلانِ وأمشي عكس السّير محاولاً العودة حيثُ كُنت.

ولِدتُ في آواخرِ السبعينيات من القرنِ المُنصرم، وبالتحديد في اليوم الأخير من شهر شباط، أنحدرُ من عائلةٍ كان الخبزُ اليابس فطورها وأغلب الأحيان عشاءَها، لا أملكُ أدنى فكرة عن مكان ولادتي بالتحديد. تقولُ أمي أنها كانتْ في شهرها الأخير من حملها، صعدتُ إلى السيارة مع والدك وبعض نساء الحي من قرية "السمرا" إلى المشفى الجامعي في البلدة المجاورة، في الطّريق الثّلجي البطيء فقدنا الاتجاه المؤدي إلى المشفى، هكذا سمعتُ السائقَ يقول لوالدك، وحين اشتدَّ المخاضُ قررنا أن ننزلَ من السيارةِ ونلجأ إلى مكانٍ أستطيعُ الولادة فيه، دخلنا إلى دارٍ كبير، كان البابُ مفتوحاً على مصراعيه، شكله أقرب إلى كنيسةٍ مهجورةٍ، أيقونات معلقةٌ على الجدران، شموعٌ رماديةٌ، مقاعدٌ خشبيةٌ مموّهةٌ ، ازداد الألمُ حين دخلنا الدار، وحين تأكّدنا من خلوِّ المكان، التفّت النساء حولي لإنجابك، لحظة خروجك من رحمي لم أشعر بالألم كما حدث في مخاضي الأول، لكنّني فيما بعد فقدتُ الوعي، وحين استيقظت طلبتُ من والدك أن يجلبك إلى حضني، لحظة احتضانك كان وجهكَ يوحي بأنك ملاكٌ ، وكانت ابتسامتُكَ لا تفارق وجهكَ، فأطلقتُ عليك اسم "سعيد" حينها تمنّيتُ أن تبقى الابتسامة والسعادة ترافقانكَ كل العمر.

والآن بعد مرور أربعين عاماً أجلسُ هنا على طاولتي منزوياً لوحدي، أكتب ما تيسّر لي من سنوات عمري التي مضت، بعيداً عن العالم وعن نفسي، قريباً من العالم ومن

نفسي، لا أملك من عمري سوى ما يفصلني عن الموت، ساعة ساعتين، شهر شهرين، سنة سنتين، لا أحد يدري، لكن الذي أدركه تماماً بأنني سأرسلُ خطاباً إلى الله أطالبُ فيه بحقّ اللّجوء الإنساني.

سأخبره أيضاً عن أعداد الفقراء الذين لم تصل أعدادهم إلى أعداد المساجد والكنائس، لقد كثُرتْ بيوت العبادة على هذه الأرض! فاقت أعدادَ الفقراء المحرومين والمشردين والثكالى واليتامى، كلهم ينادون باسم الله، وما أكثرهم الذين يفتقدونه في دواخلهم!

سأروي له عن الجثث التي اصطدمتُ بها حين انزلقتُ وابنتي في حضني إلى سفح الجبل، هاربين من حضن الوطن.

وعن الدماء التي لوّنت أيادي الصّعاليك، وعن اللّصوص الذين يسرقون باسم الدّين، وعن النّاس الذين غرقوا في البحر وهم في طريقهم إلى برّ الأمان، وعن بائعي الأكباد والكلى كيف سرقوا الإنسان بحجّة الخلاص من الموت،

كانوا إلى الموت مقتادين.

أنا يا الله لا أبحث عن إبرة في كومة قش، أنا أبحثُ عنك في عيون الأطفال والمساكين، في عيون الثكالى والمحرومين، بين الأيتام والمشردين، أين أنت منهم؟ فلنعِش بسلام، أو دعنا نمُت بسلامٍ يا إلهي.

***

للربيعِ نسيمٌ لا يدخلُ في تفاصيل الفصول الأخرى، لكن الفقير يتنفّسُ نسيماً آخر مختلفاً، ليس ذنبك أن تُخلقَ فقيراً. كم هم كثر أولئك الذين تُدفن معهم أمنياتهم ! كم هم كثر أولئك الذين يُكتبُ على شواهد قبورهم أسماؤهم فقط! الربيع جميلٌ ونسيمه العليل يتناثر بين شوارع المدن دون أن يميّز الفقير من الغني، لكن للفقير رأيٌ آخر.

السابعة صباحاً، من يومٍ ربيعيٍّ هادئٍ، شمسٌ دافئة تطل علينا، تُمشط أمي شعري في الحوش، و من الغرفة أسمع صوت أختي الصغيرة وهي تتشاجر مع أخي الصغير في قضيةٍ "لمن القلم اليوم؟"، قلمٌ رصاصٌ واحد للاثنين، أخي الكبير يتأفّف وهو يرتدي حذاءَه، لا يحب الاستيقاظ باكراً، ولا الذهاب إلى المدرسة.

سألتُ أمي:- ماذا وضعتِ لي لأتناوله في المدرسة؟

بصوتٍ مكسور قالت:- قطعةُ خبز مدهون بربِّ البندورة

كان هذا كافياً لأتأفّفَ أنا الآخر، كنتُ في المدرسة الابتدائية حينها ولم أدرك مرارةَ ما تمرُّ به أمي لتأمينِ متطلبات الحياة، راتبها من الوظيفة لا يكفي لتأمينِ حياة كريمة، وأبي مسافرٌ لتأمين لقمة العيش، لا يرسل إلا القليل من المال بين الفترة والأخرى ، كان ترتيبي الثاني بين إخوتي، لدي أخٌ أكبر مني .."فرهاد"، الأخ المدلّل بالنسبة لجدّتي وذلك لأنه مسمى باسم والدها، وهو الحفيدُ الأول، ويصغرني أختٌ وأخٌ "جيهان" و"جوان"، تقيم جدتي معنا، لقد كانت مكتفية براتبٍ تتقاضاه من الدولة، فجدي كان موظفاً في الدولة قبل أن يموت، كنا نقطن في بيتٍ صغير في حي السّكري، أحد الأحياء الغير قانونية في مدينة حلب.

في طريقي إلى المدرسة صادفتُ سمّان الحي "مصطفى"، قال لي أمام الناس : كثُرت الديون عليكم يا سعيد وكل شهر تؤجلونه للشهر التالي، إلى متى سأنتظر؟

إنها ليست المرّة الأولى التي كان يطالبني بها، سألته: كم بلغت ديوننا؟

قال: خمسمائة ليرة..

-إن شاء الله الشهر القادم سنسدّد لك كامل المبلغ.

قلتها وأنا أشعر بلهيبٍ في داخلي من الخجل الذي امتلكني أمام الناس، ومضيتُ في طريقي مكسورَ الجناحين والدمعة تقفُ حائرةً في مقلتي، وفي المدرسة، سألتْ المعلمة من يريد أن يشارك في رحلة إلى الغابة، اشتركَ كل التلاميذ إلا أنا، فأنا لا أملك من يومي سوى الحسرات، وليس لي حقوق في أي شيء سوى أن أحلم بها، حتى الأحلام كنتُ أخاف أن يطالبني بها أحد يوماً ما. وحين عدتُ من مدرستي جلستُ أفكر كيف سنسدّد الديون؟ ومصروفي اليومي الذي كانت أمي تجبر به خاطري نصف ليرة، أحتاج لأعوام كي أدّخر خمسمائة ليرة، إنها فكرة فاشلة إذًا، بدأت الأفكار تحوم في مخيّلتي إلى أن توصّلتُ في النهاية بأن أعرض على مصطفى العمل عنده مقابل ذلك، في البداية رفض الأمر لأني مازلتُ صغيراً ولا قدرة لي بأن أحمل صناديق الخضار والفواكه، وبسبب دوامي المدرسي لا يسمح لي بأن أعمل باكراً، لكنني توسّلتُ إليه وأقنعته باقتراب العطلة الصيفية، فوافق، حينها أستطيع أن أتواجد باكراً، قال لي مقابل خمسَ وعشرين ليرة في الأسبوع إلى أن أنتهي من سداد المبلغ بلا غياب، وافقتُ مرغماً. عدتُ إلى البيتِ راكضاً مبشّراً أمي، وحين أبلغتها بالأمر والسعادة تمتلكني ارتسمَ على وجهها علامات الحزن وقالت لا.. لا يمكنك العمل لأنك ستقصّر في دروسك وهذا يعني فشلك في تأمين مستقبلك.

قلتُ :لا يا أمي سأحاول جاهداً أن أُثابر في دروسي وعملي إلى أن أنتهي من دين مصطفى، طأطأتْ رأسها وقالت:- ما ذنبك يا قُرّة عيني؟

قلتُ لها بِضعةُ أشهر وسيكون كُلّ شيء على مايرام صدّقيني.

في اليوم التالي استيقظتُ نشيطاً، رتّبتُ نفسي بنفسي، ومضيتُ إلى مدرستي سعيداً أحمل حقيبتي الثقيلة وكأنها فارغة، أبتسم لكل شيء أصادفه في طريقي، لم يدركْ أحدٌ سِر سعادتي.

عدتُ ظهرا إلى المنزل لأتناولَ شيئا أُسكت به جوعي فأمضي بعد ذلك إلى عملي، وحين دخلت تفاجأت بأن جدتي لا تتابع التلفاز على غير عادتها، سألتها:- ما بكِ؟

قالت:- لا شيء..

-لماذا لا تتابعين التلفاز كغيرعادتكِ؟

وبعد بُرهة قالت : لقد قطعوا التيار الكهربائي لأننا لم ندفع الفواتير منذُ أشهر.

تباً، أنا أبحث عن التفاؤل كي أشعر بالنشاط في أول يوم لعملي.

حسنًا، غمستُ بعض الخبز بالشاي وتناولته على عجل، ربطتُ حذائي المنهمك مثلي، ومضيتُ في طريقي أسأل الله أن يوفّقني في عملي، وربما أتّعثر بخمسمائة ليرة تغنيني عن العمل، وصلتُ إلى الدّكان استقبلني مصطفى بالواجبات قائلاً : عليك بجمع كل الصناديق الفارغة ووضعها بجانب الباب من الداخل، بعدها عليك بتنظيف الرّصيف أمام المحل، وحين تنتهي أخبرني.

فعلت ما طلبه مني، وحين انتهيت ذهبتُ إليه فقال لي عليك بجمع الخضار والفواكه المنتّنة ورميها في القمامة، وهكذا من واجب إلى آخر دون استراحة.

التاسعة مساءً، حان وقت الإغلاق، بدأتُ بإدخال كل الأشياء إلى الداخل غيرَ مكترثٍ بالحجم أوالوزن، فأودعني بكلام مُخيب:- مظهرك لايوحي بأنك تستطيع العمل ولكن لا بأس، كانت نظرته توحي بشيء آخر.

عدتُ إلى البيت مُنهكاً، وفي الطريق كنتُ أفكر كيف يجب أن أنهي وظائفي المدرسية وأنا متعب؟

حين وصلتُ وجدتُ أمي وإخوتي يجلسون على ضوء الشمعة ينتظرونني لتناول العشاء، رغيف خبز وبجانبه صحن من البطاطا مطبوخة مع القليل من البندورة، سألتني أمي كيف كان يومك؟

قلتُ لها كان ممتعاً لدرجة أني لم أشعر بالوقت كيف مضى، وفي داخلي هلوستُ، كم أنا متعب! تناولنا العشاء، وانطلقتُ إلى وظائفي، وبعد بُرْهَةُ أيقظتني أمي قائلة

-سعيد قم يا ولدي و أكمل نومك في فراشك ، قُلتُ لها:- لم أكن نائماً يا أمي.

قالت ناديتُك كثيراً يا ولدي، وجدتكُ نائِماً على كتبك.

لملمتُ نفسي وتمددتُ على فراشي محاولاً النوم والأفكار تطرق رأسي يُمنة ويُسرة، اليوم هو اليوم الأول في العمل، كم أحتاج إذن لأنتهي من الخمسمائة ليرة، إن كنتُ سأتقاضى أسبوعياً خمس وعشرين ليرة ؟ ، يا للمصيبة، خمسة أشهرٍ كي أنتهي من ذلك الخبيث مصطفى؟

لم أشعر بالراحة في العمل، نظراته وكلماته توحي لي بالكثير

يا إلهي رائحة الخضار والفواكه عالقة في أنفي وكأنني ممدّدٌ في أرضٍ زراعيّة، لكن لا أملك حلولاً غير الصبر.

صباح أحد الأيام استيقظتُ على صوت أمي وهي تقول لجارتنا:

"سمعت من إحدى صديقاتي بأنني سأُطرَدُ من وظيفتي لأن زوجي خارج البلد، ويتهمونه أنه أصبح معارضاً."

صباح يومٍ جديد ومصيبة جديدة ذهبتُ إلى مدرستي نصفَ نائمٍ جلستُ في مقعدي أتأمل صور الرئيس، وأقرأ الشعارات المدوّنة على الجدران، أوقفني سؤالٍ غريبٌ امتلكني رغم صغر سني : نحن نردّد شعاراً، بالروح بالدم نفديك يا سيدي الرئيس، لكن الشعب الذي أنا منه بماذا يفدينا هذا الرئيس؟ هل علينا تحمّل قلّة الخدمات والفقر لينعمَ الرئيس؟

تذكرتُ كلام جارتنا حين كانت تقول لأولادها والدكم يتعب ويعمل لتأمين حياة سعيدة لكم، لكن ما هو الواجب الذي يترتّب على الرئيس كي يُضمنَ حياة سعيدة لأبناء وطنه؟

فجأة صرخ صوت في داخلي، حتى التفكير بهذه الأمور قد يقودنا إلى الهاوية..

دخلت الآنسة "فهيمة" إلى الصف وقالت سنبدأ بدرس التربية الإسلامية اليوم، وبدأت تقرأ لنا الآية الكريمة التي تقول :{ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } استوقفتني كلمة نصارى، من هم يا ترى؟

تملّكتني الجرأة ورفعتُ إصبعي، سألتها: من هم النصارى؟ قالت:

-المسيحيون

-وماذا يطلب القرآن منا في هذه الآية الكريمة؟ قالت:

- يجب علينا معاداتهم. سألتُها:

- لماذا؟ قالت:

– لأنهم لم يتّبعوا تعاليم المسيح الحقيقية وغيّروا فيها الكثير. سألتها:

– لماذا غيّروا في تعاليمه وماذا غيّروا؟ قالت:

– اصمت ولا تكثر من الأسئلة كي يفهم البقية.

أدركت أن معلمتي هي التي لا تعي ما تقول، فلو كانت على دراية بما تقول لشرحت لي بسهولة كل شيء. بقي السؤال يحوم في مخيّلتي تذكّرتُ كلام أمي حين كانت تقول لي : حين ولدتْ، كنا نُقيم في الميدان، والميدان غالبية سكانها خليط من الأرمن و المسيحيين، وهناك القليل من الأكراد والإسلام، لكن لم تقل لي أنّ المسيحيين هم النصارى ولم تقل عنهم أنهم كفاراً، إذاً سأسأل أمي عن الموضوع.

عدتُ من مدرستي في الظهيرة كي أبدّل ملابسي وأتناول شيئاً أسكت به جوعي، في الوقت هذا من النادر بأن يتواجد أحد غير جدتي، وأحياناً إحدى عجائز الحي مثلها، يثرثرن طويلاً وفي النهاية يقُلنَ: "أستغفر الله العظيم".

دخلتُ إلى البيت وسمعت جدتي تتحدث لجارتنا عن أمي وتشتمها، كالعادة أصدرتُ صوتاً لتنتبه لوجودي ولا تكثر من الشتم، كي لا أفقد السيطرة على نفسي وأتصرف تصرفاً مجنوناً، لكن سمعَها ثقيلٌ، استمرتْ بالحديث عنها، ودخلتُ فجأةً عليها قلت لها:

– أنا جائع، ولا يوجد ما أتناوله في المطبخ، أعطني ليرتين، لأشتري بها شيئاً أتناوله، أو افتحي خزانتك وأعطني تفاحة.

لم أنتهِ من لفظ كلمة "تفاحة" حتى كانت "الشحاطة " تطير في الهواء متجهة نحوي مع صوت زفيرٍ وشهيق يكاد أن يستنشق كل أوكسجين الغرفة من أنفاس جدتي، بدأت أوداجها تنتفخ، وأخذتْ تشتمني، وتلعن الساعة التي خلقت فيها قائلة:

-من أين لي بالتفاح؟ومن أين لي بالمال يا واطي؟ أنا العجوز الفقيرة لا أملك من عمري إلا آخره وكم ليرة أقبضها من الدولة أشتري بها احتياجاتي الضرورية! اللعنة عليك وعلى كل طفلٍ عاق مثلك.

أعرفُ جيداً أن جدتي تملك المال، وأعرف أنها تضع في خزانتها بعض الفاكهة والمكسّرات والعسل، لكنها قالت ذلك كي تظهر لجارتنا العجوز أنها لا تملك شيئا.

صمتُّ وعدتُ لرغيف خبزي المغمّس بالشاي، بدَّلتُ ملابسي، وذهبت إلى عملي مرغماً، وكالعادة استقبلني مصطفى بالواجبات التي لاتنتهي وكأني عبدٌ اشتراه، الجو حارٌ وأنا لا أملك النقود لأشتري الأيس كريم، أبّرد به صدري.

دخل "رياض" - ابن "مصطفى"- وقال لوالده:

- أبي أريد أن أتناول الأيس كريم.

حدَّقَ في عينيّ مصطفى، وبكل وقاحة أعطى ابنه قطعة، وقال لي هامساً:

- هل تريد أن تتناول واحدة؟

لم أجب على سؤاله، كانت أمي تقول حين تريد أن تعطي أحداً شيئاً فلا تسأله عن حاجته له، بل أعطِه وهو يقرر، ولا تُظهر لأحدٍ حاجتك للشيء مهما كنت بحاجته، وحين سكتُ ولم أُجِبه، قال لي: عليك أن تصعد إلى العلّية و سأعطيك كل يوم قطعتين من الأيس كريم.

العلّية هي غرفة صغيرة فوق الدكان، لكنه قال لي فيما مضى أن هذه الغرفة هي مخزن أسراره، قلت له:

- وماذا سأفعل في العلّية؟ قال:

- تستنشق بعض الهواء النقي هناك.

لم أفهم قصده، وفي تلك الأثناء دخل زبون إلى الدكان فتوقّفَنا عن الحديث، تابعتُ عملي للمساء وعدتُ إلى البيت لألتقي بإخوتي، الاشتياق إليهم بدأ يتغلغل في داخلي، دخلتُ إلى البيت، وجدتُ جدتي تتشاجر مع أمي، وتوبّخها على سوء تربيتنا وأمي، تدافع عنا بكل قوة،و أنا وإخوتي، لا يحق لنا الكلام لأن أمي كانت دائماً تقول لنا هذه جدتكم وعليكم احترامها، أنا لم أوافق أمي على فكرتها وكنتُ دائماً أقول في نفسي سيأتي يوم وأنفجر فيه لأملأ البيت صُراخاً عليها، وانتهت المشاجرة كالعادة أمي تبكي ونحن نبكي، وأخي الكبير لا يكترث لشيء.

مضتْ الأيام وأنا أقضي أيامي بكل تعب بين العمل والمدرسة والبيت، تارة أنام في الصف قليلاً، وتارة في العمل بين الصناديق وحين يجدني مصطفى نائماً يوبّخني قليلاً .

في إحدى المرات في المدرسة قالت لنا المعلمة: ضعوا رؤوسكم على المقعد ونظركم للأرض، وممنوع لأحد استراق النظر، هذه العادة كانت تحدث حين يشعر المعلمون بالملل في أواخر العام المدرسي، يجتمعون في أحد الصفوف ويبدؤون بالحديث عن أزواجهن بشكل عام، وفي بعض الأحيان بشكلٍ خاص، كنتُ أجلس في المقعد الأول القريب من طاولة المعلمة، وبجانبي كانت تجلس فتاة اسمها "خلود"، استرقتُ النظر بطرف عيني إليها كان شعرها داكن السواد ورائحتها كعبير الربيع .

لخلود عينين واسعتين لوزيتين، أنفها مبوّز وصغير، فمها لا يتجاوز حجم حبّتي لوز، بيضاء البشرة. سمعتُ آنستي تقولُ لزميلاتها: كانت البارحةُ اليومَ الأول لدورتي الشهرية وزوجي بدأ بإثارتي، وأنا أحاول إبعاده، بدأ يقبّلني من عنقي وفمي،

والمعلمات يضحكن بصوتٍ منخفض، ضربتُ بمرفقي على كتف صديقتي سألتها بصوتٍ منخفض:

- ما هي الدورة الشهرية؟ قالت:

- لا أعرف لكنني أسمع أمي تقول لأبي في بعض الأحيان لا نستطيع أن نقوم بشيء الليلة بسبب دورتي الشهرية.

عَلِقَ السؤالُ في مخيلتي، كونه يوحي بشيء يُمنَع الحديث عنه أمام الصغار، وله علاقة بالعادة التي تحصل بين المتزوجين، وقعت عيني لحظتها على ما بين ساقيّ خلود، أحسستُ بشيءٍ غريب لكنه جميل، ولأني كنتُ صغيراً لم أفهم ماهيّته، لكنه أشعل شيئاً غريباً في داخلي، بالطبع لم أكن أعرف بالتحديد ما هو. كان ذلك شعوراً جميلاً يتملكني كلما أراها، وفي الليل تتسلّل إليّ أحلام ورديّة .

ذات صباح حضرت متأخراً إلى الصف، كانت الآنسة فهيمة تتكلم عن الامتحان، استأذنتُ بالدخول واعتذرتُ لها عن تأخيري،فقالت لي "خضرجي " أمثالكَ لا يُلامُون إن حضروا متأخرين .

وبنفسٍ كئيبة طأطأتُ رأسي خجلاً ودخلت إلى الصف، جلستُ بجانب خلود وسمعتُ همسات أصدقائي وهم يقولون "الخضرجي الكُردي" ويقهقون، فوضعتْ خلود يدها على يدي أسفل المقعد وقالت لي :

- لا تهتم.

أسعدني كلامها، وارتسمت الابتسامة على وجهي.

في نهاية حديثها قالت المعلمة:

- من لديه سؤال؟ تجرأت ورفعت يدي وقلت:

- أنا. قالت:

- تفضل سيّد خضرجي. سألتها:

- ما هي الدورة الشهرية؟

وفجأة انتفختْ أوداجُها، وبصوتٍ هزَّ أرجاءَ الصفِّ قالت:

- يا قليل التربية، من أين لك أن تعرف عن الدورة الشهرية؟ قلت لها:

- لست بقليل التربية وأمي ربتني أفضل تربية، وإن كانت الدورة الشهرية شيئا معيبا، فأنا لا أعرف، لذلك سألتكِ قالت:

- من أين سمعت بهذه الكلمة؟

ولكي أدعها تذهب بتفكيرها عن عقابي قلت لها:

- سمعتُ إحدى المعلمات تقول للمديرة "غصون" أن الآنسة فهيمة تتكلم عن الدورة الشهرية لطلاب صفها. قالت:

- من تكون هذه الآنسة؟ قلتُ لها:

- لا أعرف لم أر وجهها، إنهم في الطابق الأسفل، حاولتُ أن أسترقَ النظر لكن لم أستطع فكما تعرفين المديرة غصون سمينة جداً ولم أستطع أن أرى من بجانبها.

وكنتُ على درايةٍ تامة أن آنستي لن تسأل المديرة لأنهم أعداء. أحسستُ أنها توترت حين قالت سنكمل فيما بعد، أخرجوا كتبكم وسأعود بعد قليل، ربما ذهبتْ لتتأكد بطريقة ما، نظرتُ إلى خلود مبتسماً، أحاول ترتيب جملة تليق بها أو أي شيء جميل، لكن للأسف لم أستطع قول شيء، واكتفيتُ بالسؤال عن الامتحان وتحدّثنا قليلًا عن عملي وكيف سأقوم بتحضير الامتحان والعمل في آنٍ واحد.

عادت المعلمة إلى الصف وكأنها لم تصل لنتيجة من عملية البحث، إن كان ما قلته صحيح أو أكذوبة، لأن وجهها كان يوحي بغمامة خوف، وفجأة قالت:

- سعيد، ألحق بي.

وبخطواتٍ مهزوزة وركبتين ترتجفان لحقت بالآنسة، ظننتُ أنها تريد أن تجمعني مع المديرة غصون، و سينكشف أمري ولم أكن في الكذب بارعاً لأستطيع التهرب، وجدتُ الآنسة تنتظرني أمام الصف، قالت لي أغلق الباب خلفك، سألتني إن كنتُ أستطيع تمييز صوت المعلمة التي نقلت الخبر للمديرة، حينها عادت دقات قلبي لخفقانها الطبيعي وشددتُ صدري واثقاً من نفسي وقلت:

- لا، كانت الضوضاء تملأ الممرات ولستُ متأكداً من هي.

-هل كانت إحدى المعلمات اللواتي يقمن بزيارتي في الصف أم صوتٌ آخر؟

قلتُ لها أنتِ تطلبين منا أن نضع رؤوسنا فوق المقعد ولانسترق السمع والنظر، لذلك يصعب عليَّ ذلك، أغمضت عينها نصف غمضة وكأنها تريد أن تصدق حدسها؛ وقالت لي:

- هل تعرف الآنسة صباح؟ قلتُ:

- نعم، لكن لم يكن صوتها. قالت:

- حسناً، سوف أرسلك إلى جميع الصفوف بحجة أنك تبحث عني، حين دخولك للصف اسأل المعلمة عني وحاول التركيز في صوتها إن كانت هي أم لا، قلتُ لها:

- سأفعل ذلك، لكن لدي سؤال: ما هي الدورة الشهرية؟

قالت لي بلهجة لطيفة تكلمني فيها للمرة الأولى:

- سأشرح لك فيما بعد حبيبي سعيد.

دخلتْ هي الصف وأنا ذهبتُ لأسأل عنها فقط في صفوف صديقاتها، أما الصفوف الباقية لن أفعل ذلك لأني كنتُ أدرك تماماً أنها لن تسأل غير صديقاتها المقربات منها، والوقت الباقي سأجلس في الباحة الخلفية، قمتُ بذلك للمرة الأولى كي لا تشتمني معلمتي.

بعد أن مضى الوقت المحدد عدتُ إلى الصف، كانت الآنسة فهيمة تنتظرني وكأنها تنتظر حكم براءتها، قالت لي: "انتظرني خارج الصف"، أتت وسألتني عن نتائج حملتي في استكشاف الصوت، أحسستُ بفراغ عقلها، لأنها لو كانت واثقة من نفسها كانت ستكتشف ذلك بسهولة، فهي لم تتكلم عن الدورة الشهرية أمامنا، قلتُ لها لا لم أستطع اكتشاف ذلك، صمتت لحظة وقالت:

- ابقَ في الصف حين يُرنُّ الجرس ففي الفُرصة سأردُّ على سؤالك

كانت نظراتُها غريبةً.

رُنَّ الجرسُ،خرج الجميع، وبقيت أنا، فأقفلتْ باب الصف وأمسكت بالعصا وقالت:

تكلمْ أين سمعتَ بالدورة الشهرية وإلا .....

فالعصا ستتكلم نيابة عنك .

بقيتُ مُصراً على أقوالي، وحين وجدتْ أنه لا فائدة من ذلك، بدأت تضربني بالعصا على قدميّ وظهري، وكل أجزاء جسدي، وأنا أبكي وأتوسّل إليها، وأخبرها بأني لا أعرف ماذا تعني هذه الكلمة، وحين بدأتُ بالرُعاف توقفتْ عن ضربي:

- اذهبْ واغسلْ وجهكَ يا خضرجي.

عدتُ إلى البيت، بكامل وجعي، واحمرار وجهي، استقبلتني جدتي كعادتها بالشتم والدّعاء عليّ لأني طفلٌ عاق كما تقول، واليوم زدتُ الطينَ بلّة، قالت لي: – من ضربك أيها الفاشل العاق؟ قلتُ لها:

– سقطتُ على درج المدرسة.

قالت: لو انكسر رأسك كان أفضل، لم أناقشها كعادتي. ذهبتُ إلى العمل وصورة الآنسة فهيمة لا تفارق مخيلتي، وهي تضربني، ولا أستطيع البكاء في الشارع ولا أستطيع المشي بشكل صحيح من الألم.. وصلتُ إلى مكان عملي وكان مصطفى بانتظاري كالعادة، وفي وقت الظهيرة من النادر تواجد الناس في الشوارع، و درجة الحرارة تقارب الأربعين. قال لي مصطفى حين دخلت:

– أراكَ محمرّاً! ما بك؟ قلتُ له:

– لا شيء فقط حرارة الطقس أرهقتني. قال لي:

– ما رأيك بقطعة بوظة تبرّد بها صدرك وتستريح قليلاً في العلّية؟ وأنا سأتمدد قليلاً ولا أظن أنه سيأتي أحد في هذا الجو الحار، تذكرت كلامه حين قالَ لي إن كنت تريد قطعة بوظة عليك أن تصعد للعلّية، لكن لم أفهم قصده، ولم أجد تحليلاً يفسّر لي ما سر العلّية، قلتُ له لا بأس، شكراً لك، لكن سأتناول قطعة البوظة هنا، واسترح أنت في العلية، وإن جاء أحد سوف أناديك.قال:

– الهواء في العلّية بارد، سنضع كرسياً أمام الباب، وإذا جاء أحد سينادينا حتماً. قلتُ في داخلي يجب أن أسمع كلامه لربما يعطيني إجازة قبل الفحص لكي أستطيع الدراسة، لا بأس..قال لي:

- غطِّ بأكياس الخيش على الصناديق في الخارج واصعد للأعلى، سأذهب إلى الحمّام، وأنا سأضع الكرسي أمام الباب وأحضر لك البوظة.

فعلت ما طلبه مني وصعدتُ إلى العلّية للمرة الأولى، كان هناك سريرٌ وكرسي وطاولة صغيرة، عليها محارم وفازلين، وصورُ نساءٍ نصفُ عارياتٍ معلقة على الجدران. وبينما كنتُ أتفحص الغرفة الصغيرة التي راقت لي، سمعتُ صوتَ إقفال باب الدكان، مددتُ رأسي لأنظر، وجدتُه يضع ورقة على الباب، سألته:

- لماذا أقفلت الباب؟ قال:

- لربما نمتُ قليلاً ولا أريد لأحد أن يعكّرَ قيلولتي.

قلتُ في داخلي سيكون لديَّ وقتٌ كافٍ لأرتاح قليلًا ، صعدَ مصطفى ومعه قطعة بوظة قائلاً لي من الآن فصاعداً خُذ ما تشاء من الدكان وبدون إذن مني، ابتسم وهو يقولها، غريب هذا العرض منه، ولم يعجبني لأن مصطفى كان يُضربُ به المثل في البخل، لكن قلت لربما أنه أحب عملي وهو يريد أن يكرمني، تمدّدَ على السرير بعد أن شلحَ قميصه وبقي عارياً من الأعلى، جلستُ على الكرسي أتناول قطعة البوظة، وبدأ يحكي لي عن زوجته والمشاكل التي تحصل بينهما، ولماذا يريد أن يتزوّج امرأةً أخرى، فزوجته لا تجامعه كثيراً، قال: في بداية زواجنا كانت هي تطلب مني ذلك، والآن منذ فترة وهي ترفض، كنتُ أستمع إليه بخجل، استمرّ في الحديث بشكل أثار شهوتي، وقال لي كيف كان يجامع زوجته من دبرها، وحين اعتاد هو على الدبر بدأت هي تنفر منه إلى أن بدأت المشاكل بينهما.

ثم قال لي:

- هل من الممكن أن أطلب منك طلباً؟ قلت له:

-تفضّلْ. قال:

-لديّ ألمٌ في ظهري منذ الأمس، هل تستطيع أن تضع على يدك بعض الفازلين وتدلك به ظهري؟ قلت له:

- نعم.

وضعت الفازلين على يديّ وظهره وبدأت بالتدليك، قال لي:

- يداك ناعمتان جداً لدرجة جعلتني أسترخي، هل ممكن أن تدلك صدري قليلاً؟

قلت له: نعم، شعرتُ بأن مصطفى بدأ يعتبرني مثل ابنه وسوف يعطيني عطلة كل أسبوع إن طلبت منه ذلك، وبدأ يرشدني كيف تكون طريقة التدليك، قالَ لي دلّك هنا مشيراً إلى رقبته، بعدها خلع بنطاله، وقال انزل لفخذيّ ودلّكهما لأنني لا أشعر بهما، وبدأت بذلك مغمضاً عينيّ من الخجل، قال للأعلى قليلاً، صعدت للأعلى، قال أكثر، قلت له سأصل إلى ما بين ركبتيك، نهض على الفور وأمسكني بيديه الاثنتين من كتفي وقال لي:

- نعم هناك، افركْ بيديك الاثنتين قضيبي . قلت له:

-لا أستطيع، قال:

- لماذا؟ قلت له:

-لأنه عيب. قال:

- وما العيب في ذلك؟ أنا رجل وأنت رجل! قلت له:

- لا أعرف لكن دعني أرجوك.

حاولتُ الهروب من بين يديه لكن لم أستطع، كان مثل الوحش يحتضنني، مددني على بطني فوق السرير ربط يديّ من الخلف وبدأ بخلع بنطالي وسروالي وأنا أحاول

الهروب منه إلى أن أصبحتُ عارياً من الأسفل، وحين بدأتُ بالصراخ وضع يده على فمي وتناول قطعة قماش من أسفل الوسادة ربط بها فمي كي أتوقف عن الصراخ، صرتُ أبكي وأتوسّل إليه بلغة البكم، وهو يقف خلفي مثل الثور الهائج يتناول فريسته، خلعَ سرواله الداخلي فأصبح عارياً، كان قضيبه كبيرا جدا، لم أكن أعرف ما الذي سيفعله، تناول علبة الفازلين وقال لي سأنهي عملي بعدها سأعطيك كل ما تريد ولن أطالبكم بالمال الباقي، دموعي وتوسلاتي الصامتة ذهبت هباءً، لأنه أحكمَ ربط يديّ وإغلاق فمي بشكلٍ يستحيل لي الهروب من مخالبه، وضع الفازلين على قضيبه ويده وأنا أكادُ أختنقُ من الصراخ، لكن دون جدوى، وحدث ما حدث.

حين أنهى كل شيء وجدتُ سائلاً أبيضَ يخرج من قضيبه، كانت المرة الأولى التي أرى فيها السائل المنوي، الصدمة كانت كبيرة والألم كذلك ودموعي أغرقت الوسادة.

ماهذا اليوم يا إلهي! الآنسة تضربني، وجدّتي تشتمني وصاحب العمل يغتصبني!

ما الذي فعلته لتفعل بي كل هذا؟

بعد أن فكَّ يديّ وأزال قطعة القماش من فوق فمي بكيتُ كثيراً من الألم، قال لي:

- إياك أن تتفوّه بكلمة لأحد وإلا قتلتك

لبستُ ثيابي بعدها ومشيتُ بصعوبة إلى الخارج كي أتنفّس قليلاً، لكن الباب كان مقفلاً فزاد خوفي أكثر،

-"أريدُ أن أخرج". قلت له.

جاء وفتح الباب وقال:

- إن لم تعد إلى العمل غداً سوف أطالب والدتك بالنقود، اذهب الآن وإياك ثم إياك، مشيراً بإصبعه إلى رقبته، وهو يمثّل قطعَ عنقي.

مشيتُ بعيداً عن الحي، جلستُ خلفْ جدارٍ أحتمي به من حرِّ الظهيرة، وبكيتُ إلى أن تقطَّعت أنفاسي، ماذا سأفعل؟

لن أذهبَ إلى العمل بعد اليوم، ومصطفى الحقير سيطالب والدتي بالمال، وأمي ستسألني لماذا توقفتُ عن العمل، رغم أن مُرادها كان ذلك، لكن ماذا سأقول؟

ساعدني يا إلهي، أبي ليس هنا ليحميني، ولا حول ولا قوة لي، ساعدني يارب.

وأنا في طريقي إلى البيت عدتُ إلى المنزل سمعت في أول الحي صوت أمي وجدتي وهما تتشاجران، تكفي المصائب اليوم، مشيتُ مسرعاً لأحاول أن أهدئهما، وحين دخلتُ البيت وجدتُ الأشياء مبعثرةً هنا وهناك، والعشاء ممدود على الأرض، إبريق شاي يتصاعد منه البخار، زيت، زعتر، وزيتون، وكان الخلاف بين جدتي وأمي على ذلك، تقول لها:

– تقبضين راتبك وابني يرسل لكِ نقوداً بين الحين والآخر، ولا نتناول يوماً عشاء عليه القيمة!!

كانت تشكّكُ في ثقة أمي، قلتُ في نفسي أتمنى ألّا أجن الليلة، تكفيني مصائبي اليوم. حاولتُ التكلم مع أمي لكنْ جدتي رفضت وحاولت ضربي، لكن أمي منعتها، وحين وقفت عاجزة عن كل شيء وبركانها لم يهدأ أمسكتْ بإبريق الشاي الحار ورمته صوب أمي، صرخت أمي بأعلى صوتها وهي تبكي وتركض إلى الحمّام، أحسستُ بأني سأهجم على جدتي وأُبْرِحُها ضرباً لكن بكل تأكيد سيمنعني أخي الكبير، عادت أمي من الحمّام وكانت آثار الحرق واضحة على وجهها، ودموعها أغرقت وجهها الملائكي، لم يكن المشهد ليغادر ذاكرتي. توعدتُ في نفسي أن آخذ بثأري من جدتي ومن الآنسة فهيمة ومصطفى، وأن جدتي هي أول من أنتقم منها.

حين دخلتُ إلى المنزل في اليوم التالي، وكان واضحاً أن جدتي قامت بتنظيف البيت على غير عادتها، وقفت أمامي وهي تصرخ وتقول اخلع حذاءَك عند الباب أيها العاق، صرخ مشهد الليلة الماضية في مخيلتي، وما كان مني إلا أن دخلتُ بالحذاء إلى الغرفة، تمددتُ على سريرها دون أن أخلع الحذاء، وهي تراقبني وعلامات الاستغراب والدهشة ترتسم على وجهها وبدأتْ بشتمي ولعني، وهي تقول:

- أنا جدتك ولاترد عليَّ أيها العاق؟ أكيد لن ترد لأنك ابن "نيفين" خانوم.

قاطعتها على الفور وقلت:

- إياكِ أن تتكلمي عن أمي، يكفيها تعب الوظيفة وزوجها مسافر وحماتها عجوز شمطاء، لا تخجل من أفعالها. انتفخت أوداجها وصرخت بأعلى صوتها:

- أنا لا أخجل يا كلب؟؟ ، والله سوف أقول لأعمامك ليبرحوك ضرباً.

ثم بصقت عليّ، وماكان مني غير الانتقام، وقفتُ وخلعتُ حذائي، وبدأتُ بضربها إلى أن دخل علينا أخي الكبير ورفعني عنها وهو يشتمني، خلعتْ شالها من رأسها وخرجت إلى الشارع حافية القدمين تطلب النجدة من الجيران، لكن لم يتدخل أحد، اكتفَوا بالنظر إليها باستغراب لأن أغلبهم كانوا يعرفون أفعالها، خرجتُ من البيت لأفكر كيف ستكون طريقة انتقامي من مصطفى، وكان يجب عليّ الخروج لأهرب من كلام أمي عما فعلته بجدتي، ولأنه وقت عملي ولن أخبر أحد بأنني توقفت عن العمل إلى أن ينكشف أمري أو أن أجد الحل المناسب، فكرتُ أن أحرق له الدكان كما حرق قلبي ، لكن كيف ومتى؟

مصطفى يغلق الدكّان وقت الظهيرة، وفي بعض الأحيان يضعُ كرسياً أمام الباب ليأخذ قيلولته، والناس تعرف أني أعمل عنده، لذلك يجب عليّ مراقبته ..

في اليوم التالي وضعتُ زجاجة كاز وعلبة كبريت في حقيبتي وذهبتُ إلى مدرستي، في الفرصة، بقيت خلود لوحدها في الصف بناءً على رغبتها، ولم أعرف لماذا؟ دخلتُ إلى الصف وجدتُ بريقاً في عينيها، لا أعرف كيف أفسّر ما بداخلي، إنه الحب، لكن لا أعرفه، جلستُ بجانبها وكان الخجل يبدو عليها وكأن شيئاً حصل معها، وضعتُ كتبي على المقعد فسقطت ورقة على الأرض، كنتُ متأكداً بأنها ليست لي، وقلت :ربما أخي فرهاد وضعها بين كتبي، كانت خلود تراقبني وبدون أن أفتح الورقة وأن أهتم بما في داخلها، رميتها في سلة المهملات، ولكي تثير انتباهي سألتني:

- لماذا رميتها؟ قلت لها:

- لا أذكر أني وضعت ورقة كهذه بين كتبي.قالت:

- افحصها على الأقل. قلت:

- ليس هناك من داعٍ، فأنا متأكد بأنها ليست لي.

كان تفكيري كله في مصطفى وكيف سأحرقه مع الدكان.. سألتني:

- لماذا توجد زجاجة رائحتها غريبة في حقيبتك؟ قلت لها:

- تلزمني في العمل.. ومن أين تعرفين ذلك؟ قالت لي:

- في الفرصة استعرتُ قلماً من حقيبتك. قلتُ لها:

- لديكِ ثلاثة أقلام ولديّ واحد. قالت:

- كنتُ أبحثُ عن قلم رصاص، ونحن بالعادة نستعير من بعضنا البعض.

بدأت الآنسة فهيمة الدرس، وبدأتُ أرسم في مخيلتي كيف سأحرق الدكان والخوف يمتلكني، لكن جرحي أكبر من الخوف، والذي فعله معي ربما يفعله مع أحد غيري،

وأريدُ أن يقف عندي، وآلاف الأفكار تحومُ في مخيلتي، قطعتْ أفكاري الآنسة فهيمة حين قالت لي:

- يا خضرجي قفْ وتعالَ إلى هنا. مشيرة بيدها إلى السبورة

-تكلم، ما هي أهم إنجازات الحركة التصحيحية؟

قلتُ في داخلي من أهم الإنجازات التي سمعتها من أبي أنها جعلت الشعب نصفين، نصف حزبي وعميل وغني، والباقي فقير وخائن للقائد والوطن، والقائد أهم من الشعب والوطن وال...نَكْزتني الآنسة بطرف العصا وقالت:

- لِمَ لا تجيب؟ قلتُ لها:

-إني متعبٌ، ولم أدرس هذه الفترة بشكلٍ جيد. قالت:

- كان يجب أن أسألك كم كان سعر كيلو البطاطا البارحة.

ضحك جميع التلاميذ، قالت عد لمكانك خضرجي بيك، وقلتُ في داخلي "سأصبح بيك في يومٍ من الأيام، لكن سأنتقم منك وأنا خضرجي كي يصبح للانتقام نكهة أخرى"، ثم جلستُ بجانب خلود، اقتربت مني لتحاول تهدئتي ووضعتْ يدها على يديّ وحدقتْ في عينيّ وهي تواسيني بأن لا أهتم.

خرجتُ من مدرستي ووقفتُ بعيداً أراقبُ دكان مصطفى كي أجد الفرصة الملائمة وأحرق دكانه مثلما أحرق قلبي، انتظرتُ قرابة الساعتين لكن دون جدوى لن يأخذ قيلولة اليوم إذا، إلى أين سأذهب؟

تمشّيتُ إلى الحي الذي تسكن فيه خلود، لأتنفّسَ من نسيم يحمل شيئاً من أنفاسها، وقفتُ تحت نافذتها وانتظرتُ لربما خرجت وأزاحت عن قلبي ذلك الألم، يحدثُ أحياناً أن تحب حياً كاملاً لأجل شخص، حين تمر بهذا الحي تشعر بالراحة، ويحدثُ

أن تحب كل شيء في الشارع، الرصيف الذي تقف عليه، العامود الذي تستند إليه، حبل الغسيل، والنافذة التي تطلُّ منها هي تشعر بأنها تطلُّ على الجنة، ماذا سيحصل لو أطلَّت خلود بإطلالتها البهية من النافذة؟

ماذا سيحدث لو خرجت الآن وابتسمت لي؟

لو كل الأمنيات تتحقق كما يريدها العشاق، لو كل الكلمات التي في دواخلنا تُكتبُ على أجبنتنا لا يقرؤها أحد غير الذين نحبهم، كم سيكون جميلاً! سنختصر الكثير من الألم، لكن كلمة "لو" لا نجني من ورائها شيئاً سوى الخيبة، لم تخرج خلود أيضاً، قضمتُ خسارتي الثانية وتمشيتُ إلى المجهول، تذكرتُ كلام الآنسة فهيمة عن المسيحيين، وقلتُ لدي الوقت الكافي كي أتمشى إلى السليمانية، إحدى الأحياء التي يقطن فيها المسيحيون، كنتُ أعرف الطريق جيداً إلى هناك، باعتبار أن خالتي "أفين" تقيم في منطقة محطة بغداد، والسليمانية بقربها، تمشيتُ متجهاً نحو السليمانية، وبعد ساعة تقريباً وصلتُ إلى هناك، بدأتُ أبحثُ عن الكفر بين الناس هناك، الشباب يمشون مع البنات وهم في كامل أناقتهم، يتكلمون ويضحكون بصوتٍ عالٍ، بعض المقاهي الموجودة في المنطقة يملؤها أصوات الأغاني والناس مبتهجون وكأنهم عائلة واحدة، معي ليرة وتكفي بأن أشتريَ بها كعكةً أسدُّ بها جوعي، دخلتُ إحدى المخابز التي تصنع الكعك والحلويات، استقبلتني فتاة ترتدي فستاناً قصيراً جداً، وعلى تَريبَةِ صدرِها صليبٌ من ذهب وعليه شخصٌ مصلوب. "من هذا يا ترى؟" قلتُ في نفسي. سألتني الفتاة مبتسمة عمّا أريد.

لكن المصلوب أثار انتباهي، من هو يا ترى؟

وحين أطلتُ في التمعن اقتربتْ مني الفتاة ومدَّتْ لي يدها لتصافحني وقالت:

- "جورجيت".

تعرفني عن نفسها، وبارتباكٍ شديد مددتُ يدي مرتجفاً قلت هامساً:

- "سعيد".

وكأنني أرتكبُ خطيئةً، تذكّرتُ حين مددتُ يدي لأصافحها، كلام الآنسة فهيمة: حرام أن يصافح الرجل المرأة، والمصافحة تسقط الوضوء، أي وضوء تتكلم عنه الآنسة ويد جورجيت ناعمة ؟ أنا شاردُ الذهن في جورجيت والصليب، وكلامِ الآنسة فهيمة، وهي تبتسم لي، وفجأة اعتذرتُ منها وقلت:

- أريد كعكة بليرة. قالت:

- هناك أنواع كثيرة، أيٌّ منها تريد؟

بدأتْ تردّدُ على مسامعي أسماءً لم أسمع بها قطّ، قاطعتها:

- أريد أن أرى أنواع الكعك، فالحيّ الذي أعيش فيه لا يوجد غير كعكة مدورة في دكان الحي وفي أغلب الأحيان تكون قاسية لا تؤكلْ إلا مع الشاي. قالت:

- وأين تقيم؟

امتلكني الخجل حين قلتُ لها في السكري، نعم أنا أعيشُ هناك، فالأخت تُمنعُ من الحديثِ مع أخيها، وتُمنعُ من الغناء لأن صوتَها عورةٌ، وتُمنع من الخروج إلا إذا كانت بكامل حشمتها، فستان طويل، شال يغطي الشعر بدون مكياج، قالت لي :

- تعال معي وانظر، وبدأت تذكرُ لي اسمَ كل نوع وهي تشير إليه، وحين وصلتْ إلى واحدة كان شكلها لذيذ واسمها "الإكلير" قلت لها:

- أريد هذا، قالت:

- بما أنك تريدها خذها لكن في المرة القادمة تذكر أن تحضر معك نصف ليرة لأن سعرها ليرة ونصف.

قلتُ في نفسي "مصطفى كافر، مصطفى اللعين لا يعطي أي شيء بالدين غير الخضروات، والآنسة فهيمة كافرة لأنها حكمت بالكفر على المسيحيين

قلتُ لها:

- لا أريد لأنني لا أعرف إن كنتُ سأعود مرة أخرى أم لا، وإن كنتُ سأعود، لا أعرف متى. قالت:

- لا بأس خذها وإن لم تعد، فليسامحكَ الرب...

حين قالت الرب أحسستُ بأنها تتحدث عن أحد غير الله الذي نعبده، سألتها:

- من هو الرب الذي تقصدين؟ قالت:

- الله.

-ولماذا لم تقولي الله؟ قالت:

- لأننا تعودنا أن نقول ذلك ولا فرق بين الله والرب؛ سألتها:

- ومن أنتم؟ قالت:

- نحن المسيحيون

-وبماذا تؤمنون؟

-بالإله الواحد

-وماذا يعني المسيحيون؟ قالت:

- خذ الكعكة وانتظرني في الخارج، واجلس على المقعد ذاك مشيرة بسبابتها إلى كرسي أمام المحل، سأعود بعد دقيقتين لأشرح لك ذلك.

جلستُ أنتظرها وأنا أتناول الإكلير، وأحاول بيني وبين نفسي أن أقولها بالرتابة التي قالتها وهي تضعُ الكسرة تحت الألف إكلير، أتت جورجيت وفي يدها كأس عصير صغير. قالت لي.. تفضل.. سألتها:

- لمن هذا؟ قالت:

- لك..

-لا أملك ثمنه. قالت:

- إنها ضيافة ، وأكملت سأشرح لك من هم المسيحيون باختصار، لأنني لا أملك من العلم في الدين إلا القليل، إنهم يشبهون الإسلام وباقي الأديان السماوية، لكن الفرق بينهم في الرسل وطرق العبادة، فمثلاً المسلم ينطق الشهادتين، أمّا المسيحي فيقول باسم الآب والابن والروح القدس إلهٍ واحد آمين، أي أن الله واحد في ثلاثة أقانيم إلهية، الأقانيم الثلاثة مستقلة ولكنها واحدة في المادة الجوهر والطبيعة.

-تقولون باسم الأب والابن وروح القدس إلهٍ واحد، من هو الأب ومن هو الابن وماذا تعني روح القدس؟

-الأب هو الله، والابن هو يسوع المسيح الذي صلب ليحمل خطايانا، وهذا الصليب على صدري هو رمزٌ له ليحمينا من السوء، وروح القدس هي روح الله الذي يرشد البشر ويكون دليلاً لهم.

-وهل الله لديه ابن؟

- كلنا أبناء الله والروح التي فينا هي من روح الله، لكن يسوع المسيح ولد من عذراء وهذا الشيء ستفهمه في المستقبل، لأن شرحه سيصعب عليك بعض الشيء الآن. في

النهاية عليك أن تكون إنساناً تحترم جميع البشر، وهذا يجعلك قريباً من الله جداً، والآن عليّ أن أذهب وأتابع عملي، وأنت عليك الذهاب إلى البيت.

احتضنتني وقالت تشرفتُ بمعرفتك يا سعيد، وإن عدت ثانيةً لا تنسَ النصف ليرة، وإن لم تعد فليسامحك الربّ، قالتها وهي تمازحني واضعةً يدَها على وجنتيّ ومحدقةً في عينيّ وهي توصيني بأن أنتبه إلى دروسي.

الإيمان في القلب كما تقول أمي، وصلتُ إلى البيت سعيداً نوعاً ما، إثر كلام جورجيت، لا أدري لماذا، لكن كلامها بعثَ الطمأنينة في داخلي بعض الشيء. حين دخلتُ وجدتُ أمي وإخوتي يلعبون في الظلام، لم ندفع فاتورة الكهرباء حتى الآن، ساعدني يا إلهي، احتضنتني أمي ورسمت قُبْلة على خدي وسألتني إن كنتُ جائعاً؟

-نعم يا أمي أنا جائع

-ماذا فعلت في العمل اليوم، سألتني؟

ولأني لا أريد أن أكذب بادرتها بالسؤال:

- من هم النصارى يا أمي؟ قالت:

- ولماذا تسأل؟

- لأن الآنسة فهيمة قالت لنا هم المسيحيون، وقالت عنهم كفاراً، وحين سألتها لماذا هم كفار، قالت لأنهم غيروا في طرق وتعاليم المسيح ولم تجاوبني أكثر من ذلك، وقالت لي اجلس حين حاولتُ أن أكمل. قالت أمي:

- ديانة المسيحيين كباقي الأديان في عبادة الله لكن لكل دين طريقته، وكما قال الله في الكتاب العزيز { يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ الله عَليمٌ خَبِيرٌ }. فمهما تعدّدت الديانات

واعتقادات الناس يجب أن يتقوا الله ويتعاملوا بإنسيانيتهم، وأنا عشتُ بينهم إلى أن تزوجت.

– وكيف تقابلتما أنتِ وأبي في المرة الأولى؟ سألتُها.

–تزوجتُ كي أهرب من واقعي على أمل أن واقعي الجديد سيكون أفضل، لكن للأسف يا بُني كما ترى، جدتك إن لم تجد شيئًا تلتهي به، تخلق المشاكل من تحت أظافرها، غير الإهانات والضرب، ولكن كان يجب ألا تضربها

– لا يجوز هذا يا سعيد يجب أن نراعي شعورها، هي عجوز متقدّمة في السن ويجب أن نحترمها بقدر الإمكان، لربما في يومٍ من الأيام اهتدت إلى عقلها.

– لماذا تكرهنا هي وتحب أخي فرهاد فقط؟

–لأن فرهاد الحفيد الأول في العائلة وهي أَسْمَتْهُ فرهاد على اسم والدها، حين توفي والد جدتك ترك نصف ثرواته وأملاكه لجدتك.

– وأين الأملاك التي ورثتها؟

–لم يبقَ شيءٌ غير هذا البيت الذي نسكنه، أما الباقي لا أدري.

أحسستُ أن أمي تخفي عني وعن إخوتي أشياءً كثيرةً، ولا تريد النقاش فيها.

– لكن لم تقولي لي أين التقيتِ بأبي؟ قالت:

– كان صديقاً لخالك" مروان"، وكان يتردد بين الحين والحين على بيتنا، كان يجلس مع أخي كثيراً، وكان بينهما عمل.

–عمل! الذي أعرفه عن خالي مروان أنه يلعب القمار، ولم أسمع في يومٍ من الأيام أنه كان يعمل. قالت:

– كان سابقاً يعمل في مجال التجارة مع والدك.

-على سيرة والدي، لم يتصل بنا منذ فترة طويلة يا أمي، لماذا كل هذا البعد؟ بدأت أنسى شكله، أربع سنوات لم يأتِ لزيارتنا، ولم يتصلْ غير مرتين أو ثلاث مرات طيلة السنة، فقط يكتفي بإرسال بعض النقود والرسائل كل شهرين أو ثلاثة.

- كما تعرف يا بُني، الاتصال الهاتفي يكلّف الكثير من النقود، وغير ذلك ليس في بيتنا هاتف ليتصل، أظن أنه يتصل في بعض الأحيان ببيت جارنا عبد العزيز، وهم كما تعرف ليس لديهم أولاد، في أكثر الأحيان يخرج مع زوجته بعد الوظيفة لزيارة أصدقائهم والأقارب.

-أنا لا أحب أقاربنا يا أمي، لا أحد يسأل عن حالنا غير خالتي بعض الأحيان وأغلبهم أغنياء، ماذا فعلنا لهم؟ قالت لي:

- إن كنت تريد أن تمضي حياتك بسعادة فلا تتوقع شيئاً من أحد، فأنا امرأةٌ ترعرعتُ في كنف الحرمان واعتدتُ على الفقدان، والآن أحاول جاهدةً بأن أقدم لكم كل ما لدي، أخرج في الصباح إلى عملي سعيدةً به، لأني أدرك أن هذا المال لكم وهذا التعب سينتهي حين أجدكم أكفّاء في دراستكم وفي حياتكم، والأهم من هذا كله أن تبنوا سمعة طيبة، لا أريد أن تكون طبيباً وسمعتك سيئة، يكفيني أن يقولوا لي أولادك من خيرة الأبناء وأن يذكركم الناس بأخلاقكم، هذا مايهمني، ولا أحد أفضل منك فقط لا تجلس، قف وحارب بالقلم، بالعلم والفكر، بالعلم تُكفِّن المستحيل وتدفنه في مقبرة البائسين، وبه تقف على ناصية الحلم وتحلق في الفضاء الشاسع.

طرق الحياة ليست معبّدة بالبراءة والورود، الأشرار في كل مكان، يكفيني بكاء، بالعلم فقط سأُكفِّن المستحيل.

هكذا يجب أن أكون، لكن لا أدري لماذا أحسستُ في كلام أمي أن أبي لن يعود.

في الصباح استيقظتُ على صوت أمي وجدتي وهما يتشاجران، ماهذا اليوم!
كانت خيبتي تبدأ حين أستيقظ في الصباح، أول شيءٍ كنتُ أقولُه "اللعنة لقد استيقظتُ!"، كنتُ أقول دائمًا قبل النوم لو أن هذه الليلة هي آخرُ ليلةٍ لي، وأجد نفسي في الصباح مكفناً والناس تبكي من حولي، كم سيكون جميلاً ألّا تواجه الناس في الصباح، لا أحد يطالبك بالمال، ولا أحد يقول لك والدك هرب من أمه وترككم للكلاب الضالة في منتصف الطريق، كم سيكون جميلاً لو وجدتُ نفسي في صندوقٍ خشبي يحملونني إلى قبري والناس تبكي من حولي، وكما قال دوستويفسكي (لم أرَ نظرات الحُب إلا على عتبات المقابر، والمستشفيات، نحن أُناسٌ لا نتذكر من نحبهم إلا في النهاية) رغم أني كنتُ أحسد من مات وترك هذا العالم بسلام، كلَّ صباحٍ أمدُّ يدي للسماء وأقول إلهي يا إلهي خذني إليك أو دعنا نعِش بسلام يا إلهي، أرفعُ نفسي من الفراش مثل الذي يرفع جثةً هامدةً من منتصف الطريق، أغسلُ وجهي بدمعِ عينيّ وإلى مدرستي أمضي، لا كهرباء في البيت ولا طعام، الديون تغرقنا رويداً رويداً، أبي الذي لا أعرف متى سيعود ليحميني من ظلم الحياة، أدخلُ إلى الصفِ أنتظرُ كلمةً جميلةً من معلمتي لتعطيني الطاقة في الدروس، في كل مرة تذمني أمام أصدقائي وأنا مللتُ. لا أعرف سر كرهها لي، خلود فقط تعطيني الأمل في الاستمرار في مدرستي.

في اليوم التالي بينما كنتُ جالسًا في مقعدي، دخلت الآنسة فهيمة إلى الصف وقفنا لنحيها تحية الصباح، أمرتْنا بالجلوس، قالت لي انهض يا سعيد واكتب على السبّورة اليوم والتاريخ، استغربتُ من طلبها هذا لكنني شعرتُ بالسعادة بعضَ الشيء لأنها أول مرة تطلب مني هذا، لربما بداية صفحة جديدة تكون، كتبتُ على السبورة :

"اليوم الخميس". التاريخ: التاسع من شهر أيار عام ألف وتسعمائة وواحد وتسعون.

حين انتهيت من كتابة التاريخ واليوم طرق أحدهم باب الصف، قالت الآنسة فهيمة تفضل، دخل ابن جارنا في الحي وقال للآنسة فهيمة توفي والد سعيد والمديرة تطلب الإذن منك أن ترسليه إلى المنزل. سقطتْ قطعةُ الطباشير من يدي، تأخر أبي في العودة وحين عاد كان ميتاً، تباً للحياة، للإنسانية، للظلم، للقهر، للفقر، للموت.

تباً لحياةٍ لا تشبه الحياة، أين السعادة التي يتكلم عنها البشر؟ أين البشر؟

الحياة مليئة بالظلم، مثل الهواء، موجودٌ في كل مكان، حتى الهواء يظلم الفقير في الشتاء.

2

استقبلنا جثةَ أبي في مطار حلب، لا أحد مع الجثة غير صديقه هشام من بنغازي الذي اتصل بعمي وأخبر عمي برسالةٍ مقتضبة قال فيها:

"مات عماد والطائرة ستصل غدًا الساعة الحادية عشرة ظهرًا".

ترك خلفه أربعة أولاد مع أمه وزوجته وسربٌ من الديون لاتنتهي.

حملنا نعشَ أبي ومضينا لزيارة حنّان، المقبرة الكبرى لقرى عفرين، الناس تبكي وأنا وأمي وإخوتي كذلك، وصلنا إلى الزيارة ورائحة الموت تحوم في كل مكان.

بدأت عملية الدفن، وقفنا أنا وأخي فرهاد حول التابوت مع أعمامي وأخوالي نريد أن نرى وجه أبي لآخر مرة، لكننا لم نستطع، أبعدنا الناس عن ذلك لأننا كنا صغاراً ، صغاراً جداً. لا حول لنا ولاقوة، كلٌ منا يردد في داخله مقطوعةً ما. نحيب النساء متواصل وكأن الحياة تنتهي، لكن، أين كان هؤلاء حين كنا نبرد؟

حين كنا نجوع؟

حين نمرض؟

نشقى؟

نتعب؟

نبكي؟

نهذي؟

أين كانوا؟

أم أن الواجب يقام فقط عند الموت؟

كلهم منافقون، وأكثرهم نفاقاً جدتي التي تحتضن أمي الآن، أُدركُ تماما أنها ستعود كما كانت، انهالت التراب فوق أبي، وقرأتُ الفاتحةَ على روحه، وقف أعمامي على جانبيّ القبر يتقبّلون التعازي. . .

بعد أسبوعين من الهم والغم يلفُّ البيتَ صمتٌ مطبقٌ، لا أحد ننتظره ليعود ولا حول لنا ولا قوة، جلسنا أنا وإخوتي كمقطوعةٍ موسيقية حول أمي وهي تقرأ لنا كلماتٍ كتبها والدي في إحدى مذكّراته التي يطلب فيها أن نسامحه، وأنه كان يتوقع فاجعة ما ستحلّ به قريباً.

سألت أمي كيف وأين مات؟ لمَ كلّ هذا الغموض

لم نعد صغاراً يا أمي، صمتت أمي للحظات وقالت:

- مات بجلطة قلبية في العمل.

مرت الأيام ونحن في حالة الفراغ، أمي في وظيفتها أنا وإخوتي رسبنا في المدرسة، لم تكن المرة الأولى التي أرسب فيها، نلعب في الحي، بلا أجنحة نطير بها مثل باقي الأطفال، الديون أثقلت أحوالنا، في أكثر الأحيان كنا نجلس في البيت بصمتٍ مطبق كي لا نضطر إلى فتح الباب لأحد الأشخاص الذين يطالبوننا بالمال.

جلستُ مع أخي فرهاد وقلتُ له يجب أن نعمل كي نستمر ولا يجب أن نبقى هكذا، قال لي: "لا أستطيع، أريد أن أكمل دراستي، والعام القادم سأكون في الصف التاسع".

وأنا أريد ذلك يا أخي، لكن كما ترى أمك تعود للمنزل مرهقة والمال الذي تجنيه من عملها لا يكفي لبضعة أيام، قال: لا أستطيع.

ذهبتُ في اليوم التالي لأبحث عن عمل، لن أعود إلى عملي عند مصطفى، لا، ولن أتنازل عن انتقامي، كل ما في الأمر الآن أن الانتقام في قائمة التأجيل إلى أن أنتهي من

فوضى الفقر، سألتُ الناس في الحي إذا كان عندهم علم عن أي مكان يحتاج لشخص يقوم بأعمال التنظيف والشاي والقهوة، دلّني أحدهم على مكتب عقاري في منطقة الجميلية، يحتاج إلى أجير صغير ليقوم بصنع الشاي والقهوة والتنظيف في مكتب.

السكري، تبعد عن الجميلية قرابة الساعة سيراً على الأقدام، وإذا ركبت الباص سيكلفني الكثير، لكن السير أفضل، بأجرة الباص سأشتري لإخوتي بعض السكاكر والكعك والحلوى حين أعمل.

أخذتُ العنوان وبدأتُ بالسير إلى الجميلية، مررتُ بأسواق الكلاسة وبستان قصر والمنشية إلى أن وصلت إلى العنوان المحدد، كان هناك رجلٌ ذو شاربين معقوفين، حليق الشعر والذقن.

-السلام عليكم.

-عليكم السلام.

-سمعتُ أنك بحاجة إلى أجيرٍ لصنع الشاي والقهوة وتنظيف المكتب.

-نعم، ادخل، ما اسمك؟

-سعيد الكردي

-أين تسكن؟

-في السكري. قلت له. قال:

- وكيف ستأتي من السكري إلى هنا كل يوم؟قلت-

سأكون هنا في الوقت المحدد، بعد موافقتك طبعاً، لكن متى أستطيع البدء؟ لأني بحاجة ماسة إلى العمل. قال:

- تستطيع الآن أن تصنع لي فنجان قهوة تجربة، المطبخ هناك.

وأشار بسبابته إلى باب في زاوية المكتب..

دخلتُ المطبخ وبدأت بغلي القهوة، ومع تحريك الملعقة أدعو أن يعطيني عملاً وراتباً جيداً ، أستطيع به أن أساعد أمي وإخوتي في متطلبات الحياة.

قدمتُ له القهوة وأنا في حالة خوف، قال :لا بأس، ابدأ عملك، غداً الساعة التاسعة صباحاً

سألته عن الراتب قال:

- 200 ليرة في الأسبوع ويوم الجمعة عطلة، اسمي المعلم شكري

- حاضر معلم شكري غداً في التاسعة سأكون هنا.

كان طريق الإياب أقصر من الذهاب لفرحتي، 200 ليرة في الأسبوع يعني 800 ليرة في الشهر في الوقت الذي كانت تتقاضى فيه أمي مبلغ 2800 ليرة في الشهر وهي موظفة في معامل الغزل والنسيج، وصلتُ إلى البيت لأبشر أمي بالخبر، وكعادتها رفضت الفكرة لكنها استسلمت للأمر الواقع كي نقضي على الديون، وافقتْ بعد أن وعدتُها أن أكمل دراستي في الشتاء، احتضنتُ إخوتي بفرحةٍ غامرة، ووعدتهم بأن أشتري لهم كل شيءٍ يتمنوه من لباسٍ وطعام.

ذهبتُ في اليوم الثاني إلى عملي وأنا في كامل أناقتي الفقيرة، حذاء اشتريته منذ عامين، بنطال، بدأتْ علامات التمزق تظهرعليه، قميصٌ صيفيٌ مهترىء، خرجت من البيت قبل ساعتين كي لا أتأخر عن العمل، وصلتُ إلى هناك وانتظرتُ قرابة الساعة إلى أن جاء المعلم شكري.

فتح الباب وقال لي "اصنع لي فنجان قهوة سادة وبعدها قم بتنظيف المكتب"، صنعتُ له القهوة وأنا في كامل سعادتي، ثمّ بدأتُ بتنظيفِ الكراسي وطاولةِ المعلم، انتهيت من

تنظيف المكتب، فبدأتُ بتنظيف الحمّام والمطبخ، ناداني المعلم شكري حين حضر بعض الزبائن لأصنعَ لهم الشاي، بعدها أرسلني لأشتري له بعض القرطاسية، حاولتُ أن أكون دقيقاً جداً. هكذا أمضيتُ يومي بكل سعادة، إلى أن أصبحت الساعة السابعة مساءً، موعد الإغلاق، وضّبتُ المكتب، وودعني وعدتُ إلى بيتي العزيز. المشاكل بين جدتي وأمي أصبحتْ قليلة، لكنها مازالت تحمل الضغينة في داخلها، كان واضحاً ذلك في نظرات جدتي، لكن ربما حزنها على وفاة والدي جعلها تخفّفُ المشاكل قليلاً .

بعد أسبوع من عملي أعطاني المعلم شكري راتبي وقال لي سأوصلك إلى بيتك كي لا تفقد النقود على الطريق، شكرتُه على كرمه، ركبتُ السيارةَ بجانبه وشعور المسؤول عن إخوتي أصبح يكبر بداخلي، 200 ليرة سأشتري لأختي بعض الألبسة من السوق الشعبي الذي يقام في السكري كل جمعة بعد صلاة الظهر، والباقي سأعطيهم لأمي، وفي الأسبوع القادم سأشتري لأخي "جوان".

حين وصلنا إلى الحي الذي نسكن فيه كانت أمي عائدةً من عملها، قلتُ لمعلمي هذه أمي، توقّفَ بجانبها وقال لها أنا المعلم شكري، قالت أمي تشرّفنا، دعا أمي للركوب معنا كي يوصلنا إلى البيت، لكن أمي رفضت وقالت: "البيت قريب من هنا ولا داعٍ لذلك، شكرا على دعوتك، تعال يا سعيد معي" قالت لي، ودّعتُ معلمي وشكرته ومضيتُ أنا وأمي إلى البيت.

ذهبنا أنا وأختي في اليوم التالي مع أمي لنشتري لها بعض الألبسة من السوق. حين اقتربنا من دكان مصطفى سألتني أمي :

-سعيد لماذا لم تعد للعمل عند مصطفى بعد وفاة والدك؟ قلتُ لها:

- العمل عنده شاق . قالت:

- ما رأيك أن نذهب ونعطيه خمسون ليرة دفعة من ديونه؟ قلتُ لها:

- لا، اذهبي أنتِ في يومٍ آخر.

اشترينا فستاناً لأختي وعدنا إلى المنزل، أخذت أختي ترقص مع فستانها الجديد، كم كان وجهها جميلاً . كان لفرحتها بذاك الفستان طعماً آخر بالنسبة لي، لقد اشتريته لأختي من مالي الخاص، ورغم بساطته لكنه كان أجمل فستان أشتريه لها، وقد أحسّتْ هي بنفس الشعور.

دخلتْ جدتي الشمطاء وأفسدتْ فرحتنا بالفستان حين قالت:

"هذا الفستان لا يجوز أن تلبسيه". سألتها أمي: "لماذا؟"

- يظهر جزءً من ساقها أسفل الركبة وهذا حرام.

أحسستُ أن أختي شعرت بالخيبة لذلك، قالت أمي: "لا بأس في ذلك، فهي ماتزالُ صغيرةً". صرخت جدتي بأعلى صوتها: "الله يرحمك يا عماد، الآن أدركت لماذا كنت تسافر دائماً، لديك زوجة لسانها يكفي لتهجير الميّت من قبره"، وأخذتْ تتمتم وتلعن.

احتضنتْ أمي أختي وقالت لها: "لا تبالي، أكملي فرحتك بالفستان.

في الأسبوع التالي أعطاني المعلم راتبي وقال لي سوف أوصلك إلى البيت وتصنع لي قهوةً في البيت عندكم، أريد أن أتعرف على إخوتك، لم يكن في كلامه شيء يدعو للخوف، لكنني شعرت بحالة من الاستغراب، لماذا يريد أن يتعرّفَ على إخوتي؟ ليكن ذلك ربما لأنه أحبّ عملي.

مضينا سوياً إلى البيت، في الطريق ركنَ السيارة في سوق الكلّاسة، ترجّل من سيارته، واشترى بعض الفواكه، وضعها في صندوق السيارة من الخلف، حين وصلنا إلى البيت قال لي احمل الأكياس التي في الصندوق وخذها إلى البيت وأخبر أهلك بأنني أريد

التعرف عليهم، دخلتُ إلى البيت وقلتُ لأمي ذلك، صمتتْ للحظة وكأنها لم تُرد ذلك، ولكن لم يكن منها إلا أن قالت: "أهلاً وسهلاً فليتفضل". دعوت معلمي إلى الداخل، جلس وبدأ بالكلام مع إخوتي وأمي وكأنه يعرفهم منذ زمنٍ بعيد، لم تكن جدتي في المنزل، تصرفٌ نبيل منه بزيارتي، لكنني لم أشعر بالارتياح لذلك، نظراته إلى أمي، طريقته في الحديث، لم يتوقف عن مديح نفسه في مغامراته، بعد أن شرب قهوته طلب مني بأن ألحق به إلى الخارج، ودّع أمي وإخوتي وخرجنا، أخرجَ من جيبه قطعة مال من فئة الخمسمائة ليرة، وقال لي هذه لك ولإخوتك اذهبوا إلى مدينة الملاهي غداً، كان عرضاً نبيلاً منه، رفضتُ وقلتُ له:

-خيرك سابق معلم. قال:

- خذها هذه مكافأة لك.

-لكنني لم أفعل شيئاً يستحق المكافأة يا معلم؟ قال لي:

-لقد ربحتُ في سمسمرة مبلغاً كبيراً، وجرت العادة أن يقوم المعلم بإكرام العامل في هذه الحالة.

- حسناً شكراً لك، رزقكَ الله وزادك في رزقك.

أحسستُ بأنه مالٌ مسمومٌ، لم يكن لل500 ليرة هذه طعم مثل المائتين التي تكون من تعبي. دخلتُ إلى البيت وقلتُ لأمي ذلك، قالت:

- أعدها له يوم السبت حين تذهب إلى عملك وقل له شكرا جزيلا
- - لكنه قال لي أنه ربح في سمسمرة في المكتب وجرت العادة بأن يعطي المعلم لعامله الحلوان.
- -قل له شكراً وحلواني منك أن تكون راضيا عن عملي، ثم أضافت:

- -إن طلب منك أن يوصلك إلى البيت مرة أخرى لا تقبل.
- - كيف ولماذا يا أمي؟ معلمي لطيفٌ
- ويكرمني دائماً، لم أرَ منه غير الخير في معاملته معي. قالت:
- - لا تكثر من الأسئلة وسأشرح لك بكل ببساطة شيئاً مهمّا يا بني، أنا أرملة في الخامسة والثلاثين من عمري، هذا يعني أن هناك من يرغب بالزواج مني إن أردتُ ذلك، لكن طبعاً أنا لا أريد، لأني أريد تعليمكم وتربيتكم ولن أسمح لأي رجلٍ أن يهدمَ بيتي ويُشتِّتَ أولادي، بالإضافة إلى ذلك، لا أريد أن يدخل أي رجل غريب إلى المنزل لأن الناس لاترحم يا بُني، وإن قال لك سأوصلك إلى البيت قل له سأذهب إلى بيت خالتي في محطة بغداد، وإن أصرّ على ذلك قل له لا لأنك تريد أن تشتري شيئاً في الطريق، المهم أن تتحجّج بأي شيء.
- وضعتُ الخمسمائة ليرة في جيبي وذهبتُ لأجلس في غرفتي وأفكر في كلام أمي، تمنيتُ لو أعطي الخمسمائة ليرة لمصطفى، أبصقُ وأبولُ عليها وأعطيه إياها مع تهديدٍ مباشر، لكن الوقت لم يحن لذلك.
- تذكرتُ خلود والمدرسة، السنة هذه لن أكون مع خلود في الصف لأنني رسبتُ، المهم سنلتقي في الطريق، يكفي أن أراها كل يوم ولو للحظة.
- في يوم العطلة جرت العادة بأن نبقى في الحي أنا وأخي إلى وقتٍ متأخر مع أطفال الحي، بينما كنا جالسين رأيتُ سيارة معلمي تدخل الحي، ماذا يفعل هنا؟
- اليوم جمعة والساعة اقتربت من التاسعة مساءً، ركن سيارته أمام باب بيتنا وترجّل من سيارته وبيده أكياسٌ، طرقَ البابَ فَفَتحتْ جدتي، تكلم معها قليلاً وعيون جدتي متجهة نحو الأكياس التي في يده، وهي مبتسمة، أفسحتْ له

المجال ليدخل، قلتُ لأخي معلمي في بيتنا وبيده أكياس، دعنا نذهب لنرى لماذا هو هنا. دخلنا إلى البيت فوجدته جالساً مع جدتي

- أهلا معلم

- أهلا سعيد

-لقد أتيتُ لنتناول العشاء سوياً، أولادي في بيت جدتهم وأحببتُ أن نتشارك معاً الطعام، ما رأيك بهذه المفاجأة؟

حالة غير طبيعية، تذكرتُ كلام أمي.

- أهلاً وسهلاً بك معلمي وشكراً لك

ذهبتُ لأبحثَ عن أمي وأستفسرَ عن ذلك، وجدتُها في غرفة النوم تنتظرني. قالت اُدخل وأغلق الباب خلفك، همَسَتْ لي بأن أقول لمعلمي بأننا تناولنا العشاء وحان وقت النوم، وأنك وجدتَ عملاً آخر ولن تعمل عنده بعد الآن، وعند الباب أعطِه الخمسمائة ليرة. قلت:

-لماذا يا أمي؟

-قل له هذا وسأشرح لك فيما بعد.

أحسستُ بالخوف في نظرات أمي وكلامها، خرجتُ إليه وقلت له:

- شكراً للطفك الكبير يا معلم، لكننا تناولنا العشاء منذُ قليل وحان موعد النوم.

لم أنتهِ من جملتي حتى بدأت العجوز برش الكلمات والإهانات لي:

- لم نتناول العشاء يا كذّاب، الرجل كثّرَ الله خيره جاء ليتناول العشاء معنا، قاطعها معلمي:

- حسنا لن أحرج أهل البيت لأنه يبدو أن الست نيفين لا تريد استقبالي.

-لا ليس كذلك يا معلم...

قاطعتني جدّتي قبل أن أكمل كلامي وقالت:

- اذهب وأحضر الشاي. وقفَ معلمي وقال:

- لا داعي للشاي، تأخّر الوقت؛ السلام عليكم.

رافقته إلى الخارج، أمام الباب قلتُ له:

- معلم هذه الخمسمائة ليست من حقي.

-بلى، هي حقك.

ركب سيارته وكان واضحاً عليه علامات الغضب، لم يدعني أكمل حديثي بأنني لن أعمل عنده بعد اليوم.

عدتُ لأستفسر من أمي لماذا طلبت مني أن أطرده وأن أعيد له المال وأتوقف عن العمل، حين دخلت إلى البيت أخذت جدتي بالشتم وقالت:

- أنتم لن تبصروا النور يوماً ما، الرجل أراد أن يكون كريماً معكم، وأنتم تطردونه يا قليل الأدب والتربية.

لم أجادلها، كان كلُّ همي أن أفهم ماذا تخفي أمي، دخلتُ إلى غرفة النوم وجدتُ أمي في حالة غريبة، تجلسُ على السرير مسندةً رأسها الجميل على الجدار ونظرها متجهٌ إلى سقف الغرفة:

- أمي لماذا لا تريدين بأن أكمل العمل عنده؟ سألتها :

بُني ببساطة شديدة ودون مقدمات معلمك يريد أن يقيم علاقة معي، هددتُه أكثر من مرة وهو لم يقتنع بذلك.

- أكثر من مرة؟! سألت أمي مستغرباً. قالت :

-نعم، يعترض طريقي كل صباح حين أذهبُ للعمل وأنا في آخر مرة هددته إن أعادها سأصرخ في الحي بأنه يتحرش بي، لهذا أتى اليوم وبالأمس إلى البيت.

- اللعنة وأنا أقول في داخلي لماذا كل هذا اللطف بعد أن أوصلني في المرة الأولى.

سألتني أمي:

-هل أعطيته الخمسمائة ليرة؟

- لا يا أمي رفض أن يأخذها ولم يفسح لي المجال بأن أقول له أني لن أعمل عنده بعد اليوم.

- حسناً، اذهب غداً وقل له ذلك ثم عُد إلى البيت ورزقنا على الله.

ذهبتُ في اليوم التالي إليه وفي قلبي سكين طعنني به مصطفى حين اغتصبني وجاء هذا الحقير شكري ليكمل الطعنة بدلاً من أن يرمّم جرحي، دخلتُ إلى المكتب وجدتهُ ينتظرني وعلاماتُ الغضب تبدو واضحة عل وجهه، فبادرني:

- لماذا تأخرت سيد سعيد؟

-لم أتأخر يا معلم شكري، كل ما في الأمر أني أتيتُ كي أخبرك بأنني لن أعمل عندك بعد الآن، وخذ هذه الخمسمائة. صمت للحظة وقال:

- طبعاً؛ مَنْ يسرق خمسة آلاف ليرة لن تفيده الخمسمائة.

-خمسة آلاف!

-نعم، كان هنا في الصندوق خمسة آلاف ليرة وضعتها يوم الخميس حين ربحتُ في السمسرة، والصندوق ليس فيه قفل وأنت تعرف ذلك، وإن لم تُعِدها لي سوف أتصل بالشرطة يا حرامي يا لص، اذهب حالاً وأحضر المال.

-يا معلم والله العظيم لم أسرق شيئاً، وإن أردت أن تتأكد من ذلك تعال معي الآن لنذهب إلى البيت وفتّشه.

-لا يا حرامي اذهب بنفسك وأحضره، لا يوجد أحد يعمل هنا غيرك وأنت من سرق المال من الصندوق.

-يا معلم شكري والله العظيم لم أسرق، لم أسرق!!

بدأتُ بالبكاء والصراخ وأنا أدافع عن نفسي. هبَّ واقفًا وقال:

- اذهب الآن وأحضره قبل أن أتصل بالشرطة، وإن لم تعد قبل الساعة الثالثة سآتي أنا إلى بيتكم ومعي الشرطة.

أحسستُ بأن هذه الأرض صغيرة جداً ، والظلم يحوم فيها متباهياً في كل مكان، وما من أحد يوقف الظلم. أبي مات، وأمي لا حول لها ولا قوة، وجدتي لعينة، ومصطفى اغتصبني، والديون أغرقتنا، لا الابتسام يعرف طريقه إلى وجه عائلتي ولا السرور، في كل يوم مصيبة، في كل ساعة كارثة تحدث وما من شيء يستطيع أن يمحو الظلم من هذه الحياة.

طأطأتُ رأسي وخرجتُ من المكتب خوفًا من أن يضربني، مشيتُ في طريقي والطرق تتمايل أمام نظري، كيف سأنتهي من المصيبة هذه، كيف؟

ماذا سأقول لأمي؟ كيف سيكون شكلها؟ ساعدني يا الله.

وصلتُ إلى البيت وقبل أن أدخل تذكرتُ بأنه قال لي سيأتي مع الشرطة، إذًا يجب عليّ أن أختفي إلى أن تأتي أمي وأخبرها بالمصيبة. ذهبتُ إلى حديقةٍ صغيرة قريبة من بيتنا، جلستُ على مقعد أسفلَ شجرةٍ أحمي نفسي بها من حرارة الشمس، الدوران في رأسي لم يتوقف منذُ لحظة خروجي من المكتب، وقع نظري على طفلين مع والدهما يلعبان

وأصوات ضحكتهما تملأ أرجاء الحديقة، حسدتُ الطفلين وتمنيتُ لو أن والدي هنا ويلعب معي قليلاً، الدموع لم تتوقف منذُ خرجتُ من المكتب، ماذا سأفعل يا الله؟ فجأة وقفت أمامي فتاة تحمل كتباً بيدها وسألتني لماذا أبكي، فقلتُ لها مات أبي منذ فترة وقد اشتقتُ إليه. قالت:

- هل يمكنني الجلوس بجانبك ونتحدث؟

هززتُ رأسي بالقبول ولم أستطع الكلام، المصيبة أثقلت لساني.

- أنا اسمي ريم ما اسمك؟

-تعيس.

-تعيس؟

-نعم اسمي تعيس، لأن اسمي الحقيقي لا يدل على حالتي.

-وما اسمك الحقيقي؟

-سعيد.

-اسمع يا سعيد، الحياة مليئة بالمشاكل وأنا أريد أن أنصحك كأخت أكبر منك بأن تكون أكبر من المشاكل، الهروب منها لا يفيد، أنا لا أعرف ما الذي حصل معك لكنني أستطيعُ قراءة الحزن في عينيك.

-نعم هناك آلاف الأشياء الأخرى

- كلها لا قيمة لها أمام دموع عينيك، فقط قف وحارب من أجل الاستمرار في الحياة ولاتدع الحزن يسيطر عليك، والآن يجب عليّ أن أذهب كي لا أتأخر أكثر من ذلك، إن أردت التحدث إليّ، أنا في كل يوم أمر من هنا في نفس هذا الوقت وسأمنحك من وقتي بقدر ما أستطيع. فرصة سعيدة وانتبه على نفسك.

ربتت على كتفي وهي مبتسمة ومضت في طريقها.

الذي يهرب من مشاكله يجعلها معقدة أكثر في المستقبل، حامت جملتها في رأسي، إذًا كان يجب عليّ ألّا أخرج من المكتب لو أتت الشرطة، فأنا لم أسرق نعم لم أسرق. سأذهب إلى البيت وأنتظر أمي وهي الوحيدة التي ستساعدني. دخلتُ إلى البيت وكالعادة استقبلتني جدتي بسؤالها:

- لماذا أتيت باكرا؟ هل طردك السيد شكري لأنك لا تنفع للعمل؟

قالتها وهي تبتسم باستهزاء وتظنُ بأنها تمازحني ولا تعرف بأنها ماجنة والمزح عندها قلة حياء لا أكثر.

- هذا ليس من شأنك أيتها الشمطاء.

وما إن قلتها حتى انتفخت أوداجها كالعادة وبدأت سيل الشتائم.. دخلتُ إلى غرفتي، تمددتُ على فراشي المنهك مثلي وأنا أردد في داخلي كلام ريم. كيف سأواجه طوفان المشاكل التي تلاحقنا؟ فواتير الكهرباء المتراكمة، الديون التي تغرقنا يوما عن يوم، غير ميراث الديون التي تركها لنا والدي.

سرقني النوم من كثرة التفكير واستيقظتُ على صورة شخص يقف فوق رأسي ممسكاً بياقة بلوزتي ويقول لي:

أنت سعيد الكردي؟

-نعم. قلتها وأحسستُ أن حياتي انتهت هنا. شدني من بلوزتي وقال:

- قف وقل لنا أين وضعت المال الذي سرقته من مكان عملك عند السيد شكري؟

-سيدي أنا لم أسرق شيئاً صدّقني، البيت أمامك فتش كما يحلو لك.

قلتها ودموعي تتساقط من عينيّ رغماً، لأول مرة أتكلم مع رجل في الشرطة، والشرطة في بلادي ليست لحمايتنا، بل لحماية القوي كما كنت أسمع من عمي الذي كان يزورنا بين الحين والآخر. صفعني على وجهي وقال: "إياك أن تتحرك من هنا"، خرج إلى أرض الدار وقال لعناصره فتّشوا كل البيت، رأيتُ شكري من النافذة يتحدث مع جدتي وهناك رجال شرطة بجانبه، يا إلهي أنا لم أسرق، ماذا يريد مني هذا؟

ساعدني يا الله. بدأ رجال الشرطة في التفتيش وكأنهم يقومون بعملية تخريب وليس تفتيش. كل شيء في المنزل تبعثر هنا وهناك، حتى أحواض الزرع لم تسلم منهم، بدؤوا بتفريغها على الأرض واحدة تلو الأخرى، وفجأة سمعتُ أحدهم يقول:

- سيدي لقد وجدنا آلة كاتبة وهذا الظرف داخل صندوق في حوض الزرع بجانب باب البيت من الداخل.

آلة كاتبة وظرف؟ ما هذا الذي أسمعه؟

كنتُ أسمع في الليل بعض الأحيان صوت آلة كاتبة نعم، لكن كنتُ دائماً أقول ربما أحلم. وقف الضابط وبدأ يقرأ الأوراق الموجودة داخل الظرف. سأل جدتي: "لمن هذه الأوراق؟" فقالت: "لا أعرف، اسألوا نيفين ربما تعرف، ولكن ماذا يوجد في هذه الأوراق؟" فقال "هذا ليس شأنك، ولأنكِ امرأة عجوز سنكتفي بأن نمنعك من الخروج من البيت إلى أن نرى لمن هذه الأوراق"، وأضاف "أين تعمل نيفين؟"

قالت جدتي: "في معامل الغزل والنسيج، بمنطقة الليرمون"

أمر اثنين من عناصره بوضع الأغلال في يدي وجرّي إلى السيارة.

كان أهالي الحي مجتمعين أمام الدار وكأنه عيد، بعضهم يهمس "سعيد الحرامي" وبعضهم يقول الله أعلم ماذا فعل حتى أخذوه هكذا..اللعنة لم أتجاوز الثالثة عشر من عمري وأنا في طريقي إلى السجن. ماذا فعلتُ يا إلهي..؟

وأنا في الطريق إلى المجهول أراقب الناس من النافذة الصغيرة، أحسستُ أن الجميع يعيش حياةٍ طبيعية إلا أنا، أحسستُ أن الجميع لديهم أم وأب ومنزل إلا أنا. أمي تذهبُ في الصباح إلى عملها وحين تعود مساءً يحتّل التعب جسدها الرقيق بلا شفقة، لكن لمن تكون الآلة الكاتبة؟

نزلتُ من السيارة ويداي مقيدتان وقلبي أيضاً، الطريق من السكري إلى فرع الأمن الجنائي في الجميلية كان طويلاً، طويلاً جداً، طوفانٌ من الأفكار في مخيلتي، هل سيصدقونني؟ هل سأبقى في السجن كثيراً؟

على باب الفرع وقف رجلٌ تبدو عليه ملامح المساعد جميل الذي كنتُ أسمع عنه في برنامج { حكم العدالة، رأسٌ يشبه اليقطينة في حجمه، حليق الشعر والذقن وشاربين يقف عليهما النسر مثل شكري، كان يبدو وكأنه ينتظرني، سألني "ما اسمك؟"

-سعيد الكردي سيدي. أعاد السؤال للتأكيد:

- سعيد؟

-نعم سعيد سيدي.

-اسم ابني سعيد وسوف أعاملك مثله تماماً

شعرتُ بالارتياح لهذه الجملة، لم يدم الارتياح طويلاً حتى وجدتُ كفَّ يده ملتصقاً بوجهي، أجراس كنائس بدأت تقرع في رأسي حين صفعني ابن الكلب، وقال لي:

- هكذا أبدأ يومي مع ابني سعيد.

أخذوني إلى غرفة فيها سرير وخزانة مليئة بالملفّات، الجو حار وأريد أن يحرروا يديّ من السلاسل. بعد نصف ساعة تقريبا جاء عنصر وقال لي:

- هل أعجبك المنتجع؟

لم أجبه لأني لم أعرف ماذا كان يقصد، قال لي:

- تعال يا حمار لترى بعينك السجن الحقيقي، لكن باعتبار أنك قاصر اضطررنا أن نضعك هنا إلى أن يبتوا في قضيتك يا حرامي.
- قضية وحرامي؟ يا إلهي أين أنت؟ لم أتجاوز الثالثة عشر من عمري والألقاب البذيئة تلاحقني أينما اتجهت. لحقتُ به في الممر الطويل والألغاط في كل مكان، بعضهم يهذي وبعضهم يبكي وبعضهم يصرخ، أين أنا يا إلهي؟ هل هذا فرع أمن أم فرع لجهنم؟
- وصلنا إلى آخر الممر، كان هناك بابٌ حديديٌ يبدو عليه أنه مسروقٌ من سجون الاحتلال العثماني، يجلس عنصر أمام الباب، قال العنصر الذي يقودني للعنصر الآخر:
- -افتح الباب ودعه يرى المنتجع الأساسي للصوص والمجرمين وماذا يحصل معهم حين يرفضون الاعتراف.

- فتح الباب وكان خلفه باباً آخر، لا يمكنك أن ترى ما خلفه، الباب الأول كان هناك شباك صغير في المنتصف فيه قضبان، حين فتح الباب الثاني رأيتُ السجن لأول مرة في حياتي، غرفة تفوح منها رائحة العفونة والنتانة، أشخاص يبدو عليهم أنهم لم يروا الشمس منذ أيام، وأشكالهم توحي بأنهم آكلو لحوم البشر، وليسوا بشراً، قال العنصر للمساجين:
- - أريدُ منكم أن تقولوا لي ماهو شعوركم إن دخل معكم السجن هذا السعيد؟
- صرخ الجميع بصوتٍ واحد وكأنهم كانوا متفقين: { بدنا نطعميه حلاوة }
- حلاوة؟ ماذا يقصدون بذلك؟
- لم أهتم لأن نظري كان متجهاً إلى شخص يسيل الدم من رأسه وهو يبكي، رجلٌ مسنٌ، عظام وجهه ترتسم بشكلٍ واضح، امتلكني ذعرٌ كبيرٌ، يبدو أنهم أنهكوا جسده حتى النزيف، أما أنا ماذا سيفعلون بي؟ قال لي العنصر: "هل ترى لوح الخشب ذاك؟"

أشار بسبابته إلى لوحٍ خشبي، توجد مفصلات باب في المنتصف وفي الزوايا الأربعة حبال بحجم معصم اليد والقدم وحزام في المنتصف من فوق. قلتُ له: "لا"، قال لي:

- - هذا اسمه بساط الريح والذي لا يعترف في المرة الأولى يركبه ويذهب به في رحلة قريبة جداً من جهنم، وأنا من ناحيتي أنصحك بالاعتراف قبل الوصول إلى هناك.
- لم أعد في حالة طبيعية، بدأ إحساس الموت يمتلكني، وكأني إن لم أعترف بالسرقة سوف يذبحونني مثل طير الشاة، ويرمون ببقايا لحمي إلى الكلاب.

- أمسكني من يدي وقال لي: "تعال معي حضرة الحرامي"، قلتُ: "له أنا لستُ حراميّاً
- ضحك ساخراً وقال:
- كل الذين يأتون إلى هنا يقولون هذا في البداية، وبعد التنزه مع أبو وحيد الملقب بعزرائيل السجن بين بساط الريح والدولاب تظهر علامات السرقة والاغتصاب والقتل.
- لا أنا لم أسرق، قال:
- تعال معي، المساعد أبو سعيد سيكمل التحقيق معك.

دخلتُ إلى غرفة المساعد أبو سعيد، كان جالسا خلف طاولته يستمع إلى أغان وطنية والعلم السوري خلفه بحجم الجدار، وصور الرئيس وشعارات الحزب منتشرة هنا وهناك.. قال لي في بداية حديثه :

- أنت في بداية شبابك ومازلت صغيرا، السؤال الذي أشعر فيه بأنك تكذب ستزداد عقوبتك
- أنا لا أكذب سيدي صدقني.
- حسنا، أين الخمسة آلاف ليرة؟
- لا أعرف قلت.
- بدأت تكذب، قال لي
- لا يا سيدي، أقسم لك بأني لم أسرق ولن.
- أنت الوحيد الذي يعمل عند السيد شكري قنواتي، وهو يقول يوم الخميس قبض خمسة آلاف ليرة من زبون وأنت على علمٍ بذلك، هل هذا صحيح؟

- سيدي نعم كان هناك زبون وأعطى معلمي شكري مبلغا من المال، لكن لا أعرف كم هو المبلغ، وأين وضعه معلمي، أقسم لك.

كانت ركبتاي ترتجفان من شدة الخوف وأحسستُ أن الدنيا ستنتهي في هذا المكان القبيح، أقسمتُ إن خرجتُ من هنا، لن أتعارك مع نفسي كي لا أعود ثانياً إلى الأفرع.

- حسنا، قضيتك ستُحول إلى المساعد أبو وحيد على بساط الريح ربما هناك تغير رأيك.

- لا يا سيدي أرجوك أقبّل يديك، ربي يحمي لك عائلتك، لا، لا ترسلني للتعذيب، أنا لم أسرق، لم أسرق...!

بكيتُ كثيرا، أحسستُ في لحظة أن حبالي الصوتية تقطعت وأنا أتوسل إليه.

- قضيتك أصبحت بيد أبو وحيد. بصوتٍ متهدج قلتُ له:

- دعني أقبّل حذاءَك لتتأكد من أني لم أسرق، لا لم أسرق.

وقف فجأة واقترب مني وقال لي:

- الكف الذي ضربتك إياه على باب الفرع حين أتيت، يبدو أنه لم يعلمك ألا تلعب معنا، وبدأ بضربي وشتمي، وحين قال لي: "لو كان والدك رجلًا.." قاطعته فورا:

- أرجوك سيدي لا تشتم، والدي ميت، افعل بي ما شئت لكن لا تشتم والديّ.

صمت برهة ثم قال:

- لمن هذه الآلة الكاتبة؟

- لا أعرف، أقسم لك أني لا أعرف.

أمر العنصر بأن يعيدني إلى الغرفة وقال لي حين يأتي أبو وحيد ستذهب في رحلة معه، وحين تعود من الرحلة أخبرني عن شعورك، وقادني العنصر إلى الغرفة نفسها، جلستُ أفكر ماذا سيحصل بي، أنا لم أسرق لأعترف، وإن قلت أنا من سرق سيزيد الطين بلّة. بعد بضعة ساعات فُتِحَ الباب وكان وجه أمي أول ما رأيت، ركضتُ إليها لأضمها كي يذهب ألمي قليلًا وحين رميتُ نفسي إلى حضنها وجدتها مقيدةَ اليدين هي أيضا. أدخلوها إلى الغرفة وأقفلوا الباب علينا.

- أمي لماذا أنتِ هنا؟ ظننتُكِ أتيتِ لمساعدتي.
- لا يا بُني اقتادوني إلى هنا من عملي لأن الآلة الكاتبة لي.
- لكِ؟
- نعم لي
- وماذا كُنتِ تفعلين بها؟
- بعد دوام الوظيفة كُنت أعطي دروسا خصوصية في اللغة الكُردية في المنازل لذلك كنتُ أتأخر في بعض الأحيان بالعودة إلى البيت.
- دروس خصوصية في اللغة الكُردية؟ وهل هذا ممنوع يا أمي؟
- نعم ممنوع وعقابه من الثلاث إلى الخمس سنوات وربما يتعاطف القاضي في قضيتي، لأنه لا معيل لكم غيري، وأبقى لمدة سنة واحدة كما حصل مع صديقتي منذ فترة.
- وهل ستعترفين بذلك يا أمي؟
- لا داعي للاعتراف، يوجد درس بين الأوراق موقع باسمي وعليه تاريخ الأسبوع الماضي، سمعتُ من عنصر الأمن أن معلمك شكري اتهمك بسرقة

خمسة آلاف ليرة وأنا متأكدة أنك لم تفعلها، كل هذا ليضغط عليّ كي أقبل بالزواج منه أو إقامة علاقة معه، أرسلتُ في طلبه، حين يأتي سأتكلم معه كي يغير أقواله لأنه لم يعد هناك فائدة مني، سأبقى في السجن إلى متى لا أدري، كل الذي أطلبه منك أن تحاول الاعتناء بإخوتك قدرالامكان، ولا داعي بأن تقلق من أجل مصروف البيت، اذهب إلى المحامي عبد الرحمن الجزراوي وقل له أن أمي في السجن وهم سيتكفلون بالباقي.

- من تقصدين بهم يا أمي؟
- لا داعي لكثرة الأسئلة فقط اذهب إليه وقل له ذلك.
- حسنا.

عبد الرحمن الجزراوي كان صديق العائلة، له مركز خاص لا أعرفه، لكن كان يبدو عليه منصب حزبي كُردي ممنوع، لأني كنت أسمع منه حين كان يتحدث مع زوج خالتي أنه سيخبر الأعضاء في الحزب.

جلستُ أستمتع بحضن أمي الدافئ، آثار الضرب لم أعد أشعر بها من دفءِ حنانها وهي تضمني، وروت لي يوم عادت من المشفى لتتأكد من حملها، كم كانت سعيدة لولا تعثرها بحجرٍ في الطريق وسقوطها على جبينها، وآثار السقطة مازالت إلى اليوم مرسومة. وحين ولدت ساقوا خالي إلى الزنزانة ومات جارٌ لنا والمرأة التي قطعت حبل مشيمتي أصابها الاكتئاب، وبدأت تنزوي في غرفتها لا تكلم أحدا. كل هذا لأنني ولدت، وروت لي كيف كنتُ على عجلٍ من أمري للخروج من بطنها حين كانت حامل بي، في الشهر السابع من حملي ذهبتُ ثلاث مرات حالات إسعاف. ابتسمتُ ساخرا وقلتُ لها هذه هي الحياة التي كنتُ على عجلٍ من أمري لآتي إليها؟

ليتني بقيتُ في بطنك يا أمي ولم أخرج، أعيدِيني إلى بطنك يا أمي، كفاني خذلانا، تعثرك بالحجر يوم تأكيد حملك كان دليلا بأنني سأتعثر في كل طرق الحياة.

- لا يا بُني كما قلت لك سابقاً، طرق الحياة مرصوفة بالمتاعب، والقوي من ينتصر في آخر الأمر، اجعل سلاحك قلمك وعلمك في هذه الحياة وكن مُنصِفاً وستنتصر يوما ما صدقني.
- من الذي اختار لي اسمي يا أمي؟ قالت:
- أنا، كنت على عجلٍ من أمرك حين ولدت ولم أشعر بآلام الولادة كما شعرت بها حين ولد أخاك فرهاد، حين استيقظتُ من غيبوبتي امتلكتني سعادة غريبة والابتسامة لم تفارق وجهك حين نظرتُ إليك أول مرة، لذلك قررت أن أُسمِّيك سعيد، رغم الشواهدِ غير السعيدةِ التي حصلت يوم مولدك.

قطع حديثنا أحد العناصر حين دخل علينا قائلا:

- السيد شكري جاء لزيارتك نيفين.

ذهبت أمي وبقيتُ وحيدا في الغرفة، حرارة الطقس في شهر تموز لا ترحم، لكنني شعرتُ بالبرد حين خرجت أمي.

بعد قليل جاء عنصر أمن وقال لي:

- إفراج سيد سعيد، تعال معي إلى غرفة المساعد أبو سعيد.

شعرتُ ببعض الارتياح لسماع كلمة إفراج، لكن ماذا عن أمي؟

دخلتُ غرفة المساعد أبو سعيد وجدت المعلم شكري يجلس معه وأمي واقفة في زاوية الغرفة، تباً، أمي تقف والكلاب يجلسون، قال لي معلمي شكري:

- لقد حدث سوء فهم، لم أضع النقود في الصندوق كما هي العادة، بل وضعتُها في حقيبتي ونسيت الأمر، ومنذ ساعتين حين كنتُ أخرج عقدا من الحقيبة وجدتُ الخمسة آلاف.

لم أعرف ماذا سأقول له، لكن لا بأس، المهم أن يستطيع مساعدة أمي. قال المساعد أبو سعيد: "تعال وأبصم هنا"، بصمتُ على براءتي، على شيء لم ولن أفعله..قال لي المساعد أبو سعيد: "تستطيع الذهاب"، سألته:

- وماذا عن أمي؟ قال:
- سنحول قضيتها إلى المحكمة بعد التحقيق، والمحكمة ستأخذ الحكم وأنا لا أدري ما الذي سيحصل.

رنوتُ إلى أمي قليلًا، وجدتها مثل طائرٍ مجروح، لا جناحين لها لتدفئ صغارها وتحلق في أعالي السماء كي تجمع الطعام لفراخها كما كانت تقول. ابتسمتُ في وجهها وقلتُ:

- ابقي بخير يا أمي نحن بانتظارك.

خرجتُ من الغرفة مكسورا، أردد في سري أشياءً لم أسمعها من قبل، أشياءً مثل الأحرف التي كانت جدتي تكتبها للناس مقابل المال على أساس أنها مباركة وتساعد في التخلص من المصائب، صرتُ أهذي كالمجنون، لا أدري ما الذي أقوله لكن لربما كان حجابا سيساعد أمي في الخروج.

الناس في الطرقات تشتكي من حرارة الصيف وأنا أشتكي من حرارة الجوع، لم أتناول شيئا اليوم، إخوتي في البيت لا علم لهم بما حصل معي ومع أمي ولا أدري إن كانت جدتي قد أطعمتهم أم لا. وصلتُ إلى البيت منهكا، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، الكلُ نائمٌ، دخلتُ إلى المطبخ لأبحثَ عن شيءٍ أتناوله، فوجدتُ صينية الطعام

عليها أربعة كؤوسٍ من الشاي فارغة وفتات خبز، يبدو أن إخوتي تناولوا فتات الخبز المغمسة بالشاي. فتشتُ بين رفوف المطبخ عن شيء أسكت به جوعي فلم أجد، استرقت النظر إلى جدتي كانت تغطُ في نومٍ عميق، أحضرتُ سكينا من المطبخ وبذكاء لصٍ محترف دخلتُ إلى غرفتها لأفتح خزانتها، وضعتُ رأس السكين بين قفل الخزانة والباب محاولاً خلعه، نجحتُ في ذلك فتحتُ باب الخزانة ووجدتُ جميع أنواع الفواكه مكدسة فوق بعضها البعض، تفاح، موز، برتقال، مشمش، أجاص، مكسرات، عسل، وزبيب، أحسستُ أني فتحتُ خزانة بنك الطعام، التقطتُ ما أستطيع حمله في يدي وذهبتُ إلى المطبخ وضعتهم في السلة وعدتُ لأكمل عملية التفتيش، ولأن الظلامَ كان دامسا لم أستطع التفتيش بشكلٍ مكثف اكتفيتُ بقطع الفواكه والمكسرات والعسل وخبز التنور، أقفلتُ الخزانة بنفس الطريقة التي فتحتها وعدتُ إلى المطبخ، حملتُ سلة الفواكه وذهبتُ لإيقاظ إخوتي لنتشارك معا في الطعام، أيقظتُ إخوتي وسألتهم إن كانوا جائعين، قالوا نعم لكن أين أمي؟ سألوني. قلتُ لهم سنتكلم غدا عن هذا، تناولنا الفواكه والمكسرات والعسل مع خبز التنور وعادوا للنوم، وكان عليَّ أن أجدَ طريقةً للخلاص من كلام جدتي في الفجر، تستيقظ هي كل يوم قبل صلاة الصبح، تتوضأ، تصلي، تسبّح بالمسبحة، بعدها تبدأ بتناول العسل والفواكه لتذهب السموم من جسدها كما كانت تقول وأنا كنت أضيف تذهب السموم وتأتي الشياطين بدلاً عنها، كانت تغضبها جدا هذه الجملة، كنتُ أختم الجملة بـ"من أقوال الرسام سعيد الكردي" كان حلمي أن أصبح رساما، امتلكتني هذه الموهبة حين حاولت أن أرسم صورة لشلال في بلاد بعيدة تسمى كندا، وجدتُ الصورة على قصاصة ورق في مدرستي، قال لي جارنا الذي سافر إلى اليونان مرة، أنها من أجمل البلدان وقص عليَّ

قصصا أحسستُ للحظة أنها شبيهة بتلك القصص التي ترويها لنا الآنسة فهيمة عن الجنة..رسم الصور الطبيعية جعلني أن أرسم الأشخاص بشكلٍ قريب من الاحتراف، وحين كنتُ أنتهي من جملة "الرسام سعيد الكردي" كانت تقول لي جدتي: "حين ترسم لي الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي"، سأعترف بأنك رسام، غير هذا أنت عاق، وكنت لا أحب رسم صورته لأن جدتي تحبه باعتبار أني كنتُ معارضا لكل الأشياء التي كانت تحبها جدتي.

أماكن الأشياء في غرفة جدتي لا تتغير من مكانها، كانت تكتشف ذلك إن دخل أحدٌ إلى غرفتها من أول نظرة. سرير في الزاوية عليه بطانية منقوشة برسمة النمر، البطانية التي اشتراها لها جدي في زيارتهما الأولى إلى اسطنبول، على الجدران بجانب السرير من الطرفين سجادات فارسية مزخرفة بآيات قرآنية، بجانب السرير خزانة كبيرة، نصفها الأعلى رفوف ولها أبواب من زجاج، في كل رف يوجد أشكال مختلفة من الفناجين والصحون وأطباق الولائم، كانت تقول دائما أن هذه الأطباق هدية أمها يوم تجهيز جهاز عرسها، كنتُ أسألها ممازحا لماذا اختار جدي أن يعمل في دمشق وأنتم هنا في حلب؟

كانت تقول لأن دمشق العاصمة، كان يحلم بمركز رفيع في يومٍ من الأيام. وأنا كنتُ أقول لا، بل هربا منكِ اختار أن يعمل هناك..في النصف الأسفل من الخزانة ثلاثة أبواب مقفلة ولا أحد يعرف ماذا بداخلها، كانت حريصةً جدًا، وبعد فتح الخزانة تتأكد من أنها قد أغلقت الباب بشكل محكم، بين الخزانة والسرير سجادة صلاة وبجانب السجادة مسبحة. فكرت أن أربط المسبحة بخيط رفيع وأراقبها من النافذة حين تنتهي من الصلاة ستبدأ بالتسبيح حينها سأسحب المسبحة، ولضعف نظرها

وإيمانها القوي من وجود الشياطين ستصدق إن قلت لها أني رأيتُ أشياءً تخرج من غرفتها في الليل، وتظن أن الشياطين أخذوا المسبحة وفتحوا الخزانة وسرقوا منها.

ربطتُ المسبحة بخيط رفيع ومددته إلى خارج الغرفة، انتظرتُ إلى أن سمعتُ صوتها وهي تتوضأ، راقبتُها من النافذة، حين دخلت غرفتها ذهبتُ إلى مكان الخيط، جلستُ أراقبها من زاوية النافذة، حين انتهت من الصلاة مدت يدها لتلتقط المسبحة، وما كان مني إلا أن سحبتُ الخيط على مهل، تفاجأت، بدأت تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعدتُ المحاولة مرة أخرى، سحبتُ المسبحة إلى خارج الغرفة، حينها بدأتْ بالصراخ وهي تقول: "فرهاد الحقني الشياطين تسرق أشيائي"، ولأن أخي فرهاد لا يسمع شيئا حين ينام، أكملت عمليتي وهربتُ إلى غرفتي، تمددتُ في فراشي وتظاهرتُ بالنوم، سمعتُ صوتها وهي تتعوذ من الشيطان، دخلتْ إلى غرفتنا وأيقظتني:

- استيقظ يا سعيد، الشياطين تسرق أشيائي.
- جدتي قلتُ لكِ ألف مرة أن الإكثار من الفواكه والمكسرات تطرد السموم وتدخل الشياطين بدلاً عنها ولم تصدقيني.
- هيا استيقظ لنفحص ماذا سرقوا مني غير المسبحة.
- لا أستطيع يا جدتي، أنا مرهق من آثار الضرب في السجن، وبدل أن تسأليني ماذا حصل معي ومع أمي تهذين عن أشياء لا وجود لها؟، أنصحك بمراجعة طبيب نفسي ليحل مشكلتك مع الشياطين.
- أنا لستُ بحاجة إلى أطباء نفسيين أيها العاق، القرآن والصلاة هما أفضل طبيب.
- إذًا اذهبي وأقيمي الصلاة واقرئي القرآن لتختفي آثار أصدقائك من البيت.
- من تقصد بأصدقائي؟

- الشياطين يا جدتي.

بدأت تلعنني وتشتمني وهي تخرج من الغرفة.

استيقظتُ ظهرا من النوم، ذهبتُ إلى السيد عبد الرحمن الجزراوي لأقول له أن أمي في السجن، دخلتُ إلى مكتبه في حي الشيخ مقصود، وجدتُ فتاةً تجلس خلف الطاولة

- مرحبا
- أهلا
- السيد عبد الرحمن موجود؟
- نعم، من أقول له؟
- سعيد الكردي ابن نيفين.
- انتظر هنا قليلًا.

دخلت إلى الغرفة الثانية وانتظرت أنا في غرفة الانتظار، بعد مضي خمس دقائق عادت:

- السيد عبد الرحمن مشغول اليوم، تستطيع أن تأتي غدا في نفس الوقت.
- سأنتظره هنا إن لم يكن هناك مانع، لأن الموضوع ضروري جدا ولا أستطيع أن آتي غدا، لأن بيتي في السكري وأحتاجُ إلى قرابة الساعتين لأصل إلى هنا، هل تستطيعين شرح هذا له؟ لن أطيل عليه، خمس دقائق كافية لأشرح له ماذا أريد.
- حسنا، انتظر هنا.

بعد دقيقتين جاءت وقادتني لمكتبه، دخلتُ . كانت تبدو عليه علامات الغضب.

- مرحبا
- أهلا
- أمي في السجن سيد عبد الرحمن وطلبت مني أن أخبرك بهذا.

- لماذا هي في السجن؟
- قام عناصر الأمن بتفتيش بيتنا ووجدوا آلة كاتبة مع بعض الأوراق قالوا إنها ممنوعة، واسم أمي كان موجودا على الأوراق.
- وماذا تريد مني الآن؟
- لا أدري بالضبط، لكن أمي قالت لي لا تقلق من أجل مصروف البيت، اذهب إلى السيد عبد الرحمن فقط وهو سوف سيتكفل بالباقي.

صمت لوهلة وأخرج من جيبه قطعة الخمسمائة ليرة وقال لي:

- عد في الشهر القادم إلي.
- لكن ماذا عن أمي؟
- سنحاول إيجاد طريق نخفف الحكم عنها، يوم تصدر المحكمة حكمها سأخبركم بكل شيء وسآتي إلى المنزل لأصطحبكم معي أنت وأخاك فرهاد.
- شكرا لك وأتمنى أن تتفهم وضعنا، نحن صغار وجدتي عجوز ووالدي توفى كما تعرف.
- حسنا حسنا، سأحاول أن أفعل ما بوسعي.

شكرته وخرجتُ من مكتبه والشعور باللاشيء يمتلكني.

خمسمائة منه وخمسمائة من شكري ألف، سأحاول أن أجد عملاً كي لا أتردد إلى عبد الرحمن وأطالبه بمالٍ، لا أعرف إن كان لنا أم شفقة.. في طريق عودتي إلى البيت وصلتُ إلى السليمانية وتذكرتُ جورجيت، قصدتُ محلها، وحين وصلت تذكرتني وخرجت من خلف طاولة البيع وقالت:

- أهلاً سعيد.

- أهلا جورجيت، كانت عيناها تلتمع مثل نجمة الصبح.
- كيف حالك والمدرسة؟ سألتني.
- ماشي الحال، لكن هناك تغيرات حصلت في حياتي، وأنا بحاجة إلى عمل، هل تستطيعين مساعدتي؟
- ما هي التغيرات التي حصلت، عسى أن تكون خيرا؟
- مات أبي، وأمي استقالت من وظيفتها، بدأ يضعف جسدها ولم تستطع المتابعة.

لم أستطع أن أخبرها حقيقة أمي، لأني تصورتُ أن الوردة مكانها ليس في السجن، وأمي وردة حياتنا.

رسمت إشارة الصليب على صدرها وقالت:

- يا يسوع، السلام لروح والدك. لا أستطيع أن أعدك بالعمل هنا، لكن سأنشر الخبر بين أصدقائي وأعدك بأن أسأل صاحب المخبز، عُد إلى هنا بعد يومين، لنرى إن استطعتُ تأمين العمل لك أم لا، أو خذ رقم هاتف المخبز . كتبتْ رقم الهاتف على ورقة وأعطتني إياها، سأحاول الاتصال إن كان جارنا في البيت، لأنه يوجد هاتف واحد في الحي فقط، مددتُ يدي إلى جيبي وأخرجتُ قطعة الخمسمائة ليرة كي أعطيها النصف ليرة من ثمن الكعكة في المرة الماضية، ضحكت وقالت أكيد لن آأخذ منك الخمسمائة أصرفها من أجل نصف ليرة، وبكل الأحوال لن تدفع شيئا لأننا أصبحنا أصدقاء، ودعها ضيافة مني.

بعد يومين طرقتُ باب جارنا كي أتصل بجورجيت، لم يفتح الباب، يبدو أنه ليس هنا. حسنا سأذهب إليها. جدتي لا تطبخ لنا والمال الذي معي لن يكفي لآخر الشهر إن بقينا

هكذا. مشيتُ في طريقي باتجاه السليمانية، حين وصلت كانت جورجيت بأناقتها المعتادة واقفة أمام المحل:

- مرحبا.
- أهلا سعيد، لديَّ خبرٌ جميل لك.
- ما هو؟
- تستطيع أن تبدأ العمل هنا معي في المخبز متى ما شئت.
- هل هذا صحيح؟ لا أصدق، إذًا سوف أبدأ غدا، أي ساعة يجب أن أكون هنا؟
- في السابعة صباحا، والراتب 250 ليرة في الأسبوع.

يا إلهي كم أنا محظوظ، 250 ليرة أعتقد أنها ستكفي مصروف البيت إلى أن تخرج أمي، حين وجدتني سعيدا جدا، عانقتني وقالت لي:

- هيا يا بطل، اذهب إلى البيت وأخبر أمك بذلك، وبالإضافة لهذا الخبر، حين تعود للمدرسة تستطيع أن تعمل بعد دوامك إلى الساعة السابعة مساءً لكن ربما براتب أقل.

كانت رائحتُها جميلةً جدًا، لأول مرة شعرت بإحساس السكران الذي يتكلم عنه جارنا حين يشرب العرق البلدي ويقول إحساس السكران شيء يذهب بالعقل إلى مستوى لا يصل إليه العلماء. قلتُ لها:

- المهم أني وجدتُ عملا.

عدتُ إلى البيت وشعور الفرح يغمرني. وجدتُ السيد عبد الرحمن الجزراوي في بيتنا حين وصلت، قال لي محكمة أمك بعد أسبوعين من اليوم، وسوف آتي لأصطحبكم إلى القصر العدلي.

بعد أسبوعين ذهبنا إلى القصر العدلي أنا وأخي، كانت محكمة أمي غير معلنة. كان يُمنع ذكر كلمة كُردي في الدوائر الحكومية، انتظرنا السيد عبد الرحمن قرابة الساعتين، وحين أتى كان وجهه حزينا، قال لنا استطاع المحامي أن يخفف الحكم إلى سنتين ودفع مبلغا ثلاثون ألف ليرة.

- سنتان وثلاثون ألف ليرة! كيف ستحتمل أمي؟ وكيف لنا ذلك؟ ومن أين لنا بالمبلغ هذا؟
- لا تقلق، سأتدبرُ الموضوع بمعرفتي. قال السيد عبد الرحمن.

خرجنا من القصر العدلي أنا وأخي وانتابني شعور اللطيم، من سيدفئنا في الشتاء، من سيطعمنا، من سيرمم جرحنا، من سيغطينا في الليل من سيمسح دمعتنا؟ من سيبتسم لنا في الصباح، من سيقول لنا أحبكم؟

من؟

من؟

أمي؛ وأيُّ رئةٍ تتسع لشهيقي حين أقولها، وأيُّ كونٍ يتسع لزفيري حين أقولها؟

يسيلُ دمعي مثل دمي حارا وأنا أقولها، ترتسمُ الابتسامة على وجهي عنوة وأنا أقولها .

أمي .. أي وسادةٍ ستحمل رأسي المنهك غير صدرك، وما هي الكلمة التي ستعطيني الإحساس بالحياة غير كلامك؟

أمي كل شيء في الحياة بالأبيض والأسود ووحدك أنتِ كل الألوان، كل الأبجديات لا تكفي لتحكي عنك، ولا العلامات الموسيقية تستطيع أن تنطق حرفا من اسمك أو حرفا بصوتك .. أي عيدٍ سيبتسم لي وأنتِ لستِ هنا؟

أمي ..

الكون في استدارة دائمة ولا تستقيم إلا حين تستيقظين يا أمي، الغيرة ستمتلكني إن وجدتُ قطةً تحتضنُ أدراصها، الدمعة ستُحفر على وجنتيّ، وما من أحدٍ يمسحها أو يرممها..

رائحة الحزن في كل مكان يا أمي.

أمي هل تسمعين ندائي؟

سنتان يا أمي!!

أحبك يا أمي..

أحبك...

3

في زيارتنا الأولى لأمي أنا وإخوتي، والتي اصطحبنا فيها جارنا أبو محمد بسيارته إلى سجن النساء في حلب، كان وجهُ أمي متعبا لدرجة أن الأحرف خرجت صامتة من فمها الجميل وهي تحاول أن تتكلم من خلف القضبان. حاولتْ أن تخفي دمعتها، لكنها فشلتْ، حاولتْ أن تبتسم، لكنها فشلتْ، حاولتْ أن تلمسنا، لكنها فشلتْ.

رُحماك أيتها القضبان، رُحماك.

الكلمات لن تنفع، نحن بحاجة إلى صدرها، يديها، أنفاسها، دموعنا لم تتوقف أنا وإخوتي وأمي، مضى وقتٌ قصير والصمت يلفُّنا. أمي اشتقنا إليكِ. قلتُ لها:

- نحنُ بخير، وأنا الآن أعمل في مخبز ونتدبر أمورنا والجيران يساعدوننا في ترتيب أمور حياتنا. أنتِ كيف صحتك وكيف يمضي الوقت معك هنا؟
- أنا بخير هنا، لاينقصني سوى الاطمئنان عليكم، انتبهوا إلى بعضكم البعض واستمروا في دراستكم مهما كانت ظروفكم صعبة.

لفَّنا الصمتُ من جديد، والدموع لم تجد مكانا آخر غير أعيننا أنا وإخوتي وأمي.

رؤية أمي في السجن كانت كارثة أكبر من الموت، بالموت يذهب الإنسان وندرك تماما أنه لن يعود، ولن يتألم، لكن السجن في كل يوم يزداد الألم، في كل ساعة هناك حزنٌ بلونٍ جديد، في كل دقيقة هناكَ غصَّة، في كل ثانية هناك نفسٌ يتصاعد كلهيب البركان.

اقترب العامُ الدراسيّ الجديد، خالتي آفين اشترتْ لنا ما يلزم من قرطاسية، أما ملابس المدرسة فكانت مستعملة، وكأنها تتبرع لجمعية خيرية، كان ينقص أن تطلب منا أن نقبّل يديها ليكتمل الذلُّ بألوانه المزعجة. تكلمتُ مع رب العمل "حنا" عن دوامي في العمل أيام المدرسة، كان يجب عليّ أن أحضر حين أنتهي من المدرسة إلى الساعة

السابعة، وبقي راتبي كما هو، كان كريما جدا، كل المعجنات التي كنتُ آخذها لإخوتي كان يرفض أن يأخذ ثمنها.

الشتاء قادم، حملٌ ثقيل أحمله على كاهلي، المخبز وحده لا يكفي، جدتي تأبى أن تدفع شيئا من راتبها، وأخي فرهاد لا يريد أن يعمل بحجة الدراسة، حتى في الدراسة فاشل، سمعتُ أصدقاءَه يقولون له اترك المدرسة والتفت إلى عمل.. أنت لا تستطيع الاستمرار يا فرهاد.

نحتاج إلى دخلٍ آخر في البيت، وإلا فالسفينة ستغرق. لا أريد لأختي جيهان أن تكبر وهي في كَنف الحرمان، أريدها أن تلتفت لدراستها ولا تشعر بالنقص أمام صديقاتها. العمل الثاني لا بد منه لكن متى؟ وأين؟ وكيف؟.

في طريق عودتي من العمل وجدتُ طفلاً يمسحُ زجاجَ السيارات عند إشارات المرور، وآخر يبيعُ المناديل، جاءتني فكرة أن أقوم أنا بذلك كل يوم في طريق عودتي من العمل إلى المنزل، عند كل إشارة مرور سأتوقف مرة أو مرتين وإن كان الدخل يفيد سأستمر بذلك.

اشتريتُ قطع قماش وسائلا خاصًا بتلميع زجاج السيارات ووضعتهم في حقيبتي المدرسية كي لا تنتبه جورجيت لذلك، ليس خجلاً، لكن لا أريد لأحد أن يشفق عليّ، وبدأتُ في اليوم التالي بذلك، في كل إشارة كنتُ أقف مرتين على الضوء الأحمر، مسحتُ زجاج سيارات بداخلها أناس من جميع الطبقات. السيارات التي فيها عائلة من أب وأم وأطفال كانت تزرع الحسرة في داخلي، لماذا هم مكتملون وسعداء وأنا لا؟ بعضهم كان يعطيني المال وكأنه شفقة، وبعضهم كان يعطيني إياه كأنه حقٌّ لعملٍ قمت به مع عبارات الشكر. أسوأهم كان من يرفض أن أمسح له الزجاج ويقول لي: (امتى

بدكم تبطلوا شحادة؟). أنا لا أشحد يا مغفل، كل ما في الأمر أن الحياة طعنتني وأنا مجبر لا أكثر.

بدأ العام الدراسي، دخلتُ إلى صفي الجديد وكنتُ أتمنى لو تأتي معلمةٌ جديدة غير الآنسة فهيمة، أريد أن أكمل دراستي بلا تجريح، جلستُ في مقعدي وبعض الطلاب كانوا يعرفونني، قابلتهم حين كنتُ أعمل عند مصطفى، فجأة دخلت خلود إلى الصف، أحسستُ أنها أميرة من الأميرات بالزي المدرسي المكوي والنظيف، والشرائط الملونة على الكتفين.

- صباح الخير سعيد. قالت لي.
- صباح الخير
- ماذا تفعلين هنا؟
- رسبتُ أنا أيضا، لقد أصابني يرقان حاد قبل الامتحان ولم أستطع الحضور، وسمعتُ من رنا صديقتنا أنك لم تأتِ إلى الامتحان أيضا، قلتُ لها:
- من حسن حظي، نظرتْ إليّ نظرةً غريبة وسألتني:
- لماذا من حسن حظك أستاذ سعيد؟ قلتُ لها:
- لأنني أحسستُ بالملل مع الطلاب الجدد، وكنتُ أتمنى لو بقيتُ مع أصدقائي القدامى، ابتسمت وقالت:
- فقط لهذا؟

ارتبكتُ بعض الشيء حين نظرتُ إليها، قلتُ:

- نعم. – (والخجل كان واضحا عليّ)– هل تعرفين من تكون معلمتنا هذه السنة؟
- لا. وكأنها كانت غاضبة بعض الشيء، لم أفهم لماذا.

دخلت الآنسة فهيمة إلى الصف وهي تضع الخِمار، وقف التلاميذ لتحية الآنسة بعدها أمرتنا بالجلوس، بدأتْ تسأل كلُ طالبٍ عن اسمه وعن عمل الوالد، لا أعرف ماذا يفيد معرفة عمل الأب في المدرسة، لكن كانت العادة أن يسجل بجانب اسم الطالب اسم الأب وعمله، حين وصلت إلي قالت:

- لا داعي من تقديم نفسك فأنا أعرفك جيدا وأعرف أنك يتيم.

أحدثت فجوة كبيرة في داخلي هذه الكلمة (يتيم)، والأتعس من ذلك أنني مثل العجيِّ الآن، أمي في السجن. مؤلمٌ جدا هذا.

مرت الأيام وأنا على ما أنا عليه، أستيقظُ مرغما كل صباح، أجثو على ركبتي أفتحُ يديّ وأتكلم مع الله طالبا منه حق اللجوء الإنساني في الحياة أو أن يأخذني إليه، لم تكن مهمة سهلة، ولم تكن الأيام تمضي إلا بصعود الروح. اقترب العيد وأنا لا أستطيع توفيرالمال كي أشتري لإخوتي ألبسة العيد، كنتُ أسعد حين أشتري حاجيات البيت لكن الغصَّة لا تفارقني، كلما مررتُ من أمام دكان مصطفى تذكرتُ حين اغتصبني، ينظرُ إليَّ وكأني فريسته التي سيتناولها حين يصطادني، وأنا في داخلي أقول متى سيأتي اليوم الذي أحرق الدكان وأنت فيه؟

جاء العيد، وفي ليلة العيد التعيسة لدي كل الناس مبتهجين، الأطفال في الحي يغنون، يرقصون، يلعبون، يصرخون، يركضون، يتقافزون، يأكلون، مسرورون بقدوم العيد، يتكلمون عن الألبسة التي اشتراها لهم ذويهم، يتحدثون عن الأشخاص الذين يدفعون عيديةً كبيرة، يتفقون على تقبيل الأيادي ليحصلوا على النقود، نحن شعب يُحب النفاق، منذ طفولتنا نُقبّل الأيادي لنحصل على المال وليس الرضى، حتى حين نكبر نقبّل الأيادي تمسيحَ جوخ، يتكلمون عن المغامرات التي سيقومون بها، يتفقون

فيما بينهم كيف سيبدأ نهارهم في العيد، شراء السكاكر والحلوى وبعدها إلى المراجيح ثم يغنون أغنية "يا حاج محمد"، يقومون ببروفة للتذكير وتعليم الأطفال الذين لا يعلمون هذه الأغنية التراثية في الأحياء الفقيرة.

يبدأ أكبرهم سناً يصرخ

يا حاج محمد،

يردد البقية:

يويو
عطيني حصانك
يويو
لشد وأركب
يويو
والحق اسكندر
يويو
اسكندر ما مات
يويو
خلف بنات
يويو
بناتو سود
يويو
متل القرود
يويو.

بعدها تبدأ الزيارات العائلية وتناول الطعام والحلويات. هذه كانت أحاديث الأطفال، وأنا وإخوتي جالسين معهم نستمع فقط لا أكثر، لأنه أكبر خططنا هي أن نفكر ماذا نأكل؟ وكل الكلام الذي تكلم عنه الأطفال أحسستُ أنها ليست من حقوقنا أنا وإخوتي، الأطفال لا يعرفون شيئا اسمه الإحساس بالغير، هم سعداء فقط ويتبارون

بحاجياتهم الجديدة أيها الأجمل والأفضل، لكن الفقير أو اليتيم يدرك جيدا أنه لا عيد له مثل باقي الأطفال، ويبقى السؤال معلقا على جبينه:

(لماذا لا أملك أبًا وأمًا ولباسًا جديدًا مثلهم؟)

جاء العيدُ، ومرضت أختي جيهان فقضَت أيامَ العيد في الفراش، وأنا وأخي فرهاد نتناوب على رعايتها وعلى اللعب مع أخي جوان. آخر أيامِ العيد طرق أحدهم الباب، كانت خالتي آفين مع زوجها وأطفالها، جاؤوا للاطمئنان علينا، جلسوا في أرض الحوش، أبناؤهما يتباهون بلباسهم الجديد، أنا وأخي فرهاد نتحدث مع خالتي عن أمورنا، كنتُ أحدثها بلطفٍ شديدٍ على أملِ أن تعطيني بعض المال كي أشتري لإخوتي شيئًا بمناسبة العيد الذي مضى، لكن من ليس لديه إحساس يصعب عليك شراء الحسِّ له، أنا لا يهمني إن اشتريتُ بنطالًا أو حذاءً، لكن من أجل إخوتي، أختي جيهان مرضت لأنها ألتقت بكل صديقاتها في الحي وهن يلبسن الفساتين ويتباهين بالحلي التقليدي من أساور وحَلَق وأطواق، هي صغيرة تريد ذلك، كانت تسألني من سيشتري لي في العيد؟ كنتُ أقول لها :

حين تعود أمي سنشتري كل شيء.

حين خرجتْ خالتي من الباب وضعت قطعةَ مالٍ في جيبي، سُررتُ بذلك، شكرتُها وودعناهم، دخلتُ إلى البيت، أخرجتُ المال من جيبي لأرى كم هو المبلغ الذي أعطتني إياه على أساسها أعطي وعودا لإخوتي، حين أخرجتُها أصابني الذهول، مائة ليرة؟ لا تكفي لأشتري بها طعامَ يومين، وهي الآن تظن أنها قامت بواجبها، لعنةُ الله عليكِ. ركضتُ إلى الخارج كي ألحق بها وأعطيها المائة ليرة، اللاشيء أفضل من مائة ليرة مسمومة، لأنها سوف تحكي للعائلة عن فضلها وأسطول المال التي ساعدتنا به

وهي لا تدرك أن ما فعلته هو مصروف يومين وأقل، وصلتُ إلى ساحة الباصات وجدتهم يصعدون الباص، صرخت ُ بأعلى صوتي أناديها، التفتت للخلف نصف استدارة وعلامات الاستغراب بانت على وجهها، ماذا تريد يا سعيد؟

وكي لا أضعها في ورطة أمام زوجها قلتُ لها:

- خالتي على ما يبدو أنه سقط منكِ قطعة المال هذه حين كنتِ تجلسين عندنا، قالت: "لا أظن ذلك". قلتُ:
- بلى، لأننا لا نملك مائة ليرة في البيت حتى تسقط مني أو من إخوتي.. شعرتْ بالحرج حين قلتُ ذلك، صرخ ابنُها من الخلف وقال:
- أمي هذه لي لقد سقطت مني.

نظرت إليه خالتي وهي تعضُ على نواجذها وقالت:

- حسنا هي لك.

أعطيتها المال وأدرت ظهري وعدتُ إلى البيت بعزة نفسٍ مريرة.

بنفسٍ مريرة أمضي إلى مدرستي كل صباح، بنفسٍ مريرة أمضي إلى عملي بعد الظهر، وبنفسٍ مريرة أمسحُ زجاج السيارات على مفارق الطرق. جاء الخريفُ، الأشجارُ تعرَّت ، كم كنتُ أحسُّ أن الخريف يشبهني، كئيبٌ في لونه وهادئ، لا يعكر صفو الناس بشمسِه الحارقة، ولا يظلم الفقير كبرودة الشتاء. أخرجُ من بيتي كل صباح في السابعة ولا أعود حتى العاشرة مساءً، أطمئنُ على إخوتي وأذهب محاولاً كتابة وظائفي والدراسة قليلًا، وهم يستعدون للنوم.

مرَّت الأيام ونحن بين مطرقة الحرمان وسندان اليتم، اليتم كالعقم، يجعلُك تغارُ من قطة إن حضنت أدراصها، تُلبِسكَ ثوب الحزن مُرغما، يلتفُ الحزن حولك أينما كنتَ

وأينما ذهبتَ، الوالدان نعمةٌ كبيرة من نِعم الله، بدونهما تسيرُ الحياة كعربةٍ لا تستطيع المسير، ولامكان لها للوقوف، الطريق أمامك وعرةٌ وأنت مغمض العينين تسير، هناك من يضربك ومن يسرقك ومن يستغل ضعفك لينال منك ما يريد، مثل مصطفى، اليتم يرشدك إلى الحزن بدون دليل، ولا يضيع الطريق أمامك، بل تنجح بجدارة في أن تكون حزينا في عالمٍ يعشعش الخراب فيه.

مرت الأيام ونحن كما نحن نتلو على بعضنا أنا وإخوتي ما تيسر لنا من سورة الصبر، وندعو ربنا أن يبعد عنا الظلم والقهر والحرمان، نضمُ بعضنا البعض بحزنٍ مغلف باليأس من حالتنا، ألبستنا نصف عارية، أطباقُنا غائرة، لا نملك من يومنا إلا الانتظار المرير لخروج أمي. أمي نعم إنها أمي، وكيف لا؟

كانت تخرج كل صباح مثل البجعة، تعودُ بعد الظهر حاملة بيدها أشياء تسرُ قلبنا، ننتظرها بفارغ الصبر إلى أن تعود، وحين كانت تعود لا تحمل شيئا بيدها كانت تقدمُ لنا صدرها لنتناول وجبة حنان منها، نحتضنها وهي تبتسم وتدعو لنا بالعمر المديد والحياة السعيدة. أمي يا لونا أخضرَ، الله بكِ أوصى، وأنتِ الآن بين أيادي الشياطين، رُحماك ربي رُحماك.

4

تعودتُ كلَّ صباحٍ أن أُشعل الراديو محاولاً أن أُلهي نفسي بأيٍّ شيءٍ إلى أن أجهز، أسابيعَ معدودةٍ وتنتهي السنتان وتعود أمي إلينا، أخي فرهاد بدأ بالتذمر من المدرسة، كان يكثر من غيابه بحجة المرض، أنا وإخوتي نلبسُ الأمل كل صباح وبابتسامةٍ مريرة نمضي إلى مدارسنا، سمعتُ في الراديو أنه هناك عفوا للمساجين، لكنني كنتُ شارد الذهن ولم أسمع الخبر، هل كان العفو يشمل السياسيين أيضا؟

وبدأ الدم يتغلغل في جسدي، نسمةُ أمل مرت من أمامي، استنشقتُها بسرور، لربما يشمل العفو أمي أيضا والأسابيع تصبح ساعات، يارب، لن أخبر إخوتي حتى أتأكد، ولكن كيف؟

سوف أسأل الأستاذ حمود في الصف، بما أنه يتابع نشرات الأخبار باستمرار كما كان يقول. ذهبتُ إلى مدرستي ولم أنتظر خلود كالعادة على طريق المدرسة، كنا نلتقي كل صباح بعد أن أصبحنا في المدرسة الإعدادية وفصلوا الذكور عن الإناث. دخلتُ صفي وجلستُ أنتظره بفارغ الصبر، تمنيتُ أن يأتي قبل التلاميذ، إن كان العفو يشمل أمي سأذهب إلى البيت، وأبدأ بحملة تنظيف في أرجاء البيت كله. دخل جميع الطلاب إلى الصف ولم يأتِ الأستاذ حمود، بعد دقائق دخل مستخدم المدرسة إلى الصف وقال أن الأستاذ حمود مريض ولن يأتي اليوم، والمدير أوصاني بأن أقول لكم أن أن تفتحوا كتبكم وتدرسوا بهدوء، اللعنة لن يأتي الأستاذ حمود، خرجتُ ظهرا من مدرستي وذهبت إلى العمل، في طريقي اشتريتُ جريدةً لأقرأ قرار العفو، تمعنتُ جيدا في السطور لأجد إن كان هناك عفو يشمل السياسيين أم لا، لكن لم أجد، كان العفو يشمل كل السجناء ماعدا السياسيين والمحكومين بالسجن المؤبد. لبسني الحزن من جديد،

رسمتُ ابتسامةٍ زائفة على وجهي من جديد ومضيتُ إلى عملي. الشتاء القارس منع جورجيت من لباسها المُثير، كانت على علاقة بشاب اسمه ميشيل، كان يأتي إلى المخبز أحيانا ليسرق قُبلة منها على عجل خلف الباب، كنتُ أراهما من برواز معلق على الجدار في الطرف الآخر من الباب، كنتُ أرى خيالهما وهما يحضنان بعضهما البعض، كانا مثل طيرين حين يتعانقان، كانت تقول لي حين يأتي أحد "نادِ عليّ بسرعة"، كانت تقبّلني وهي توصيني بذلك، عملية رشوة صغيرة لمراهق، كنتُ أسمع بعض الأصوات أحيانا حين يحتدُّ الحب بينهما، وفي أغلب الأحيان كان يدخل زبون ويفسدُ الحب بينهما حين أناديها كي تنتبه إلى ذلك، كانت تخرج ووجهها أحمر من الخجل، كانت تشعل النيران في داخلي حين أجدها مرتخيةً كقطعة قماش، تبتسم لي وهي تتكلم مع الزبون، في إحدى المرات بدأت تحدثني عن الحبِ والجنسِ، وتقول لي الحبُ يأتي أولا والجنسُ ثانيا، وبدون الحب يصبح الجنس مجرد إفراغ لا طعم له ولا لون، حين تنتهي منه تعود كما كنت، لكن في الحب بعد كل قُبلة تنتظر قُبلةً أخرى، وفي كل قُبلة تسيطر عليك رغبة الطيران في الحب. صرتُ أحلم بأن أقول لخلود "إني أحبك"، لم أقلها حتى الآن، كل ما في الأمر نلتقي على طريق المدرسة نتكلم قليلًا عن الدراسة، نحدّق في أعين بعضنا البعض وبكل سرور نودع بعضنا، لا هي تقول لي أحبك ولا أنا، كان هناك خجلٌ أو خوفٌ أو ماذا لا أدري. تكوّرَ صدرُها وأصبحت تلبس حمالة صدر لكبر ثدييها، وأنا وهي على ما نحن عليه كما التقينا في اليوم الأول، نتكلم نبتسم نحدق في أعين بعضنا البعض.

في طريق عودتي إلى البيت من العمل التقيتُ بابنة صديقة أمي اسمها حنان تسكن في حي قريب من حينا، وكنا نلتقي على طريق المدرسة في أغلب الأوقات، كانت تبتسم

لي دائما ونتكلم بعض الجمل القصيرة نطمئن فيها على بعضنا، تجلس أمام باب البيت رغم برودة الطقس وتأخر الوقت. جلستُ بجانبها بعد أن طلبت الإذن بذلك، أحسستُ أني أريد أن أعانقها وأقبِّل فمها كما يفعل ميشيل مع جورجيت، سألتُها لماذا تجلسين هنا في البرد؟ قالت نام الجميع ولم أستطع النوم وأحسستُ بلهيبٍ في صدري، حنان أكبر مني بثلاثةِ أعوام، ولكي أجعلها تنقضّ علي وتقبلني، بدأتُ بالأحاديث عن الفتيات، أحسستُ أن الحديث راقَ لها، وأخبرتني عن جارتهم كيف يكون صوتها في الليل حين ينام الجميع -قاصدةً الجنس-، أخبرتها كيف تزوج صديقي حسين وهو في الرابعة عشرة من عمره، لأنه قام بفض غشاء بكارة فاطمة ابنة جارنا وهي في الرابعة عشرة من عمرها أيضا، وكي يستروا الفضيحة في الحي زوجوهما، صباح يوم العرس كان حسين يلعبُ معنا في الحي بالكُرة، وبينما كنا نلعب ناداه والده وقال له تعال والبس طقمك، بعد قليل سنحضر عروسك. بعد يومين من العرس أخبرنا حسين كيف فضّ غشاء بكارة فاطمة وكيف سال الدمُ منها وهي تتألم، قال إنه أحسَّ بشعورٍغريب لم يحدث من قبل، وحين سكب سائله المنوي فوق صدرها شعر بأنه بطلٌ من هذا الزمان، ونصحنا أن نجرب شعور إفراغ سائلنا المنوي فوق صدور إحدى الفتيات، وألا نقترب من غشاء البكارة كي لا نقع في الزواج، رغم جمال الجنس، أخبرتُها كلَّ شيء قاله حسين، لم أشعر بالخجل وأنا أحدثها عن السائل المنوي وغشاء البكارة، لأنها كانت مثيرةً لحظتها، وكان احمرارُ وجهها واضحا، امتلكتني رغبة التعمق في الحديث عن الجنس لأن أنفاسها بدأت تتصاعد، سألتني إن كنتُ قد بلغت أم لا، فقلتُ لها "لا". قالت:

- ولا تشعر أنك بحاجة لشيء؟

كانت تشيرُ إلى العادة السرية، لكن ظروفي كانت تمنعني، وهي لا تعرف، قلتُ لها في أكثر الأحيان أشعر بشيءٍ غريب، لكنه سرعان ما يزول ، لأنه لا سرية كاملة في بيتنا. اقتربتْ مني فبدأتُ أشعرُ بتصاعد أنفاسها وهي تكلمني بشبق. قالت:

- تعال معي.

دخلنا إلى حمّام بيتهم أسفل درج السطح، وبدأت بتقبيلي وهي تمسك بعضوي، أحسستُ أن عضوي أصبح كبيرا، كبيرا جدا، بدأت تقول لي أن أمسك نهديها وترشدني إلى طرق لتصل إلى النشوة، بدأت تدغدغُ عضوي بأصابعها، وأنفاسها كلهيب المدفأة تتناثر فوق عنقي، فتحتُ أزرار بنطالي وما كان منها ألا أن بدأتْ ترتشفُ من عضوي، وكأنه سبيلُ الخلاصِ من لهيبِ النارِ الذي يسيطر عليها، أحسستُ بشعورٍ جميل أفقدني السيطرة على نفسي، كنتُ كالظمآن الذي لم يشرب الماء كل عمره وهاهو يشرب من نبعٍ يكادُ يغرق من فرط عذوبته، تعالت أنفاسنا، وفجأة أحسستُ بشيءٍ بدأ يُقذفُ من عضوي، امتلأ وجهها بسائلي، شعرتُ بارتياحٍ غريب، لم يسبقْ أن شعرتُ به من قبل. سألتها:

- ما هذا السائل؟ قالت لي:

- لقد بَلَغْت.

حين رأيتُ ذلك السائل الأبيض تذكرتُ مصطفى حين اغتصبني في العلية. قالت لي:

- كنتَ لذيذاً جدًا يا سعيد.

- أريد أن أسالك عن السائل الذي خرج مني ما هو؟ قالت لي:

- اسمه المَنِي، وعادةً يقذف وقت الممارسة الجنسية أو العادة السرية، وعند بعض المراهقين أثناء النوم، لكن يجب عليكَ أن تغتسل بعدها.

- لماذا؟ سألتها. قالت:
- لأنه حرام، ويجب عليك أن تحاول ألا تلمس شيئا قبل الاغتسال.

عدتُ إلى البيت مسرعاً كي أغتسل، دخلتُ إلى البيت وتوجهت إلى الحمّام ملأت الماء في برميلٍ صغير ووضعته على النار، تحممتُ والماء لم يصل لمرحلة الغليان بعد، كان شعورا لذيذا لم أشعر به من قبل، تمددتُ على سريري أتذكر كل ما حصل معي اليوم أنا وحنان. استيقظتُ في الصباح وكأنني لم أنمْ مثل هذه الليلة من قبل، لأول مرة أشعر بارتياحٍ في نومي، كل مرة أستيقظُ فيها يكون جسدي منهك لدرجةٍ لاتوصف. خرجتُ من المنزل متوجهاً إلى مدرستي، في الطريق انتظرتُ خلودَ كالعادة، جاءت وعلامات الغضب كانت واضحةً عليها، لأنني لم أنتظرها في الأمس:

- صباح الخير.
- صباح الخير.
- أنا آسف لأني لم أنتظرك البارحة.
- وأين كنت؟
- سمعتُ خبراً في الراديو عن عفو للمساجين، ولم أتأكد إن كان العفو يشمل أمي أيضا أم لا، ذهبتُ مسرعا لأتأكد من أستاذي في الصف لأنه على متابعة دائمة للأخبار.
- وهل شمل العفو والدتك؟
- لا، للأسف، بقي لها خمسة أشهر.
- خيرا إن شاء الله

مشينا إلى المدرسة وتحدثنا عن الدراسة والمعلمين، افترقنا ومضى كل واحدٍ منا إلى مدرسته. وقعُ خطواتها وبريق عينيها ورائحتها والشامة على عنقها وتكويرةُ صدرها وهمساتها وكل شيء فيها كان يذهب بي بعيدا، تجعلني أشعر أن الحياة مع خلود فقط.
الأنثى التي تنسيك شقاءَك، يكون دمُك مخلوطا بدمها لا شعورياً، تشعر بها من بعيد، تشتمُ رائحتها وكأنها بجانبك، تسمعُ صوتها وكأنها خلفك، تجعل لحظاتك وردية اللون، يتسللُ إليك الفرح كلصٍ محترف يريد أن يسرق منك التعب بهدوء ويضعك في عالم السعادة..الأنثى التي تجعل قلبك يتمايل على أثر خطواتها من الجدارة أن تحارب من أجلها، الحياة هي مع خلود فقط ومن دونها لا طعم للحياة، لكن كيف سأشرحُ لها ذلك كيف؟ هل هي تحبني أم تعتبرني صديق؟ هل تشعرُ ما أشعر به أم ماذا؟
بقي شهر لخروج أمي، لا النوم نقدر عليه ولا بالاستيقاظ يمضي الوقت، صرتُ أعمل في مسحِ زجاج السيارات أكثر، كل يوم أخرج في السابعة من المخبز، وأبدأ بمسح الزجاج الى الساعة الحادية عشرة، كي لا أجلسُ في البيت ويمضي الوقت كالسكين على عنقي، إخوتي في البيت يلعبون ويكملون حياتهم بشكلٍ طبيعي ينقصهم الكثير، لكن فعلت ما بوسعي لإسعادهم.
صباح يومٍ صيفي حار من أيام تموز، يوم خروج أمي من السجن، جاء السيد عبد الرحمن الجزراوي مع شخص آخر لا نعرفه ليصطحبنا معه إلى السجن. سألنا جدتي إن كانت تريد الذهاب معنا، لكنها رفضت وتحجَّجت بأنها تريد ترتيب البيت وتجهيز الطعام، رغم أنني لم أنم وأنا أنظف البيت وأقوم بتغيير الستائر والشراشف. ركبنا السيارة ومضينا إلى السجن، كان الطريق طويلا جدا، أحسستُ أن قلبي سيقفز من مكانه من سرعة النبض، لم يكن يوما عاديا ولا أصدق أن أمي ستصبح حرة. بعد العناء

وصلنا إلى السجن انتظرنا أمام الباب، دخل السيد عبد الرحمن إلى الداخل بينما كنا أنا وإخوتي في الخارج مع صديقه، بعد مرور وقتٍ قصير لكنه كان مريرا خرجتْ أمي، ركضنا إليها وكأننا لم نرَها منذ ولادتنا، صرنا نقبل يديها، وجهها، شعرها، فستانها، كل شيء طالته أفواهنا، وهي تقول وعدٌ مني، لن أتخلى عنكم يا عيوني أنتم، البكاء لم ينقطع لأكثر من نصف ساعة ونحن نبكي ونقبّل بعضنا البعض بسرور، حتى السيد عبد الرحمن وصديقه والحرس على باب السجن لم تستأذن الدمعة عيونهم، انفجرت وكأن أمي كانت ضائعة ووجدناها.

أمي، وأيُّ رئةٍ تتسع لشهيقي حين أقولها، وأي كونٍ يتسع لزفيري حين أقولها؟

يسيلُ دمعي مثل دمي حارا وأنا أقولها، ترتسمُ الابتسامة على وجهي عنوة وأنا أقولها أمي صدركِ وسادتي، وأنتِ الآن بلا قيود، حلّقي يا أمي حلّقي فالكون لنا ما دمتِ بجانبنا

أمي،

أحبك يا أمي.....

*****

5

اعتدتُ على حياتي كماسحٍ لزجاج السيارات وعملي في المخبز ومتابعة دراستي، بدأت أمي بأعمال الخياطة في المنزل وتنظيف بيوت بعض الأغنياء في منطقة الفرقان الراقية.

في صباح إحدى الأيام طُرِقَ بابُ البيت، فتحتُ الباب، كان هشام صديقُ والدي المقرب في بنغازي.

- تفضل أهلا وسهلا بك.

جلسنا في أرض الحوش، جاءت أمي وجدّتي ليرحبا به، جلسنا حوله وعلامات الاستغراب ترتسم في أعيننا عن سبب زيارته بعد أكثر من عامين على وفاة والدي، بدأ الحديث وهو يقول :

- الله يرحمك يا عماد وكان من الأفضل لو سمعت كلامي وعدت إلى بلدك قبل أن تقع في المصيدة.
- -أي مصيدة؟ سألته أمي.

طلب هشام من أمي أن يتكلما على انفراد، مشيرًا بطرف عينه إليّ، لكن أمي رفضت وقالت لا بأس، سعيد لم يعد صغيرا. قال هشام:

- قبل وفاة عماد بعامين التفّ حوله شلّة مقامرين، وبدأ عماد باللعب معهم والسهر، والأسوأ من ذلك حين أنفقَ جميع أمواله التي ادخّرها من عمله بدأ باقتراض المال من شخص يدعى عزيز المالكي، وعزيز رجل لا يخاف الله، كل مبلغ كان يقرضه لعماد كان يجعله يوقع على سندات، حتى وصل عماد لمرحلة لم يكن هناك أمامه احتمالات غير أن يسجن أو أن يتزوج ابنة عزيز المالكي ليستر عليها من الفضيحة التي ارتكبتها، فقد كانت على علاقة مع شاب مصري،

الشاب طلب يدها من عزيز لكنه رفض، وبنفوذ عزيز القوية في الدولة استطاع أن يطرد المصري من ليبيا ولم تنفع توسلات سهيلة ابنة عزيز وهي تطلب من والدها إبقاء الشاب في ليبيا، وبعد رحيل الشاب المصري اعترفت سهيلة لوالدها بأنها حامل في شهرها الثاني منه، وما كان من عزيز إلا أن يحاول إيجاد طريقة يحمي فيها ابنته الوحيدة من الموت على يد أبناء العشيرة، والسبيل الوحيد كان بتزويجها من شخص يستطيع عزيز أن يحكم به سرية الموضوع ، وأن يجهضوا الحمل بطريقة شرعية. وكان عماد رحمه الله الوحيد من وقع عليه الاختيار، بسبب ديونه الكبيرة، وبالنهاية اضطر عماد للموافقة مقابل تمزيق السندات. وقبل وفاة عماد كانت سهيلة حامل منه، اتفقا على العودة إلى سورية حين ولادتها لينتهوا من ظلم الأب عزيز، كان يتدّخل في أصغر تفاصيل حياتهم، ويكثر من تعقيدها، حيث أن سهيلة لم تكن بمثابة ابنة لعزيز، بل كانت أقرب إلى جارية، بعد علاقتها مع الشاب المصري تغيرت تصرفات الأب وأصبحت أقرب إلى تصرفات وحش يريد قتل ابنته على جريمتها، وللأسف انتحرت منذُ حوالي خمسة أشهر، لأن عمها سمع بقصة حملها من الشاب المصري، حين كان عزيز يوبخ ابنته على فعلتها ويقول لها:

- كنتِ عذراء وأقمتِ علاقة مع شاب مصري وحبلتِ منه، والآن أنتِ أرملة وأتمنى ألّا أسمع أحاديث جديدة عنكِ.

حين وجدوها معلقة في غرفتها كانت سهيلة كتبت وصيتها وسبب انتحارها، الوصية معي سأقرأ لكم القليل منها:

أبي العزيز..

أرجو أن تسامحني على فعلتي هذه، لأنه لم يكن من خيار آخر أمامي لأنتهي من الذي أنا فيه، لأني لو بقيتُ على قيدِ الحياة كان سيكون موتي على أيدي أبناء عمي وعشيرتي، للأسف أنا حامل من جديد يا أبي، لكن صدقني هذه المرة الأمر لم يكن بيدي لأن والد الطفل الذي في رحمي هو أخوك حمزة، سمعَ منك حين كنت توبخني على فعلتي مع الشاب المصري، وبعدها طلب مني أن أمارس الجنس معه وإلا سيفضح أمري بين أبناء العشيرة وحينها سيقتلونني، وحين رفضتُ هجم عليّ كالوحش الكاسر وحدث ما حدث، وأصبح يتردد على هنا حين تكون خارج المنزل، وفي كل مرة كنتُ أتوسل إليه أن يتركني ويمضي، هو في الخمسين من عمره، وأنا لم أبلغ الثلاثين من عمري بعد، لكنه رفض وفي كل مرة كان يقيد يديّ وفمي كي لا أفضحه، وحين اكتشفتُ حملي أدركتُ تماما أن الموت يحوم حولي من كل الاتجاهات، إن أخبرتك كارثة، وإن لم أخبرك سيفتضحُ أمري في المستقبل القريب، ولم أجد طريقةً غير الانتحار، أن أُعلِّق نفسي في غرفتي تاركةً لكم عقوبة عمي، لكنَّ وصيتي الوحيدة هي أن يكبر ابني جميل بين إخوته في سوريا، إلى أن يجتمع مع إخوته أتمنى من زوجة هشام رعايته..

حين قال هشام أن يكبر جميل بين إخوته في سوريا أحسستُ أن ظهر أمي انحنى.

طوى هشامُ الوصيةَ وأعطاها لأمي لتتأكدَ منها، أمي لم تكن هنا، ذهبتْ إلى عالم آخر وهي جالسة، بدأتْ تردد هامسة أنا قلتُ لعماد أن يسافر ليبتعد عن أخي مروان، أخي مروان ورطه عدة مرات في القمار، وحين لم أجد السبيل للخلاص اقترحتُ عليه أن يسافر، يا ليتني لم أقترح عليه هذا الاقتراح، كان على الأقل هنا بيننا وأمام أعيننا. أصبح

لدينا طفلٌ آخر في المنزل، ويجب علينا رعايته، لا خيارَ لنا غير ذلك، بالنهاية هو ابن زوجي وأخٌ لأولادي شئتُ أم أبيت.

- أين الطفل الآن؟ سألته أمي.
- مع زوجتي في فندق صغير في شارع بارون، لم أستطع اصطحابه معي قبل أن أتأكد من موقفكم. صمتت أمي قليلًا، ثم قالت:
- لا ذنب للطفل بما حصل، ماذا تسمى هذه القصة إن لم تكن مصيبة؟

وبدأت تضرب بكفيها على ركبتيها، تبكي وتقول الله يسامحك يا عماد الله يسامحك.

وبعد أن هدأت قالت:

- لنذهب ونحضر الطفل، لا أريد لابن زوجي أن يبقى بعيدا عن إخوته أكثر.

أنا لم أفهم ما هي الحالة التي اجتاحتني في هذه اللحظة، لكن كل ما شعرتُ به أن هناك طفلٌ جديد سيضاف إلى دفتر عائلتنا. قالت أمي:

- تعال معي، ولا تخبر أحدا بما حصل إلى أن نجد الحل المناسب.

وصلنا إلى الفندق في شارع بارون، صعدنا إلى الطابق الثاني مكان وجود أخي الجديد، طرق هشام الباب، وحين فُتِحَ الباب رأينا طفلًا صغيرا نائما على السرير، ركضنا أنا وأمي لنرى الطفل، لا أعرف بالضبط بماذا نشعر، لكن نظرات أمي كانت غريبة وقريبة من السرور، ربما لأنها تحب الأطفال.

بدأت أمي تتمعن في الطفل وهي تبتسم، والدمعة واقفة حائرة في مقلتيها، هل هي دموع فرح أم حزن أم ماذا؟

استيقظ جميل من نومه، ربما شعرَ بأنفاس أخوه، احتضنته أمي بكل سرور وبدأت تفتل في الغرفة معه، كان يبدو عليها السعادة، لكن لو كان والدي على قيد الحياة مع زوجته

كان قد ختلف الأمر، فخالي متزوج من اثنتين، وأبناء خالي من الزوجتين لا يعرفون بعضهم البعض، كانت زوجات خالي في حربٍ دائمة.

قام هشام وزوجته بتسليم الأوراق التي تخص أخي جميل ولباسه بالإضافة إلى مبلغ 100 دولار من عزيز المالكي جد أخي من والدته، وأضاف هشام أن عزيز أوصى بالطفل أن تعتنوا به وسيأتي لزيارته كلما استطاع، كان لديه رغبة بالاحتفاظ بالطفل لكنه لم يستطع ألا ينفذ وصية ابنته الوحيدة.

عدنا إلى البيت ومعنا جميل الجميل حقاً، نسيتُ عملي والمدرسة وكل شيء، كانت تتملكني رغبة عارمة في أن أحمل أخي الجديد لينسى فترة شقائه دون والديه وإخوته، هو لا يشعر بذلك، لكن كنتُ أحسُّ بشيءٍ غريبٍ حيالَ الموضوع هذا، دخلنا إلى البيت استقبلتنا جدتي بمثل يقول : "فوق الموت عسة قبر". وماكان من أمي إلا أن تقول لها:

- اتقي الله، هذا حفيدك. قالت:
- وكيف لي أن أتأكد أن هذا الطفل من ابني؟ إن لم يكن لوالدته علاقة مع رجل آخر غير عماد، في البداية حبلت من المصري وبعدها من عماد وانتحرت لأنها حبلت من عمها، إذًا هناك احتمال أن هذا الطفل ليس حفيدي، غضبت أمي جدا وقالت :
- لم يطلب منكِ أحد أن تعتني به أو أن تصرفي عليه، كل ماعليكِ فعله هو ألّا تسيئي الظن بالناس، الله فوق وهو من يحاسب، نحن عبادُ الله ومن الواجب علينا ألّا نسيء الظن، والداه متوفيان ولا طريق أمامنا غير أن نربيه مثل إخوته، بالإضافة إلى هذا لن أصرف ليرة واحدة من مصروفه الذي سيرسله له جده، لأن هذا من حقه .

انتفخت أوداجُ جدتي حين سمعت أن جده سيرسل له مصروفا، وبدأتْ تشتم كعادتها وترطن دامجةً اللغة التركية بالعربية والكردية.

استقبلنا أنا وإخوتي الأخ الجديد الجميل بفرحٍ وسرور، أقمنا له حفلَ استقبال ببعض الأغاني الكُردية ليتعلم لغتنا وباعتبار أنه منذُ ولادته لم يسمع لغةً أخرى، أمي كانت تراقبنا من النافذة كيف نرقص معه ونغني، قمنا بدعوتها لتشاركنا الفرحة، رقصنا وملأت أصواتُ فرحتنا أرجاءَ البيت كله.

كان كل يومٍ يمضي يزداد فقرنا أكثر، لم أتقاعس عن مدرستي أو عملي، بدأتُ أرتب حياتي على هذه الصورة، ولن تتغير الصورة إلا أن تأتي فرصة مستحيلة تحملنا من قاع الفقر. والصورة هذه تحتاج إلى مثابرة وجهود عظيمة، بدأتُ أملأ أيام عطلتي في المدرسة بالرسم، بدأتُ برسم الطيور والأنهار والجبال وأحصنة تركض، نجحتُ في أن أرسم أختي جيهان في لوحة بورتريه بقلم الرصاص على ورق مقوى قياس 64*45 وكانت مفاجأةً للجميع، عائلتي وإخوتي وأصدقائي. طلبتْ مني خلود أن أرسمها حين رأتْ صورة أختي، قلت إما أن تجلسي أمامي ونقوم بذلك أو أن تعطيني صورة من صورك، وفي كلتا الحالتين سأستفيد، إن وافقت والدتها بأن تأتي إلى بيتنا في العطلة كي أرسمها سأجد الفرصة كي أشرح لها مافي داخلي تجاهها، وإن لم توافق سوف تعطيني صورتها وحينها سيكون معي شيءٌ منها يبدد وحدتي في غيابها.

أخبرتني بعدها أنها لا تستطيع القدوم، أعطتني صورةً لها حين كانت في الصف السادس، كانت تشبه الأميرات، عينان سوداوان وشعرٌ أسودُ متماوجٌ على الكتفين، وجهٌ أبيضُ مستديرٌ كالقمر، وأحيانا كنتُ أقول إن القمر سرق شكل استدارته من وجهها. بدأتُ أرسمها كما هي أميرة من أميرات هذا الزمان، احمرار وجهها ضائعٌ في

قميص نصف كم لونه أحمر قاتم وابتسامتها الدائمة مرتسمة كوجه طفلٍ يفرح بليلة العيد، إنها خلود.

في إحدى أيام آذار الباردة بسمائه الصافية، كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر، دخل رجلٌ إلى المخبز له هيئة غريبة وجميلة، لحيته تكادُ تصلُ إلى منتصف صدره وكأنه لم يحلقها منذُ سنين، ذو شعرٍ طويلٍ ويضعُ نظارةً على رأس أنفه ويدقق في أنواع الحلويات من فوق النظارة، قال لي أريد خمس قطع من الكيك بالشوكولا، شكله يوحي بأنه فنان أو كاتب أو شيءٌ من هذا القبيل. أعطيته الكعك وانتظرتُ منه أن يسألني أي سؤال لأنطلق في حديثي معه، تملكتني رغبةُ الحديثِ معه، حين أعطاني ثمن الكعك دون أن يتكلم امتلكتني فكرة بأن أسألهُ أي شيء كي أستطيع التحدث معه، لم يكن عجوزا، كان يبدو عليه أنه في العقد الرابع من عمره، امتلكتُ الجرأة قبل أن يخرج وقلتُ له "إن وجهك ليس غريبا وأظن أننا تقابلنا من قبل".

تمعن في وجهي وقال:- "ربما هنا".قلتُ:

- لا، ربما في مكان آخر. وبذكاءٍ حاد قال لي:
- وجهك يقول أننا لم نتقابل من قبل، لكنك تريد التحدث معي قل ماعندك قلتُ:
- أنا اسمي سعيد الكردي، في الصباح طالب مدرسة، بعد الظهر عامل هنا في المخبز، في المساء ماسح زجاج السيارات على مفارق الطرق، وفي العطل أرسم.
- وماذا ترسم؟ سألني. قلتُ له:
- أي شيء يقع نظري عليه أستطيعُ أن أرسمه. قال:
- هل من الممكن أن أرى أعمالك؟ قلتُ له:
- لمَ لا، لكن كيف ومتى؟

- أنا اسمي سلام سرور، فنان تشكيلي وأعمل بالقرب من هنا في مرسم لورشات التطريز. أعطاني بطاقةً مدونٌ عليها اسمه واسم المرسم الذي يعمل فيه والعنوان، وقال لي أنا في المرسم يوم الجمعة أيضا، تستطيع القدوم قبل دوامك في المخبز.

في الموعد المحدد بيننا يوم الجمعة، ذهبتُ إلى المرسم ومعي كل أعمالي التي رسمتها من قبل، انتابني شعورٌ جميل، سيُفتح الطريق أمامي لأصبحَ رساما وأبدأُ طريقًا ربما استطعتُ به أن أحمل عائلتي إلى برِّ الأمان، دخلتُ المرسم ووجدتُ خمسة أشخاص في غرفة كبيرة، كل واحد يجلس على طاولته ويقوم برسم أشكالٍ مختلفة، كان سلام يجلسُ على طاولة قرب النافذة، دخان سيجارته يتطاير فوقه وهو في حالة تشتعلُ شيئا في داخلك كأن تصبح رساماً مثله.

- مرحبا.. التفت الجميع إلي ما عدا سلام :
- أهلا. قلتُ:
- أنا صديق سلام، التفت إليّ سلام لحظتها وكأنه لم يكن هنا، وقف وقال:
- أهلا سعيد، تفضل.

جلستُ على كرسيٍّ بجانبه، أعطيتهُ أعمالي وبدأ بالتمعن فيها كان شعور الفشل يلاحقني رغم أني كنتُ أقول أن الظل الذي أرسمه يشبه الظل الحقيقي، لكن كنتُ أشعرُ بضعفٍ في الخطوط. بدأ سلام بالتمعن أكثر وبدأت علامات الاستغراب ترتسم على وجهه، سائلا:

- منذُ متى وأنت ترسم؟

قلتُ له بدأتُ بالرسم منذُ أعوام لكن على فترات متقطعة، كما قلت لك أنا مشغول بين دراستي وعملي ولدي أربعة إخوة وأساعد أمي في مصروف البيت.

أخذ أعمالي وقال لي سأعود إليك بعد قليل، ذهب سلام إلى الغرفة المجاورة يبدو أنه سيعرضها على صاحب المرسم، بدأتُ أراقب بقية الرسامين وطريقة أعمالهم كيف يقومون برسم الموديلات وانحناءات الورود والنباتات لتتناسب مع موديل القطعة التي أمامهم. عاد سلام بعد دقائق وقال لي:

- هل تحب أن تعمل معنا؟ قلت له:
- لمَ لا، إن كان يناسبكم أن أداوم بعد دوام المدرسة، وطبعا أن يكون الراتب أفضل من المخبز، لا أقول أني لا أريد تنمية موهبتي، لكن لا أريدها أن تنمو على حساب إخوتي، قال :
- تعال لنتكلم مع صاحب المرسم عن هذا، دخلنا إليه فعرفته بنفسي:
- سعيد الكردي. قال:
- محمد حاج سعيد.
- أهلا تشرفنا. قال سلام لمحمد:
- هذا سعيد الذي رأيت أعماله منذ قليل، ونحنُ بحاجة لرسام كما تعرف وحسب ما رأيت في أعمال سعيد أظن أن لديه القدرة أن يتعلم رسم الموديلات في وقتٍ قريب، لكن مشكلة سعيد تكمنُ في الراتب، فما رأي حضرتك، قال محمد:
- في البداية سنعطيه 2000 ليرة في الشهر إلى أن يصبح محترفا سنتفق فيما بعد، لكن يجب عليك أن تحضر إلى المرسم كل يوم في الساعة الثانية ظهرا، وتبقى إلى العاشرة مساءً، هل يناسبك هذا؟
- 2000 ليرة مبلغٌ جيد، وأفضل من المخبز، أنا موافق.
- اذهب مع سلام ليشرح لك قليلًا عن العمل

دخلنا أنا وسلام إلى المرسم وبدأ يشرح لي كيف يستلمون القطعة من الزبون وكيف يقومون بالتركيز في طلب الزبون عن رغبته في الرسمة على قطعة القماش التي سترسم فيها بعد على ماكينات التطريز، تحدثنا عن كيفية التعامل بيننا فيما يخص وجبة الغداء والتنظيف وأمور المرسم بين الرسامين، قام بتقديمي إلى بقية الرسامين في المرسم بأني الرسام الجديد الذي سيبدأ عمله قريبا، واتفقنا أن أبدأ العمل بعد أسبوع لأُمهل صاحب المخبز بعض الوقت كما اتفقت معه في بداية عملي.

ذهبتُ إلى المخبز وقلتُ لجورجيت ذلك، بدا عليها الحزن لسماعها الخبر، لكنها قالت:

- المهم أن تكون سعيدا بعملك الجديد، وأتمنى كل الخير والمحبة لك وسأخبر المسيو حنّا بذلك، لا تقلق أكمل الأسبوع هذا وكل شيء سيكون على ما يرام.

بعد أسبوع بدأتُ العمل في المرسم، كانت البداية ممتعة، لم أتخيل نفسي أنني سأنجح بالسرعة هذه، بعد أيام معدودة بدأت أجلس مع الزبائن وأتفق معهم على الرسمة التي يريدونها.

الأيام تمضي بشكلٍ أفضل من قبل، أخي فرهاد توقف عن المدرسة بعد محاولاته الفاشلة في إكمال تعليمه، ولا قدرة لديه في البحث عن العمل لأنه كان مشغولاً بغرامه مع فتاةٍ في حيِّنا، كانت بينهما علاقة وكان يجلس أمام البيت دائما على أمل أن تخرج ليتحدثا قليلًا في السر، وإخوتي الصغار لا بأس عليهم، في مدارسهم والحياة أفضل من قبل. لم أكن أعرف ماذا يعني أن تكمل حياتك بهناء، كنتُ دائما حذرا، خائفا، ما تعودتُ السير في حياتي دون طعنات. مساء يومٍ أحسستُ بالتعب في العمل، لم أستطع الذهاب سيرا على الأقدام لأمسح زجاج السيارات، قررتُ الذهاب بالباص، خرجتُ

من المرسم ومشيتُ إلى موقف الباص، كان هناك رجلٌ يبدو عليه أنه "جنتلمان[1] "، لابسا بدلة سوداء وربطة عنق حمراء، أصلع، حليقَ الذقن دون شارب، كان ينظر إليّ نظرةً غريبة، أخافتني نظرته بعض الشيء، ركبتُ الباص وجلس هو في المقعد الذي بجانبي، ومازال ينظر إلي، وفجأة قال لي:

- كيف حالك يا جميل؟
- من جميل؟ سألتهُ. قال لي:
- ألستَ جميل حسن؟ قلتُ له:
- لا ياعم أنا لستُ جميل. قال لي:
- لدي صديق لم أزره منذ فترة طويلة، وعنده ولد يشبهك كثيرا اسمه جميل بكل الأحوال أهلاً بك، أنا اسمي حسام الشاطر، أعمل في مجال النقل في شركة القنطرة، والقنطرة شركة كبيرة كما يقول الناس.
- أهلا بك أنا اسمي سعيد الكردي، أعملُ في مرسم لورشات التطريز.
- سألني كم هو راتبك؟ قلتُ له:
- 2000 ليرة في الشهر. قال:
- هل ترغب في العمل معنا في مجال النقل؟ قلتُ له:
- هذا يعود إلى الراتب وساعات العمل، لأنني في الصف التاسع وأريدُ أن أكمل دراستي، إن أردتُ تغيير عملي يجب أن يناسب مصروفي ودوامي المدرسي قال لي 3000 ليرة في الشهر، وهناك مجالٌ أن تحصل على مبالغ إضافية يوميا والدوام بعد الظهر، وطبيعة عملك هي أن تجلس خلف الطاولة في مكتب الحجز وكلما

---

[1] جنتلمان- بالإنجليزية Gentleman : وتعني الرجل الشهم النبيل

أتى شخص يريد أن يسافر إلى مكانٍ ما تعطيه مقعدا في الصفوف الأخيرة، وأغلب الناس لاترغب بالجلوس في المقاعد الأخيرة، حينها تطلب منه 25 ليرة إضافية وستقوم بنقل مسافرٍ آخر إلى الصفوف الأخيرة، منهم من يقبل ومنهم من يرفض، أنت وشطارتك في إقناعه، وهذا ما أقصده بالمبالغ الإضافية. قلتُ:

- موافق، لكن يجب أن تمهلني بعض الوقت لأخبر صاحب المرسم بذلك.قال:
- لا أعرف بالضبط متى تستطيع مباشرة العمل إلى أن تقابل المدير، أنا موظف في قسم المحاسبة ويبدو عليك التعب وأحببتُ أن أساعدك، ونحنُ بحاجة إلى شاب ليقوم بهذا العمل.
- إذًا متى أستطيع مقابلة المدير؟ سألتُه. أجابني:
- كل يوم في السادسة مساءً أذهب إلى بيته في حي السبيل كي أسلمه النقود، نستطيع أن نذهب سويا في الغد ونتكلم معه، سوف أنتظرك أمام الفندق السياحي في الخامسة مساءً.
- تمام اتفقنا، غدا موعدنا.

عدتُ إلى البيت وأنا أشعر بارتياحٍ في داخلي بعض الشيء، رغم أني لم أتعود على هذا الصفاء في مسيرة حياتي.

أخبرتُ أمي بالذي حصل معي، وقالت لي أنت أدرى يا بني، لكن أنا أحببتُ عملك في المرسم، وها أنت ترى كيف أصبحت ترسم بعد عملك في المرسم، في النهاية أنت تعلم ماذا تفعل، لكن أنا لا أحبذ العمل في كراجات الباصات، لا يا أمي لن أقتل هوايتي، كل ما في الأمر أني أبحثُ عن لقمة عيشنا الآن، الرسم سيأتي فيما بعد، الأهم الآن أن نؤمن مستقبلا خاليا من الديون.

انطلقتُ من المرسم إلى ساحة سعد الله الجابري في اليوم الثاني، وقفتُ أمام الفندق السياحي أنتظره، جاء حسام بهيئةٍ أجملَ من اليوم الذي قبله، قال لي:

- هيا نذهب قبل أن يذهب المدير إلى الجامع فهو لا يصلي في منزله.

ركبنا الباص ومضينا إلى حي السبيل، حين وصلنا قال لي سنمشي قليلًا إلى أن نصل إلى بيته. كان في الطريق يراقبني بطرف عينه، كنتُ أشعر بشيء غريب نظراته لم تعجبني، لكنه قال لي أننا سنقابل المدير في المنزل، وماذا إذا كان المنزل لا أحد فيه ويريد خطفي أو أي شيء من هذا القبيل ؟

انتابني شعورٌ غريب، بدأت الحيرة ترتسم في مخيلتي، هل هذا شخص جيد ويريد مساعدتي بالفعل أم أنه كاذب وله مآرب أخرى؟

على كل حال سأبقى متيقظاً وحذرا، ولن أدخل البيت إن لم أشعر بالارتياح.

وصلنا إلى بناء ضخم مؤلف من ثلاثة طوابق قال لي: "هنا يسكن مديرنا". الديكورات الخارجية والإضاءة توحي بأنه قصر وليس ببناءٍ عادي، قال لي: "بدلًا من أن نصعد إلى الطابق فوق دعنا نبحث عن سيارته، إن كانت السيارة هنا سنصعد وإن لم تكن هنا سأصعد وحدي ولاداعي أن تصعد كل الطوابق". التفت يتمعن في كل السيارات التي في الحي، ثم قال لي "يبدو أننا تأخرنا، سأصعد وأتأكد إن كان في البيت أم لا، إن كان في البيت سأنادي عليك ، أبقِ نظرك على الشرفة التي في الزاوية"، قلتُ: "حسنا"، أسعدني هذا الشيء، لأنني أحسستُ بأنه صادق، لو كان له مآرب آخرى لكان قال لي تعال معي.

بعد دقائق عاد وقال لي أنه في الجامع، دعنا نذهب إلى الحديقة المجاورة ونشرب شيئا باردا إلى أن يعود، جلسنا على مقعدٍ منزو في الحديقة، بدأ بالحديث عن الأخلاق وكيف

للإنسان أن يستطيع الحفاظ على أولاده من الضياع، وقال مشكلتي أنه لا وقت لدي لزوجتي وهي لا تفهم ذلك، أنا أركض خلف لقمة العيش لتأمين مستقبل أولادي وهي لا ترحمني من الطلبات، لم أفهم كثيرا لكن كان تفكيري كله أني لا أريد أن يحل الظلام ونحن هنا، هناك خيطٌ رفيعٌ بيني وبين هذا الرجل، لكن شيئا في داخلي يوقفني عن الحديث أو الابتسام له، لم أكن مرتاحا لا أدري لمَ.

بعد قليل قال لي: "هيا لنذهب ونرى إن كان قد عاد أم لا"، وقفنا أمام البناء من جديد قال لي: "لم يأتِ، سيارته ليست هنا"، سألني إن كنتُ جائعا فقلتُ له لا، بدأتْ الشمسُ تغيبُ، حلَّ الظلام، قال لي هيا نأكل البوظة في الحديقة قبلت بالعرض باعتبار أن الجوع بدأ يتسلل إلى معدتي، جلسنا على نفس المقعد المنزوي رغم أنّي عرضتُ عليه أن نجلس على مقعدٍ قريب من الباب لنكسب الوقت، قال لي تعودتُ الجلوس على ذلك المقعد، جلسنا، تناولنا البوظة وهو يحّك بيديه بين ركبتيه وكأنّ شيئا يقرصه، وبدأ يحكي لي عن النساء والفروق في أعمارهن وكيف تكون أشكال أثدائهن في كل عمر، والحلبية كيف تصرخ أثناء الجماع والحمصية والشامية ، وهو يقلّد أصواتهن بنبرةٍ غليظة، فهمتُ الهدف من الحديث، إثارتي، لأنه بدأ يسألني عن العادة السرية وماذا أفعل حينها وصورة من تتعلق في ذاكرتي وأنا أمارس العادة السرية، قلتُ له: "لا أمارس العادة السرية"، قال: "مستحيل"، وبدأ يقترب مني أكثر ويتوسل إليّ كي أخرج قضيبي ليراه، وأنا أقول له نحن هنا لمقابلة المدير وليس لأن نتبارى بقضيبينا، كنتُ أحاول أن ألهيه بالحديث أكثر على أمل أن يمر أحدٌ من أمامنا، حينها سوف أمشي بدون أن يستطيع فعل أي شيء، وحين طال انتظاري قلتُ له تعال لنذهب وراء الغرفة تلك لترى قضيبي وأرى قضيبك دون أن يرانا أحد، راقتْ له الفكرة. خلف الغرفة

قلتُ له دعني أرى قضيبك أولا، أخرج قضيبه وأخذ يفركه، فما كان مني إلا أن ركلته بقدمي بين ساقيه على خصيتيه وبدأتُ بالركض كي لا يمسك بي، ابتسمتُ حين سمعتُ صوتَ صراخه وهو يتألم وأنا أركض نحو الباب، حين وصلتُ خارج الحديقة شعرتُ بالأمان بعض الشيء، توجهتُ نحو موقف الباص حين وصلت كانت أنفاسي على وشك أن تتوقف من شدة الركض، رأيتُ امرأةً كبيرةً بعض الشيء على الموقف، قالت لي: "هل هناك أحد يلحق بك؟" قلتُ: "لا.." قالت لي: "هل تستطيع أن توقف سيارة تاكسي لي؟" قلتُ لها: "نعم، بكل سرور". سألتني أين أسكن، وإن كان في نفس الطريق ستصطحبني معها، فشكرتُها رافضا، فأنا متأكد أن طريقي ليس طريقها، كان يبدو عليها امرأةً من الطبقةِ المخملية، في عقدها الرابع أو الخامس من العمر، على ما يبدو من تفاصيل وجهها. قالت:

- في هذا الوقت يأتي الباص متأخراً، دعني أصطحبك معي، قلتُ لها:
- يا خالتي بيتي في السكري وأنتِ الله أعلم أين تسكنين.
- وأين تكون السكري؟ سألتني. قلتُ:
- إذا كنتِ لا تعرفين فهذا أفضل، لأن السكري حجارها مرارة، طرقاتها مرارة، بيوتها، ناسها، دكاكينها، حتى الورود فيها مريرة ورائحتها فاسدة لأنها تشرب من ماء المرارة، يقولون عنها السكري ولا علاقة لها بالسكر من قريبٍ أو بعيد.
- لكن الوقت تأخر وأنا أحبُ أنا أوصلك في طريقي، أوقف سيارة وأنا سأدفع الأجرة له وأنزل أمام بيتي وستكمل معه إلى حي المرارة.

ضحكت ساخرة وهي تقولها، وأضافت:

- أنا اسمي مدام سميرة ويقولون لي أم هدى، إذا ركبنا التاكسي سأقول له أنك ابن أختي.

أوقفتُ سيارة تاكسي وجلستُ بجانب السائق أمثلُ دور الرجل وخالتي التي لا أعرفها تجلس من الخلف، قالت للسائق: "الموغامبو" تقصد منطقة بيتها، يا إلهي هل هناك شارع في حلب اسمه "الموغامبو"؟ يبدو عليه اسم شارع في فرنسا أو سويسرا، وصلنا إلى منطقة يبدو أنها الموغامبو، بدأت خالتي بإرشاد السائق نحو البيت، وصلنا إلى حي مغلق بجانب روضةٍ للأطفال، قالت للسائق قف عند باب الروضة، أخرجتْ المال من حقيبتها وقالت لي:

- انزل معي يا محمود سوف أعطيك بعض الأشياء كي تأخذها إلى أمك في طريقك.

لم أفهم كيف سمعتُ كلامها ونزلت معها، رائحة عطرها نتنة ربما هو عطرٌ فاخر، وأنا لم يحصل لي الشرف بأن شممتُ عطراً من عطور الطبقة المخملية، لهذا السبب كنتُ أشعر أنها نتنة لأنني لم أتعود عليها، دخلنا إلى بناءٍ كبير يشبه الأبنية الحكومية في عرضه، لو كان مدخل هذا البناء في السكري لوجدت الأطفال يلعبون فيه كرة القدم، كان البناء نظيفا وهناك أحواض نباتات على طرفي المدخل على امتداده، في السكري حتى الورود لا تسلم منا، ونحن في طريقنا إلى المدرسة كنا نراقب إن نبتت وردةٌ جديدةٌ من منازل الحي كي نقطفها ونعطيها للمعلمة في الصف، عملية رشوة صغيرة، نحن شعوب الرشاوي نتعلم الرشوة من الصغر ونحن نرضع من أثداء أمهاتنا، وقفنا أمام باب بيتها أخرجت المفتاح وفتحت الباب، قالت لي:

- تفضل يا....؟ حتى الآن لا أعرف اسمك، ماهو اسمك؟ سألتني.

- سعيد يا خالة. قالت:
- لا داعي أن تقول لي خالة، قل مدام سميرة أو أم هدى.

على ما يبدو كلمة خالة تحسسها بكبر العمر. دخلنا إلى البيت وصدمتُ من المنظر الذي رأيته، كان البيت أشبه بالبيوت الأوربية التي يتحدث جارنا عنها حين كان في اليونان، البلاط كأنه قطعة واحدة، الصالون كبير جدا، أكبر من بيتنا، الثريا دائرية الشكل مزخرفة بكريستال على شكل ورود صغيرة معلقة في منتصف الصالون، لوحات فنية كبيرة، رأسُ غزال معلق، ساعة عمودية تتمركز في أقصى الزاوية، تماثيل وأنتِيكات متنوعة، كل شيء مرتب ونظيف وكأن هناك فريق تنظيف قام بترتيب وتنظيف المكان، قالت لي اجلس سأجلب لك عصيرا، جلستُ وأنا أتمعنُ في الأشياء وأمتع نظري بالأثاث وأشكاله الفريدة وأتحسر على بيتنا، وأقول في نفسي ماذا كان سيحصل لو كانت أمي هي صاحبة هذا المنزل؟

دخلت المدام وفي يدها صينية عليها كأسين من العصير وبعض المكسرات والحلويات والجوز واللوز والزبيب، وضعتها على الطاولة أمامي وقالت لي تفضل، كان يبدو أن الأشياء التي على الصينية تكلفتها أكثر من مصروف بيتنا ليومين، أين العدل يا إلهي؟ أناس لا تعرف كيف تدبر قوت يومها وأناس لا تعرف أين تذهب بأموالها، هل كُتِبَ على الفقير أن يبقى فقيراً كل العمر؟

بدأت تسألني عن أمي وأبي وماذا كنتُ أفعل في الحديقة حينها ولماذا كنتُ أركض، كان وجهها غريبا بعض الشيء، لم أشعر بالراحة المطلقة في نظراتها وحركاتها. قلتُ لها:

- أحسستُ أن رجلا يلاحقني فبدأتُ بالركض خوفا، لكن على ما أظن أنه كان مجرد خيال، لم أقل لها أن والدي ميت وأنا وأمي نعمل كي نتدبر أمور معيشتنا،

يجب ألّا تشفق عليّ، لا هي ولا غيرها. حدثتني عن نفسها بأنها امرأة وحيدة، أصلها من مدينة حمص لكن زوجها الميت كان يخدم في حلب باعتبار أنه كان رئيس فرع الأمن السياسي، ولديها ابنتان متزوجتان وتقيمان في حمص، يزورون بعضهم البعض بين الفترة والفترة. سألتها:

- لماذا اصطحبتني معك إلى البيت؟ ما هو الغرض من ذلك؟، وهل يمكن لصاحبة هذا المنزل ألا يكون لديها سيارة خاصة؟
- لديَّ سيارة وسائقي متوقف عن العمل لأن صحته تدهورت في الآونة الأخيرة ولم أستطع إيجاد شخص آخر أثق به، لأنه كما ترى أنا امرأة وحيدة وكل من يتعرف عليّ يحاول الاستفادة مني بشكلٍ من الأشكال، أنا أحاول التنقل في التاكسي إلى أن أجد الحل المناسب ولا أستطيع قيادة السيارة بنفسي لأني أشعر بالتوتر وقت الازدحام، وهذا لا يناسب صحتي، غير هذا أخاف من أن يخطفني أحد، لذلك أحاول أن أجد أحدا يرافقني حين يتأخر الوقت، وأردتُ التعرف عليك أكثر لأن تفاصيل وجهك أراحتني كثيرا وأزاحت الكآبة من داخلي. أنت جميل جدا يا سعيد.
- شكرا لكِ مدام. على الباب قالت لي:
- في أي وقت تريد زيارتي أهلا وسهلا بك، لا تردد، وأتمنى أن يكون في وقتٍ قريب، سأكتب لك العنوان على ورقة إذا أردت زيارتي. كتبت العنوان وخرجت معي كي نوقف التاكسي معا وتدفع له الأجرة.

نزلت من التاكسي قبل البيت كان من المخجل لي أن أنزل أمام بيتي من سيارة تاكسي والناس تعرف أن الديون تلاحقني ولا تفارقني، مثل الأسوارة في المعصم، التقيتُ

بحنان من جديد، واقفة على سطح منزلهم غمزت لي بطرف عينها مشيرة إلي أن أقف في الأسفل، وقفتُ أمام باب بيتها وانتظرت، بعد دقائق فتحت الباب وقالت ادخل، دخلتُ وهمستْ لي: "سوف أمشي أمامك إلى الغرفة على السطح، إن رأيتني توقفت توقف أنت أيضا"، مثل اللصوص المحترفين مشينا في أرض الدار صعدنا إلى الغرفة على السطح، كانت الغرفة شبه مستودع، الكراكيب منتشرة هنا وهناك، أكياس المؤونة الكبيرة، قطع أثاث قديمة امتلأتْ بالغبار.أخرجت من خلف خزانة خشبية كيس خيش كبير يبدو أنه سرير الحب السري لحنان، مدتهُ خلف أكياس المؤونة وقالت لي تعال كان يبدو المكان مرتب من قبل لعملٍ كهذا، الأكياس الكبيرة تخفينا تماما في الغرفة، تمددتْ فوق الكيس الكبير وقالت لي تعال، وشكل وجهها أقرب إلى رمانة تشققت قبل موعد نضوجها، تمددتُ بجانبها وبدأتْ بتقبيلي من فمي وعنقي وكل مكان طالته شفتاها، بدأت تفتح أزرار قميصي والبنطال، وتفرك بيدها عضوي وكأنها تريد أن تنتزعه من مكانه، وحين اشتدَّ الأمر معها بدأت بالتهام عضوي، بدأت حرارتي ترتفع، صدرها المكور كان طرياً جدا، للحظة أحسستُ أني أمسك برتقالتين، جلست تتحرك كالموج فوق عضوي، شلحت فستانها وبقيت عارية، كانت بدون لباسٍ داخلي، ربما كانت مستعدة لحفلة الشواء هذه، ونحن في أوج سهرتنا سمعنا صوت والدتها تنادي عليها، قفزت من فوقي ولبست فستانها، وخرجت تتكلم مع أمها قبل أن تدخل وتكتشف أمرنا، سمعتُ صوتها في البداية، بعد قليل اختفت الأصوات، وكأن حنان ذهبت مع أمها وتركتني هنا، لبستُ لباسي وبدأتُ بالانتظار إلى أن تعود كي أخرج، لم يعد الوقت يحتمل للتأخير أكثر من هذا، وأنا جالسٌ في الزاوية منتظراً لحظة الإفراج عني، طال انتظاري وأنا على عجلٍ من أمري، أمي لن

تنام قبل أن أدخل إلى البيت، أنا متأكد من ذلك، اليوم هو الخميس في العادة كنتُ أتأخر يوم الخميس لأن أمي تعرف بأني أبقى لوقتٍ أطول على مفارق الطرق وأنا أمسح زجاج السيارات لكنني تأخرت كثيرا ماذا سأفعل يا إلهي؟

إن خرجتُ لوحدي ربما يصادفني أحدٌ من أهلها، فأما أن يفتضح أمري أو يقولون عني لص، وأنا لا أريد مصيبة جديدة. بزغت الشمس وأنا أنتظر، لم تأتِ حنان، يجب أن أخرج، لا أريد أن تقلق أمي أكثر، وأنا في حيرةٍ من أمري بين البقاء أو الخروج، سمعت أصواتا تأتي من السطح، مددتُ رأسي أسترق النظر إن كانت حنان هنا أم لا، لكن لم أستطع أن أرى شيئا، الأصوات تأتي من خلف الجدار ولا أستطيع أن أمد رأسي أكثر خوفاً من أن يراني أحد ، سمعتُ والد حنان يقول لزوجته: "أم محمود، أحضري القهوة نشربها هنا الشمس دافئة"، اللعنة! إذًا سيشرب القهوة في السطح، إلى متى لا أدري بدأتُ أشعر بالجوع والعطش . ستنفجرخصيتاي، أريد التبول، المهم الخروج من هنا، انتظرت ساعات ولا شيء جديد، الأصوات لا تختفي من الأسفل، لا أجرؤ على الخروج والوقت يمشي كالسكين على عنقي، متى سيقطع رقبتي لا أدري لكنني أحسستُ أن السجن الذي دخلته في فرع الجميلية كان أفضل من هنا، وبعد أن فقدتُ السيطرة خرجتُ من المِخْدع وتبولتُ في زاوية الغرفة، وأنا أريح نفسي فُتِحَ الباب من خلفي، سقط قلبي لحظتها، كانت حنان ومعها رغيف خبز وبيضتان مسلوقتان وإبريق ماء.

- أين كنتِ؟
- مثلما سمعت، أمي كانت تناديني، وحين خرجت قالت لي جئت لأنام بجانبك فلم أجدكِ على سريرك، لأن شخير والدك يمنعني من النوم ونامت بجانبي، وأنا

سرقني النوم منك، وعلى ما يبدو أنك ستبقى ضيفنا الليلة، خذ كُل واشرب إلى أن أجد الحل أو أن تبقى هنا إلى الغد.

- لا أريد شيئا إلى أن أطمئن أمي. قالت:
- ما باليد حيلة، اليوم جمعة والكل في البيت، وبالإضافة إلى ذلك سيقوم أبي بالشواء هنا في السطح، وقت العشاء سيزورنا بيت عمي ليسهروا الليلة هنا.
- لا يا حنان، أخرجيني من هذه الورطة بأي طريقة كانت، ولو كلفني الأمر أن أرمي بنفسي من السطح إلى الأرض.
- مستحيل اليوم جمعة والكل في البيت والأطفال والشباب في الحي يلعبون كما تعرف، انتظر قليلًا ربما وجدت طريقة، ولا أستطيع أن أقوم بخداع أهلي إن صرخت في الحمام مدّعية أني سقطت، لأن الحمّام كما تعرف أسفل الدرج وباب البيت بعد الحمّام...
- لا يا حنان أرجوكِ ساعديني. قالت:
- دعني أذهب كي لا أثير الشكوك في اختفائي وإن لم أجد طريقة ابقَ لمنتصف الليل حينها لكل حادثٍ حديث.

أغلقتْ الباب خلفها ومضت، تركتني مع الكراكيب وأكياس المؤونة، بدأت الشمس في الغروب، سمعتُ صوت أبيها وهو يقول أعطوني أسياخ الشوي والفحم والمنقل والخضروات سأبدأ الآن، سيبدأ العم أبو محمود بحفلة الشواء، وأنا هنا منتظراً لحظة إخلاء السبيل على ما يبدو هذا درسٌ جديد يجب أن أتعلمه في حياتي، ألّا ألعب في أماكن أكون فيها معرضا للاحتراق، تعالتْ الأصوات في الخارج، حلَّ الظلام وبدأتُ أشعر بالتعب والنعاس، لا أريدُ أن أنام خوفاً من أن يأتي أحدهم ويسمع صوت

شخيري، بقيتُ أشمُ رائحة اللحوم اللذيذة وكل تفكيري في أمي، ماذا حصل بها بعد غيابي هذا من الأمس. بعد مضي أكثر من أربع ساعات انتهت حفلة الشواء خفّت الأصوات، بقي صوت والد حنان وعلى ما يبدو أخاه معه، وأنا كما أنا أرتشف الماء، أبول، أجلس في سري أفكر باللحظة التالية، مددتُ رأسي كي أسترق النظرمن النافذة، وجدتُ والد حنان مع أخيه يشربان العرق، على ما يبدو إقامتي طويلة، خلعتُ حذائي وتمددتُ على الأرض في زاويتي، لم أشعر بشيءٍ من الخوف والتعب والتفكير، سرقني النوم، استيقظتُ على صوت حنان وهي تقول لي قم بسرعة أكثر من ساعتين وأنا ممددة في الفراش أنتظر أن ينام الجميع، لكن والدي بقي وحده بعد ذهاب عمي إلى أن أرهقه الخمر منذ ساعة وذهب للنوم، الحمدلله المهم أني سأخرج، نزلنا من الدرج إلى الأسفل بكل هدوء، كانت حنان تنزل أمامي حين وصلنا إلى أرض الدار فُتِح باب غرفة أخيها محمود فرميتُ بنفسي إلى غرفة والديها الأقرب إلى موقعي، بركبتين ترتجفان وقفتُ وراء باب الغرفة، سأل محمود أخته حنان:

- ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت المتأخر؟ قالت:
- سمعت صوتا في السطح وصعدتُ لأرى.
- وهل وجدتِ شيئا؟ سأل أخته.
- بصراحة لا، كل ما في الأمر أني وقفتُ على الدرج الأخير وخفتُ أن أكمل، هل تستطيع الصعود معي لنتأكد من ذلك؟ قال محمود:
- لا داعي، يبدو أنه قط جائع وشمَّ رائحة الشواء في الليل، وجاء ليتفقد المكان إن كان هناك شيء يتناوله، اذهبي ونامي ولا داعي للقلق.

اختفت الأصوات بعدها، على ما يبدو عادت حنان إلى غرفتها لتنتظر أخاها أن ينتهي من الحمّام . بعد قليل خرج محمود من الحمّام.

بدأ الأب يتكلم مع زوجته، وأنا واقف بين الباب من الخلف وخزانة الألبسة:

- أم محمود ألا تسمعيني؟ منذُ أكثر من ساعة وأنا أقول لكِ هيا قومي واغتسلي.
- نم الآن وغدا سنقوم بما تريد، من الصباح وأنا في المطبخ وفي استقبال عائلة أخوك، ارحمني يا رجل، في النهار أعمال المنزل لا تنتهي وحين أتمدد هنا تريدني أن أكمل عملي هنا؟ بنبرة مخمورة وصوتٍ متهدج قال:
- الشواء والعرق بدون حب آخر الليل، كالذي يجلس بين حقول التبغ ولا يملك عود كبريت ليشعل سيجارته. ردت عليه أم حنان:
- يا رجل، يا رجل ارحمني، حقول وسيجارة وعود كبريت ، ارحمني.

وما كان من أبي محمود المخمور إلا أن يشلح بيجامته ويجلس فوق زوجته عاريا وهو يدلك بكلتا يديه ثدييها وهي تقول: "أرجوك ارحمني"، وهو لا يهتم لطلبها وبدأ بحفلة الشواء الخاصة به ممدداً فوقها يصدر أنينه بنبرة مخمورة، وأنا أقف في شبه جزيرتي بين الباب والخزانة والجدار، تاركًا لي التوهان بين التفكير بأمي وعملي وكيف سأخرج من هذه المصيبة، مددتُ رأسي أسترق النظر، كانت أم حنان متعرية مُسْلِمَةَ أمرها للواقع المخمور وهي تقبّل عنق زوجها وهو يقول لها ما أجملك، أنا سعيد جدا في حياتي معك يا حبيبتي، وهما يتعاركان فوق السرير، كان الموقف أشبه بالحلم لي، لم أرَ أحدا من قبل يمارس الجنس بالشكل الكامل، كان قضيب أبو محمود كبيرا، وأثداء زوجته أشبه ببطيخةٍ صفراء استوت من شدة الحر ولم تجد من يقطفها، تتدلى على أطرافها وأبو محمود مستلقي بين ساقيها يرتشف من ماء الحياة، مرت أكثر من ساعة

وهما يتبادلان الحب، مرة هي من فوق ومرة هو، وأنا أكادُ أتقطع من الموقف الذي أنا فيه، وبنفس الوقت كان شيئا غريباً وجميلاً، انتهت حفلتهم حين اختمر أبو محمود من ماء الحياة، لحظة تمدده على الفراش انطلق شخيره بصوتٍ عال، وأم محمود تنكزه بكوعها على بطنه وتقول له استقم في نومك يا رجل. حين تأكدتُ أن أم محمود غرقت في النوم، فتحتُ باب الغرفة بهدوء وخرجت منها، بركبتين ترتجفان وقلبي يكادُ أن يتوقف من شدة الخوف، مشيتُ ببطءٍ في أرض الدار، وفجأة فتح أحدهم الباب، كانت حنان أشارت لي بيدها أن أمشي بسرعة وهي ستغلق الباب خلفي، حين وصلتُ إلى الباب وخرجت شعرتُ بأنني عدتُ للحياة من جديد، مشيتُ فورا باتجاه البيت متعثرا، لكن ماذا سأقول لأمي، أين كنت؟

المهم أن أصل الآن لأرى أمي ماذا حصل بها، حين دخلت كانت جالسة في أرض الدار واضعةً كفَّ يدها على خدِّها، واليد الأخرى على ركبتها وهي نصف نائمة، وما إن سمعتْ صوت الباب حتى ركضت إليّ تحضنني، وبدأت تشمُ شعري وتحضنني وتقول لي: "أين كنت يا قرة عيني؟ لم أنم منذ الأمس، أين كنت؟"

- أمي وجدتُ رجلًا عجوزا في طريق عودتي ليلة الخميس، كان لا يستطيع الحراك ساعدتهُ إلى أن وصل إلى بيته، وعلى عتبة البيت سقط العجوز، وانشغلتُ معه بالذهاب إلى المشفى، ولم أستطع مفارقته لأن الطبيب في المشفى قال لي يحتاج لأحدٍ بجانبه إلى أن يستعيد وعيه، كانت هذه المرة الأولى التي أكذب فيها على أمي، قالت:
- المهم أنك بخير.كادت تُكسر أضلعي وهي تحتضنني، وتقبلني من رأسي وعيوني.

كم هي جميلةٌ الأم، حين يتأخر أحدٌ من أبنائها يبقى قلبها معلّقا على عتبة الاضطراب، لا يهدأ إلى أن يعود، قالت:

- إن حصل شيء كهذا مرة ثانية، عُد إلى البيت، أخبرنا كي لا نقلق، لقد ذهبتُ إلى المرسم وسألتُ عنك، قال لي زملاؤك أنك خرجت باكرا الخميس ولم تعد.
- نعم يا أمي، كنتُ متعبا بعض الشيء لكن حصل ما حصل.

***

ذات مساء وأنا في طريقي إلى المنزل من المرسم وقفتُ على تقاطع الفندق السياحي في ساحة سعد الله الجابري، وبدأتُ بمسحِ زجاجِ السيارات، توقفت سيارة مرسيدس سوداء اللون على الشارة الضوئية، سألتُ السائق إن كان يريد أن أمسح له الزجاج فهزَّ رأسه بالقبول، حين انتهيت فتح النافذة وأعطاني مائة ليرة، كانت المرة الأولى التي أحصل فيها على مائة ليرة، لم تسمح الشارة الضوئية بأن أشكره كثيرا، انطلق هو وأنا بقيتُ أتمعنُ في المائة ليرة، لو كل سيارة تعطيني مائة ليرة لكنت الآن أملك بيتا وسيارة، ماذا يخسر الأغنياء إن تنازلوا قليلًا ودفعوا للفقراء بعضا من مالهم ؟ أم النساء والخمر أهم من الفقراء؟

الفقراء يجلبون التعاسة لهذا العالم السعيد، وحدها النساء والخمر ترسم السعادة على أوجه الأغنياء هذا ما كان يقوله جدي.

قررتُ أن أبقى لوقتٍ متأخر الليلة على هذا التقاطع، لربما رزقني الله من المال ما أستطيع أن أشتري به سريرا لأخي جوان قبل الشتاء، بدأ بالتذمر من النوم في الفراشِ على الأرض. بعد مضي وقت شعرت بأنه طويلٌ وقعت عيني على ساعة معلقة في الفندق في الطابق الأرضي تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، سوف تقلق أمي إن

تأخرتُ أكثر من ذلك، بدأتُ بعد النقود في جيبي فوجدتُها 265 ليرة، كان أفضل يوم لي منذُ بداية عملي في مسح زجاج السيارات، قلتُ في نفسي سأبقى إلى أن يصبح المبلغ 300 ليرة، البرد بدأ ينخرُ عظامي، الفتيات الروسيات في طريقهن إلى النوادي الليلية في "بستان كل آب[2]"، مثيرات في الشكل لكن لم أشعر بشيء حين كنتُ أنظر إليهن. خلود لم تغب عن مخيلتي للحظة رغم كل الظروف التي مرت بي، أخرجتُ سيجارة من جيبي-وكنتُ قد تعلمتُ التدخين من صديقٍ لي في الحي منذ بضعة أيام- وبدأتُ أنفخُ الدخان هنا وهناك، كان واضحا أني لا أعرف التدخين، لكن صديقي حين أقنعني بفكرة التدخين في المرة الأولى قال لي أنك تسحبُ الدخان إلى رئتيك والنيكوتين يدخل إلى صدرك يحملُ الهموم ويخرجها مع الدخان الذي يخرج من فمك، صدقتُ هذا لأن والدي حين كان يمجُ سيجارته كان يقول أريد أن أريح رأسي قليلًا بسيجارة، وأنا مسندٌ رأسي على الجدار وأمجُ من سيجارتي، رأيتُ رجلين في الفندق ببدلتين كحليتي اللون وقميصين أبيضين وربطتي عنق بنفس لون البدلتين يضعان الكراسي فوق الطاولات في الصالة الأرضية، وبعدها بدأا بمسح الأرض، يبدو أنهما موظفان، لكن هل عمال التنظيفات يلبسون بدلة في هذا الفندق؟ لا أملك خبرة في الفنادق، جاءتني فكرة أن أعمل معهما لكي ألبس بدلة مثلهما، راقت لي الفكرة، عامل نظافة أفضل من ماسح زجاج سيارات، تقربتُ منهما وأشرتُ بيدي إلى أحدهما بأنني أريد أن أتكلم معه فأشار لي بأن أدخل من الباب، دخلتُ الفندق وكانت تلك المرة الأولى التي أدخل فيها إلى فندق ، كان الشخص الذي أشرت له ينتظرني أمام باب الصالة، قلتُ له:

---

[2] بستان كل آب أو بستان كليب: منطقة ملاهي ليلية وهي المنطقة المجاورة لساعة باب الفرج.

- اسمي سعيد الكردي وأنا أبحثُ عن عمل، قال أنا "ياسر" موظف استعلامات، وقال أنهم يبحثون عن شخص يقوم بتجهيز وتنظيف صالة المطعم الذي يفطر فيه النزلاء، سألته عن التفاصيل قال لي تعال غدا قبل الساعة الثانية ظهرا واسأل عن أبي مجيد وقل له تكلمتُ مع ياسر وهو أرسلني لعندك وأنا سأخبره عنك، وهو سيشرح لك التفاصيل إذا وافق أن تعمل هنا.

وصلتُ إلى البيت في الخامسة صباحا كانت أمي كالعادة تنتظرني، قلتُ لها عملت اليوم لوقتٍ متأخر لأنه غدا عطلة، وغير ذلك سنشتري سريرا لأخي جوان قبل الشتاء يا أمي، احتضنتني وأحسستُ بدموعها تنهمرعلي، مسحتُ عينيها بيدي وقلت:

- لا تقلقي يا أمي ستفرج في يومٍ من الأيام، سأذهبُ ظهرا إلى الفندق وإن حصلتُ على عمل لا تقلقي إن لم أعد للصباح.
- أي عمل؟ سألتني. شرحت لها ماذا حصل معي فاستغربت:
- وماذا عن دراستك يا بُني؟
- لا تقلقي يا أمي، أعدُكِ بأن تجديني كما تريدين، فقط ادعي لي.

استيقظتُ ظهرا وتوجهتُ فوراً إلى الفندق، دخلتُ وسألتُ عن "أبي مجيد" فأشار لي موظف الاستقبال نحو رجل بدين، شارباه باهتان من كثرة التدخين، كان يجلس على طاولة مع أربعة أشخاص، ذهبتُ إليه وقلتُ له:

- مرحبا، أنا سعيد الكردي، تكلمتُ مع ياسر قصبجي صباحا وقلتُ له أنني أبحثُ عن عمل... قاطعني على الفور وقال لي:
- هل تستطيع حمل كل هذه الكراسي ووضعها على الطاولة، وأن تشطف الأرض بالماء والصابون، وبعدها تنزلها من جديد ثم تبدّل شراشف الطاولات، وتضع

على رأس كل كرسي فنجان وملعقة وسكرية سكر في منتصف الطاولة، ومن ثم تقوم بتجهيز طاولة البوفيه المخصصة لوضع أطباق الطعام؟ قلتُ له:

- أنا أبحث عن عمل ولا يهمني طبيعته، كل ما يهمني كم سيكون راتبي؟قال:
- راتبك 3000 ليرة في الشهر، عطلة يوم واحد في الأسبوع.
- أنا موافق. قلتُ له. قال لي:
- إذًا ابدأ اليوم، ياسر هنا الليلة اطلب منه ما تريد حتى تتعلم.

مضيتُ إلى المرسم فيما بعد، جلستُ على طاولتي وبدأتُ بالرسم، مع الخطوط كنتُ أنحني، للحظة أحسستُ أن القلم إصبعي السادس، مع كل خط أرسمه كنتُ أرسم في مخيلتي حياتي المستقبلية، وكيف أحمل أمي وإخوتي إلى بر الأمان، قررتُ التوقف عن المدرسة لأنني لا أستطيع إتمام عملين مع الدراسة، وسوف أتقدم لامتحاناتٍ حرّة في المستقبل، خمسةُ آلاف مع مسح زجاج السيارات في الوقت الحالي أفضل من ألفين، قليلًا من الصبر ربما أحظى بفرصة جديدة أفضل من هنا.

أنهيتُ عملي في المرسم وتوجهت إلى الفندق، كان ياسر في قاعة الاستقبال، أرشدني أين تقع مواد التنظيف وكل ما يلزمني من مواد وأدوات، بدأتُ برفع الكراسي على الطاولات والذي بلغ عددهم 120 كرسيا، كنستُ الأرض ولممتُ القمامة ووضعتها في الحاوية، ثم بدأتُ بوضعِ الماء والمواد على الأرض وبدأتُ بغسل الأرض، في كل لحظة كنتُ أقول في نفسي هذا رزقي أنا وإخوتي ويجب أن أقوم بعملي على أكمل وجه رغم التعب والنعاس اللذان بدأا يتسللان إلى جسدي، أنهيتُ حفلة التنظيف كما قالوا لي، في الساعة الرابعة والنصف جاء شخصٌ تبدو عليه علامات مدير أو رئيس قسم، ودون أن ينتبه لوجودي بدأ يتفقد الأرض والطاولات والكراسي، أسارير وجهه

انفرجتْ دلالة على سعادته حين بدأ يتفقد الزوايا وكل الأماكن، وحين انتبه لوجودي اتجه نحوي بينما كنتُ أضع الكؤوس فوق الطاولة، تقدمَ باتجاهي وقال:

- أنا المدير الصباحي. قلتُ:
- أنا سعيد الكردي الموظف الجديد، قال لي:
- وجدتُ اسمك في دفتر الدوام، أتمنى أن تكون سعيداً في العمل معنا يا سعيد

كان لطيفاً جدا، استأذنتُ منه بالانصراف باعتبار أنه انتهى دوامي ومضيتُ في طريقي إلى البيت بعد يومٍ شاق، في طريقي اشتريتُ خبزا من فرنٍ يقعُ في منطقة باب أنطاكية، وصلتُ إلى البيت منهكا، دخلتُ البيت، كانت جدتي تجلسُ في أرض الدار رغم النسمة الصباحية الباردة، سألتني:

- كيف عملي لأول مرة؟ استغربت وقلتُ لها:
- وما هي مناسبة السؤال يا جدتي؟ قالت:
- أحتاجُ بعض النقود كي أشتري أدوية. قلتُ لها:
- انتظري راتبك حينها اشتري ما تريدين.

بدأت ترطنُ كالعادة، لم أهتم لما قالته ومضيتُ إلى غرفة إخوتي كي أمتّع نظري بهم، وجدتُ الكل نائمين، قبّلتهم وذهبتُ إلى غرفة أمي لأطمئن عليها وعلى أخي جميل الجميل، فتحتُ الباب كانت أمي جالسةً على الكرسي وكأنها كانت تتكلم مع نفسها، أغلب الظن أنها كانت تدعو الله، ابتسمتْ، قبّلتُ رأسها ومضيت إلى أخي جميل، جميل لم يكن أخي من أمي لكن كان هناك شيء ما يشعرني بأنه أخي من أمي، وأننا سنبني مستقبلًا جميلًا مثله في المستقبل، كان هذا الشعور ينتابني حين كنتُ أرنو إليه رغم فارق

العمر بيننا، طلبتُ من أمي أن توقظني في الثانية عشرة كي أذهب إلى المرسم، ولربما كان هناك وقت لأمسح زجاج السيارات في طريقي.

هكذا كانت تمضي أيامي، أستيقظ في الثانية عشرة ظهرا من النوم، أتناول أي شيء وإلى العمل أمضي، أمسحُ زجاج السيارات في طريقي إلى المرسم، وفي طريقي من المرسم إلى الفندق مساءً كذلك الأمر، في الصباح وقت عودتي أشتري الخبز من الفرن وأعود إلى البيت منهكاً، في العطل كنتُ أقابل خلود ونذهب للتسوق أنا وأمي، الديون بدأت تنقص، أختي جيهان وأخي جوان منتظمان في دراستهما، السعادةُ ما زالتْ زائرة شحيحَة الحضورِ على بيتنا، توقفتْ أمي عن العمل في تنظيف البيوت بناءً على رغبتي، واكتفت بأعمال الخياطة في المنزل، أخي فرهاد يعمل يومين ويتوقف إلى أن يجد عملاً يناسبه، من أي ناحية تناسبه لم أكن أعلم! هو نفسه لم يكن يعلم، اعتاد على التسكع هنا وهناك، لكن الحقيقة الواضحة أنه لا يستطيع مفارقة شريهان حبيبته، دائماً عيونه متجهة إلى منزلهم، لربما خرجت وابتسمت له قليلًا.

في يومٍ من أيام الشتاء الباردة، وبينما كنتُ أمشي إلى الفندق من المرسم توقفت سيارة سوداء بجانبي ومن النافذة الخلفية صرخت فتاة: "هذا هو"، نظرتُ من حولي فلم أجد أحدا غيري، إذًا أنا المقصود، ترّجل ثلاثةُ رجال منها وبدؤوا بضربي، وأنا أقسم لهم أني كنتُ في العمل ولا أدري عمَّن يبحثون، وهم لا يهتمون لتوسلاتي وآهاتي، بدأ الدم ينزفُ مني وهم لا يتوقفون عن ركلي ولَطْمي، توقفوا وقالوا للفتاة هل يكفي هذا؟

ترجلت الفتاة من السيارة واقتربت مني وبدأت تتفحص ملامح وجهي، وأنا من شدة الألم حاولتُ أن أسألها ماذا فعلت، لكن فمي كان مليئا بالدم، وأحسستُ بثقلٍ في

فكي، لكن الفتاة أطالت النظر وكأنها تريد أن تتأكد من شيء، أخرجت منديلا من حقيبتها ومسحت وجهي وقالت للرجال: "ليس هو" تباً . بعد أن زلزلوا جسدي وأنهكوه اكتشفت الغلط. أمرتهم بنقلي إلى السيارة، حملني الرجال الثلاثة إلى السيارة وأخذوني معهم وأنا لا أقدر على الكلام من شدة الألم، ركنت السيارة أمام قصرٍ خارج المدينة، أنزلوني من السيارة وأدخلوني إلى القصر، أمرتْ أحدهم بأن يجلب لي طبيبا أو ممرضا ليفحصني ويضّمد جراحي، وبدأت الفتاة تعتذر مني عما حصل، وتشرح لي أن السبب هو الشبه الكبير بيني وبين شابٍ آخر سرق منها حقيبتها قبل ساعتين واتجه حينها إلى بناء قريب من المنطقة التي ضربوني فيها، لهذا السبب حصل سوء الفهم:

- وأنا أعتذر منك بشدة وأطلب منك أن تسامحنا، وبالمقابل سأعطيك مبلغا من المال مقابل الذي حصل، لم أكن أستطيع الكلام، أومأتُ برأسي فقط، دخل شخصٌ ومعه حقيبة وبدأ يفحص رأسي وأماكن جسدي المدمية، بدأ ينظف جراحي ويضّمدها، حين انتهى قال لي:
- سأكتب لك بعض المسكنات التي ستساعد على تخفيف الألم، وعُدْ إلي بعد أسبوع لأفحص لك جراحك.

سألتني الفتاة أين أسكن كي يوصلوني إلى البيت، فأشرتُ لها بأني أريد قلما وورقة كي أكتب عنواني .كتبت لهم العنوان فقالت لشابين كانا يقفان بجانبها أن يحملاني إلى السيارة كي يوصلاني، حين دخلنا البيت، كان الكل نائمين، أمي لا تنتظرني لأنه في هذا الوقت كان يجب علي أن أكون في الفندق، جلسنا في أرض الدار أنا والفتاة ومرافقيها، سألتني الفتاة إن كانت تستطيع أن تتكلم مع والدي، قلتُ لها والدي ميت، سألت عن أمي قلتُ لها نائمة ولا داعي بأن تتكلمي معها لربما لن تحتمل

الموقف وتقوم بشتمك قالت: "حسنا، اطلب مني ما تريد"، لم أُجِبها، الآلام سوف ترغمني على الجلوس في المنزل عدة أيام أو أسابيع حتى أشفى على ما يبدو، مدَّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت مبلغا من المال وقالت لي خذ، هذه ثلاثة آلاف ليرة، وإن كنت تريد أكثر قل لي، لم أُجِبها أيضا، بدأتْ بالبكاء، انتابتني حالةٌ غريبةٌ وسيطر عليّ اليأس، مسحتْ الفتاة دموعي وقالت لاتبكِ، أنا السبب وسوف أعوضك عن ذلك، قلتُ لها لدي أربعة إخوة وأنا المسؤول عنهم، في النهار أعمل في مرسم، وفي الليل في الفندق، وما بين هذا وذاك أمسحُ زجاج السيارات على مفارق الطرق لأطعم إخوتي كي لا أحيجهم إلى شيء، سوف أرغم على الجلوس في البيت لعدة أيام أو أسابيع إلى أن يتعافى جسدي، مدَّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت على ما يبدو كل ما كانت تحمله، قالت هذا كل مامعي الآن تسعة آلاف، وإن كنت تريد أكثر فسأرسل لك في الصباح مع السائق، قلت لها هذا يكفي عوضاً عن الأيام التي سأجلس فيها في المنزل وربما أبقى بدون عمل جراء فعلتك هذه، اعتذرتْ مني وأعطتني المال مع ورقةٍ مكتوبٌ فيها عنوانها، وقالت:

- إذا احتجتَ شيئا لا تتردد في زيارتي، أنا اسمي "ميساء القاضي" ابنة التاجر عمار القاضي وأتمنى منك زيارة حين تتعافى.

أدارت ظهرها وذهبت تجهشُ بالبكاء على ما حصل.

بقيتُ جالسا في أرض الدار أفكر في سري بالذي حصل والذي سوف يحصل، وكيف سأخبرالفندق والمرسم بما حصل؟

استيقظت جدتي وبدأت بالصراخ حين وجدتني مضمد الرأس واليد والقدمين استيقظت أمي وأختي على صراخها، ركض الجميع نحوي ليطمئنوا عليّ ويسألوني عما

حصل، فأخبرتهم بالحقيقة كاملةً، جدتي ابتسمت حين سمعت بالتسعة آلاف، ورأتْ المال على الطاولة بجانبي، أمي وأختي بدأتا بالبكاء والدعاء على من ضربني وهم يمسحون على رأسي وجبيني. طلبتُ من أمي أن تساعدني في الذهاب إلى غرفتي كي أنام، وأوصيتها أن توقظني ظهرا لأذهب وأعتذر من مديريّ الفندق والمرسم.

ما حدث كانت فرصة لأن أستمتع بالجلوس مع إخوتي وأمي، وبأن ألتقي مع خلود في طريقها إلى المدرسة رغم صعوبة الحركة التي كنت أعاني منها .

منذُ أعوام وأنا وخلود لا جديد بيننا، لا هي تبوح لي بحبها ولا أنا أستطيع ذلك، نلتقي، تغمرنا السعادة، نمشي نركض نرقص نغني لكن لا هي تقول لي أحبك ولا أنا أنطقها، كان هناك شيء يغلق فمي حين أبادر في قولها أو يقاطعنا شخصٌ ما.

بالإضافة إلى ذلك كانت فرصة جيدة لأفكر كيف أُخرج عائلتي من الذي نحن فيه وكيف لي أن أبدأ بمشروعٍ صغير أحصل فيه على واردٍ يكفيني ويغنيني عن العمل بين مسح زجاج السيارات والمرسم والفندق، أصبحتُ متمكناً من الرسم لدرجة أني أفكر في العمل الخاص بمفردي، ربما مرسم صغير أو مع إحدى الشركات التجارية في الدعاية والإعلان. قررتُ بيني وبين نفسي أن أحارب وأنحت الصخر بأظافري ولن أستثني شيئا في حياتي إن كان المال وراءه ، إلا السرقة لن أُقدم عليها.

بعد أن تعافيتُ عدتُ إلى حياتي السابقة في المرسم والفندق ومسح زجاج السيارات.

في إحدى أيام عطلتي كنتُ أتمشى في ساحة الجامعة بعد أن قابلتُ أحد أصدقائي هناك، تذكرتُ مدام سميرة باعتبار أني كنتُ قريباً من بيتها، توجهتُ إلى بيتها لرغبتي في التعرف عليها أكثر، ولربما عن طريقها أجد عملًا أفضل.

وصلتُ إلى بيتها طرقتُ الباب فتحت لي فتاة في العشرينيات من عمرها يبدو أنها تعمل في المنزل، فسألتها عن المدام سميرة، قالت "هي هنا من أقول لها؟".

- سعيد الكردي

دخلتْ الفتاة وسمعتها تقول:

- مدام هناك شاب يقف على الباب اسمه سعيد الكردي يريد مقابلتك.
- من سعيد الكردي؟ سألت مدام. قالت:
- لا أدري، لكنه شابٌ وسيم ويبدو أنه يعرفك جيدا لأنه لم يسألني إن كان هذا بيت المدام سميرة أم لا، وأنا لم أقابله من قبل هنا.

قالت: "دعيه يدخل ربما أتذكره".

حين دخلت توقفت المدام سميرة وقالت أهلا بابن أختي، تذكرتني وحضنتني وهي نصف عارية، كانت تلبس ملابس النوم التي كنت أراها في الأفلام المصرية، ورائحة عطرها تحوم في المكان، طلبت من الفتاة أن تحضر لنا قهوة، بدأتْ تتكلم معي وكأنها فتاة في العشرين من عمرها وهي تتمايل وتتكلم بلسانٍ أعوج تظنُ أنها تزداد جمالاً هكذا، وفي الحقيقة كانت تجاعيد وجهها وصدرها توحي بأنها تجاوزت الخمسين من عمرها، أحضرت الفتاة القهوة وطلبت منها المدام أن ترحل فليس هناك المزيد من العمل في البيت، ذهبت الفتاة وبقينا أنا وهي لوحدنا نتكلم عن عملي في الفندق والمرسم وكيف توقفت عن الدراسة لأكمل عملي وأصل إلى هدفي، لم أخبرها عن حقيقتي المريرة، عزة نفسي منعتني من أن أقول لها بأني فقير، وأبي ميت، وأني أمسح زجاج السيارات لأحصل على المال. قالت لي:

- ألا تشعر بالتعب في العملين؟ قلتُ لها:

- أنا في بداية شبابي ولا بد لي أن أكتشف الطريق بنفسي لأكمل حياتي كما أريد، لكن أريد أن أسألك أن كنتِ تستطيعين مساعدتي في الحصول على عملٍ أفضل؟

قالت: "لمَّ لا تعمل عندي؟"

- وماذا سأعمل عندك؟ قالت:
- هنا في المنزل. قلتُ:
- لا أبحث عن أعمال التنظيف في المنازل. كي لا تقطع عمل الفتاة، لربما حالتها أصعبْ من حالتي، أنا أبحثُ عن فرصة أستطيع بناء مستقبلي دون اللجوء لوالدي أو للدراسة. قالت:
- ومن قال لك أنك سوف تقوم بأعمال التنظيف أو ما شابه؟
- أنتِ تقولين هنا في المنزل، وفي منزلك ليس هناك دكان أو مكتب لأعمل فيه.
- لا، فقط تأتي كل يوم ونجلس وتسليني ونتحدث، وحين أذهب إلى مكان تذهب معي بصفتك مرافقا لي، وأصدقائي يعرفون جيدا أني أبحث عن شخص من هذا القبيل لأنني تعرضتُ للسرقة مرتين وقت عودتي مساءً، وسأعطيك ما تأخذه من المرسم والفندق.

قلتُ في سري هذا لا يكفي، لأنها لا تعرف أن مسح الزجاج يجلب لي على الأقل 2000 ليرة في الشهر، قلتُ لها:

- لا، أنا أبحث عن عملٍ أفضل في الراتب وليس في نفس الراتب.قالت:
- هنا لن ترسم ولن تجهز صالة الافطار كما تفعل في الفندق، كل ما في الأمر نجلس ونتحدث مثل الآن وفي بعض الأحيان نذهب للتسوق أو نتناول العشاء في الخارج أو نقوم بزيارة إحدى صديقاتي. قلتُ لها:

- لا، أنا مصمم على الراتب الأفضل، وعملي كما تقولين لا يستحق الأكثر. قالت:
- سأقوم بتجربتك في مهمة، إن نجحت فيها سأدفع لك أكثر.
- ماهي المهمة؟ سألتها. قالت:
- بعد قليلٍ سوف تعرف. وسألتني هل جربت شرب الكحول من قبل؟
- شربت مرتين بيرة، حين كنا في الحي أيام رأس السنة. قالت:
- ما رأيك أن نشرب سوياً الليلة؟ وسأدفع لك أجرة اليوم حتى لو لم تعمل عندي.
- لا بأس، رغم أني لا أعرف ما الذي سيحصل.

قهقهت بصوتٍ عالٍ وقالت لن يحصل شيء غير الدوران من حول قلعة حلب وأنت جالسٌ هنا. فهمت أنها تقصد الثمالة.

- ما رأيك أن تقوم بجولة في الحديقة في الخارج والغرف إلى أن أقوم بتجهيز الطاولة لسهرتنا، وإن أردت هناك أشرطة فيديو تستطيع متابعة أي فيلم تريده، وأضافت وهي تخرج من الصالون هناك أفلام خاصة للأطفال إن أحببت متابعة أحدها.

أفلام خاصة للأطفال؟ ماذا تقصد يا ترى؟

لم أبال، وراقت لي فكرة بأن أقوم بجولةٍ في أرجاءِ المنزلِ، دخلتُ غرفةً كان يبدوأنها غرفة عمل، طاولة كبيرة ومكتبة فيها عشرات الكتب وستائر بحجم الجدار خلف الطاولة، خمسة كراس من الجلد سوداء اللون، فرو ثعلب مُعلَّق على الجدار، لوحات تشكيلية، بار صغير بجانب المكتبة، وكل شيء كان مرتبا يبدو أنه مكتب مسؤول أو تاجر من الدرجة الأولى. دخلتُ الغرفة الثانية، يبدو غرفة إحدى بناتها من الألوان

الوردية على السرير والجدار، وبجانب السرير بيانو كبير وفوق البيانو كَمَانٌ يبدو عليه أنه قطعة أنتِيكا وليس للعزف.

فتحت باب الحمّام، كان أجمل من حمّامات الفندق، البانيو الدائري في المنتصف كأسين بأعناق طويلة و شموع منتشرة على أطراف البانيو، الحمّام أكبر من مساحة غرفتين في بيتي. شعرتُ بالإحباط وأنا أتنقل بين الغرف، امرأة وحيدة في هذا المنزل الكبير، ونحن سبعة أشخاص في ثلاث غرف، البرد في الشتاء ينخر عظامنا، والحرارة في الصيف تهلك طاقتنا.هي في المطبخ تقوم بتجهيز شيءٍ ما، ولكي لا أشعر بالإحباط أكثر قررتُ متابعة فيلم إلى أن تأتي، وأنا أبحث بين الأفلام وجدتُ فيلما خاصا للأطفال.

وضعتُ الشريط في الفيديو وجلست، كان فيلم بورنو، فتاة في العشرينيات من عمرها مع شاب على الشاطئ، كانت المرة الأولى التي أشاهد فيلما من هذا النوع، تذكرتُ لحظتها شاب في حينا اسمه ماجد لديه غرفة على الشارع، كان يستأجر فيديو وأفلام من إحدى المحلات في الأعياد ويقوم بوضع التلفاز في غرفته ويدخل الأطفال مقابل خمس ليرات ليشاهدوا الفيلم، حين يقوم البطل بتقبيل البطلة كنا نردد بصوتٍ واحد عيدها يا ماجد، القُبلة في التلفاز كانت تجعلنا نسهر الليل كله ونحن نتخيل ما الذي حصل بعد انتهاء الفيلم، هل البطل يمارس الجنس مع البطلة حين ينتهون؟

حتى في المسلسلات حين كنا نشاهد ممثلة حامل كنا نتساءل هل الممثل نام معها وأصبحت حامل؟

الممنوع مرغوب ومرعوب في الشرق، ترعرعنا على أن الجنس حرام وليس عادة تحصل عندما نكبر، ومن الحرام استراق النظر أو المصافحة والكثير من العادات السلبية التي

انغرستْ فينا منذ الصغر، ظنا من المجتمع بهذه الطريقة أنهم يقومون بالحفاظ عليه أخلاقيا!

وأنا أتابع الفيلم شعرتُ بأنني سأقوم بتقبيل الفتاة من الشاشة، أصبح عضوي قريبا من الطيران لشدة انتصابه، بهزةٍ واحدة سيقذف، وأنا أتابع الفيلم بلهفة وشوق ماذا سيحصل، فجأة دخلتْ سميرة وهي نصف عارية، فستان أحمر طويل فتحة الصدر تنتهي عند الصّرة وفتحة الفستان من الأسفل تكاد تُظهر ما بين ساقيها، حين نظرتُ إلى وجهها ارتخى عضوي وكأنه اختفى، قالت:

- ماذا تتابع أيها الأزعر؟ قلتُ لها:
- وجدتُ هذا الشريط مكتوبٌ عليه خاص بالأطفال وظننتُ أنه كذلك. قالت:
- لا بأس الحقني.

مشيتُ وراءها وأنا أفكر بالفتاة في الفيلم. تحسرت وقلت آه لو كانت الفتاة في الفيلم التي على الشاطئ بدلاً منها! دخلنا غرفة النوم وفتحت خزانة، أخرجت منها منشفة وبيجامة وقالتْ لي: "ما رأيك بأن تأخذ حماماً إلى أن أرتب الطاولة؟"

راقتْ لي الفكرة، لأول مرة سوف أستحم في البانيو، دخلتُ الحمّام، ملأتُ البانيو بالماء وتمددتُ مسترخياً أعيد ما رأيت في الفيلم وأنا أمارس العادة السرية، قذف عضوي السائلَ المنوي بعد أقل من دقيقتين، خرجتُ من الحمّام وتوجهت إلى الصالون وتفاجأتُ بالمنظر الذي رأيته!

شموع، زجاجات كحول أشكالها توحي بأنها من الطراز الفاخر، لم أحصِ عدد الصحون على الطاولة، لحوم مقددة، أجبان مشكلة، موالح، فواكه، وأشياء لم أعرفها، كانت أم هدى جالسة بانتظاري. قالت:

- أهلا بك سعيد الجميل، تفضل ماذا تحب أن تشرب؟ قلتُ:
- أنا لا أعرف أكثر من البيرة.
- ما رأيك أن تشرب معي ويسكي بلاك؟ أنا أحبه كثيرا مع الثلج.
- كما تريدين، ويسكي ويسكي

فتحتْ الزجاجة وأفرغتْ قليلا منه في قدحين، بعد أن وضعت الثلج فيهما، أعطتني قدحا ورفعت قدحها للأعلى ومدَّت يدها وقالت: "بصحتك".

- بصحتك

في البداية كان طعمها مريرا لكن فيما بعد أحسستُ بثقلٍ في رأسي وراق لي الطعم وبدأتُ أسكب وأشرب ولم أفكر ما الذي سيحصل فيما بعد وهي تروي لي كيف تعرفتْ على زوجها وماذا كان يحصل بينهما حين يمارسان الجنس كل شهرين أو ثلاثة مرة، لأن زوجها كان لديه برود، وأكملت شبابها معه مرغمة ولم ينطفئ نار جسدها منه، توقفت وسألتني: "هل تحب الرقص؟" قلتُ:

- لم أجرب ذلك لكن يبدو أنها فكرة جيدة

وضعت كاسيتا في آلة التسجيل وقالت إنه لمطرب إسباني اسمه خوليو.

توقفت وبدأنا بالرقص، هي تزيد عن الخمسين من عمرها وأنا في بداية شبابي، لكن الويسكي أخمد هذه الفكرة من رأسي وأشعل فكرة كيف سيكون شكلها وهي عارية؟ بدأت تقبّلني من عنقي وتهمس لي كم أنت جميل يا سعيد، من اللحظة الأولى التي قابلتك فيها في الموقف قلتُ في نفسي هذا، والحمدلله الليلة عدت إلي، حين ذهبت في المرة الماضية كنتُ خائفة ألا آراك ثانيةً.

لم أكترث لكلامها، كل ما كان يخطر في بالي أن أستفيد منها بالقدر المستطاع ولو كان الثمن أن أطفئ لهيب جسدها بعضوي، أريد أن أعيش كما يجب وليس كما خلقت، أريد أن أصبح قويا، أريد أن أنتقم من مصطفى والآنسة فهيمة وشكري قنواتي وكل من قام بإهانتي واستغل ضعفي، أريدُ أن أوقف حمّام الدموع من أعين إخوتي وأمي، أريد أن أركل كل بابٍ أغلقه الناس في وجهي، ولا يهمني إن كان الثمن أن أطفئ لهيب هذه العجوز بعضوي، سأقوم بتمزيق رحمها إن كان هذا سيسعدها.

طلبت مني أن نجلس على الصوفا ونكمل الشرب، جلسنا ونحن نصف مخمورين نتمايل على بعضنا البعض نسرق قُبلة محرّمة من شابٍ مسكين وامرأة في الخمسين، هكذا إلى أن بدأت تفرك عضوي بيديها وترتشف من شفتي القبلات، بدأ عضوي ينتصب رغم أني مارست العادة السرية قبل قليل، لأنه عادةً لا ينتصب بعد العادة السرية بوقتٍ قصير، بدأتُ ألتهم شفتيها وعنقها وأتلذذُ في سماع آهاتها، هذه المرة الأولى التي سأمارس الجنس الكامل بلا خوف من أحد كما حصل معي حين كنتُ مع حنان في السطح، أمسكت بيدي وأدخلتني غرفة النوم تمددت على السرير وطلبت مني أن أطفئ الأنوار. سألتها وما السبب في ذلك؟

قالت: "في المرة الأولى فقط أريد ذلك.." قلت لها:

- لا، أريد أن أسبح في جسدك وأنا أدقق النظر في كل المسامات فيه.

خلعتُ بيجامتي إلى أن أصبحتُ عارياً وتمددتُ فوقها، كانت تتأوه مثل حنان يبدو أن آهات الشباب لم تنطفئ جيدا كما قالت لي، بدأتُ أتلذذ في كل شيء أقوم به، ولأن سائلي المنوي قُذِفَ مني قبل قليل كان من الصعب أن يقذف بسرعة في المرة الثانية، أنهكتُ جسدها وأنا أمارس الجنس معها وهي تتغزل بي وبعضوي ورجولتي، رغم

كِبر سنها إلا أنها كانت تجلس فوق عضوي كما لو أنها شابة. كان تقدم العمر فقط في شكلها، بدأتْ تشعر بالتعب وتقول لي اقذف سائلك في رحمي، اقذفه بسرعة، لم أعد أحتمل! توسلاتها كانت تسعدني، أعطتني الطاقة في سري، امرأة شعرت بالارهاق معي، بعد وقتٍ طويل تجاوز الساعة قُذِفَ سائلي وأخيراً، كم كانت لحظة جميلة، أول مرة أقذفه داخل امرأة، وهي كانت ترتجف وتقول لي أحبك أحبك أحبك.

تمددتُ بجانبها وهي تمسك بيدي وتقبلني وتقول لي منذُ أن خلقت لم أشعر بما شعرت الليلة، وكأنني خلقت الليلة، طلبت مني أن أبقى عندها لكنني رفضت، لا أريد لأمي أن تقلق عليّ، أعدك في الأسبوع القادم سوف أبقى عندك. قالت:

- لن تأتي إلى الأسبوع القادم. قلتُ لها:
- لدي يوم واحد عطلة في الأسبوع. قالت:
- أرجوك أوقف عن العمل وابقَ معي وسأعطيك عشرة آلاف ليرة في الشهر.

كان عرضاً مغرياً جدا، عشرة آلاف في بيت كهذا مع طعام وشراب وجنس أفضل من عملي في الفندق والمرسم والشارع ولا أجني غير سبعة أو ثمانية آلاف وافقت. قلتُ لها :

- سأتي أليك غدا بعد أن أذهب إلى المرسم والفندق وأخبرهم بأني سأتوقف عن العمل.

6

بدأتُ في العمل عند مدام سميرة، لم يكن هناك وقتٌ محدد لذهابي إلى بيتها أو وقت عودتي إلى البيت، بدأت طلباتي تنهال عليها كالنهر الجارف غير الراتب الشهري، في كل مرة كنا نتسوق فيها كنتُ أشتري كل ما أريد من ألبسة وأحذية وعطورات، صار اسمي في الحي سعيد بيك، ربما كانوا يستهزئون، لكن هذا لا يهم، المهم أني انتهيت من جبال الديون التي أثقلت كاهلنا وجعلت أمي تتوقف عن كل الأعمال، قمتُ بتسجيل أختي في مدرسة خاصة، ملأتُ البيت بالأثاث الجديد ورممتُ جدرانه والأبواب، جدتي مازالت كما هي إن لم تجد شيئا يشغلها كانت تخلق المشاكل من تحت أظافرها.

مدام سميرة كانت سعيدة جدا معي، كل يوم أذهبُ إليها نشرب قهوتنا ونحنُ نمجُ سجائر فاخرة، بعدها نخرج للتسوق أو لتناول الطعام في الخارج أو نقوم بزيارة إحدى صديقاتها، كل أصدقائها كانوا يعرفونني وأغلبهم كانوا يحاولون التكلم معي على انفراد لكنني كنتُ أرفض، لأنني لا أريد أن أخسرها، كانت كريمة معي في كل شيء وأنا لم أقصر في عملي معها في السرير، كل يوم كنا نمارس الجنس وفي بعض الأحيان مرتين في اليوم. أخبرتُ أمي أني أعمل مرافقا لامرأة عجوز غنية ووحيدة، كانت تطلب مني التعرف عليها لكن كنتُ أقول أنها مشغولة جدا بين الشركات والمحلات التي تملكها.

في بعض الأحيان حين تزورها إحدى صديقاتها كنتُ أذهب إلى غرفة المكتب بعد أن جهزتها لتصبح مرسما صغيرا لي، كنتُ أرسم بالألوان الزيتية لوحات لصديقاتها مقابل مبلغٍ مالي، يعود السعر إلى الوضع المادي لصاحبة اللوحة، إن كانت غنية جدًا أطلب منها مبلغا لم أحلم في عمري أن أجنيه في عملٍ آخر، بدأ اسمي يتداول بين نساء الطبقة

المخملية، يمدحون وسامتي وجمال أعمالي، كنتُ أشعر في نظرات الجميع أنهن يعرفن بالذي يحصل بيني وبينها.

مضت أعوام ونحن على ما نحن عليه، أستيقظُ ظهرا من النوم أشرب قهوتي مع أمي أذهب إليها أكمل يومي معها بين التسوق أو الخروج للترفيه أو في الزيارات.

في إحدى الأيام وأنا في طريقي إلى بيتها أوقفني شخصٌ ببدلةً رسمية يقف أمام سيارة سوداء وقال لي: "تفضل معي لأن المدام تطلب منك زيارتها".

- من المدام؟ سألته. قال لي:
- حين تصل سوف تعرف.

فتح الباب الخلفي وقال لي اركب من فضلك بلهجةٍ آمرة، صعدتُ والخوف يمتلكني بعض الشيء، كان الطريق مملًا إلى أن وصلنا إلى فيلا في منطقة الراشدين في حلب الجديدة، ترجلتُ من السيارة والخوف يسيطر علي، من تكون المدام التي أرسلت في طلبي يا ترى؟

دخلت الفيلا مع الشاب وقال لي اجلس هنا إلى أن أخبر المدام بوصولك.

صعد الشاب إلى الطابق الأعلى ودخل إحدى الغرف، جلستُ أتمعن في ديكور الفيلا الفائق الخيال، لم أكن أتوقع أن أدخل فيلا كهذه في حياتي، على ما يبدو صاحبة الفيلا لها المقدرة أن تشتري مدينة حلب بأكملها، حراس ينتشرون في أرجاء الفيلا من الخارج، كل واحد منهم مع كلب حراسة ببدلة ونظارات سوداء تخفي نظراتهم إلى أين تتوجه، بعد دقائق سمعتُ صوت طرطقات ملفتة للسمع، وجهتُ نظري إلى مكان الصوت كانت السيدة خولة، زوجة أهم تجار الأقمشة في حلب وفي الشرق الأوسط كما قالت لي المدام سميرة حين التقينا بها في حفلٍ أقيم في فندق شهباء الشام بمناسبة

تخرج إحدى بنات صديقاتها من كلية الطب، امرأة من اللواتي تتباهين بجمالهن، لا تفوّت مناسبة إلا ويكون لها وجود لتتباهى بفساتينها الفاخرة المخيطة من الأقمشة الطبيعيّة من مصادرٍ حيوانية أو نباتية بما في ذلك الألياف الموجودة في جلد الحيوانات وشرانق دود القز بالإضافة إلى بذور النباتات وأوراقها وسيقانها، عطورها الفرنسية التي تضعها تكفي لتلقي بمن يشمها من الرجال أرضاً دون حراك، في حفلة الفندق حين قابلتها ومددتُ يدي لمصافحتها بقيت رائحة عطرها تفوح من يدي لعدة أيام، حين وصلت إليّ مدَّت يدها لتصافحني مرةً أخرى وقالت لي:

- أهلاً سعيد، على ما يبدو أنك تذكرتني.
- طبعاً تذكرتك، ومن الآن إلى الأسبوع القادم ستبقى رائحة عطرك عالقة بيدي كما حصل معي في المرة الماضية.ضحكت وهي متباهية بما سمعت.
- هل راقت لك رائحة العطر؟
- ومن لايروق له هذا العطر الذي يلقي بمن يشمه أرضاً دون حراك!

ضحكت بصوتٍ عال وقالت:

- أنا متزوجة وإن سمع زوجي هذا الغزل من شاب مثلك لربما تكون العواقب غير سارة.
- أين زوجك الآن؟ وأعتذر عن السؤال إن كان ليس من حقي.
- زوجي في المعمل أغلب الأوقات، ومسافر أغلب الأيام.
- هل عرفت لماذا أنت هنا؟ سألتني.
- لايهم لماذا أنا هنا، المهم حصل لي الشرف أنني تعرفت على حضرتك عن قرب. ضحكت بتبخترٍ، وقالت:

- أنا أريدك في عمل.
- ماهو العمل الذي سأقوم به يا ترى؟

قالت أريد أن أقوم بتغيير الديكور في الفيلا، وأريد أن أشاركك بعض الأفكار التي راودتني قبل التحدث مع مهندس ديكور، باعتبار أنك فنّان، وصادفتُ بعضا من أعمالك الجميلة في منازل بعض الأصدقاء.

بدأت تشرح لي فكرتها عن الديكور الجديد، ووضعتْ أمامي بعض الصور الملتقطة في مجلات خاصة بالديكورات، وأين تفكر بالتحديد وضع لوحات من أعمالي وعن الألوان التي تحبها وحجمها، اقترحتُ عليها أن أقوم أنا بطرح أماكن اللوحات وحجمها والمهندس يساعدني في ذلك، ثم بدأنا بجولة في الفيلا بين الغرف والطابق الأعلى ونتحدث عن أماكن اللوحات، قالت لي لايهم السعر بقدر ما يهمني جمال اللوحة، أريد لوحات حين يأتي أحدهم لزيارتي أن يتكلم عنها للأبد، فقلتُ لها أنا فنان بسيط في بداية طريقي ولا أظن أني أستطيع أن أصل للمستوى الذي تنشديه، قالت "بل تستطيع، كل ما عليك فعله أن تسجل لي ما تريد من مواد وألوان ثمينة وأنا سأحضرها معي من فرنسا في الأسبوع القادم ".

قمتُ بتسجيل كل مايلزمني وأكثر، على أمل أن يزيد شيئا من هذه الألوان أرسم بها لوحة لخلود. قلت لها هل لديكِ مانع إن عرفت المدام سميرة بالأمر؟

قالت "طبعا لا".

جلستُ أفكرُ في السعر الذي سأطلبُه منها على رسم اللوحات، والذي بلغ عددها عشرين لوحة، يجب أن يكون المبلغ بمثابة "حبل إعدام السكري"، أعدم بها المنزل

الذي كبرت فيه وأنتقل من هناك، لكن قبل الإعدام يجب أن أنتقم من مصطفى والآنسة فهيمة، وبعد ذلك يمكنني أن أُفكر في مكان إقامتي الجديد.

قررتُ أن أطلب منها نصف مليون ليرة في البداية، نصف مليون من امرأة تتكلم عن عطرٍ سعره خمسة آلاف ليرة اشترته من باريس سعرٌ معقول، لكن في البداية سوف أرفض تحديد السعر، لربما دفعت أكثر؟

حين عادت كان هناك ظرفٌ أبيض في يدها، أعطتني إياه وهي تقول:

- في داخل الظرف مائة ألف ليرة عربون اللوحات، والباقي حين تنتهي، لكن كم تريد على جميع اللوحات؟ قلتُ لها:
- الملكة تقرر وأنا أنفذ. قالت:
- أنا لا أستطيع تقدير السعر، أنت من سيحدد ولست أنا. قلتُ لها:
- لا، السعر الذي تقدره الملكة هو السعر المناسب. صمتت للحظة وقالت:
- سأدفع لك على جميع اللوحات نصف مليون ليرة، هل هذا يناسبك؟

قلتُ في داخلي على ما يبدو أنها قرأت أفكاري.

- كما قلتُ لكِ سيدتي، الملكة تقرر وما عليَّ إلا الموافقة.

ابتسمت وسألتني إذا كان هناك مكانٌ خاص للرسم، فقُلتُ لها حالياً لا أملك مكانا ثابتا للرسم، لكن لا تقلقي سأتدبر الأمر؟ قالت:

- هناك غرفة خلف الفيلا مخصصة لأعمال الصيانة، سأطلبُ من العمال تجهيزها لتعمل فيها، وسيكون ذلك أفضل بالنسبة لي كي أستمتع بمراقبتك وأنت ترسم.
- كما تريدين سيدتي وصاحبة قراري.

ضحكت هذه المرة بشكلٍ غريب حين قلتُ لها صاحبة قراري، وأضافت:

- كم أنت جميل يا سعيد!
- لا يا سيدتي أنا لستُ جميلا، بل أحاول فقط ألّا أفقدَ توازني حين أتكلم مع سيدة مثلك، فتنطلق الكلمات مني عنوةً لأحاول التركيز.

حاولتُ أن أكون لطيفاً أكثر من اللازم، لربما كان مفتاح الفرج الذي سيُنهي مشقةَ حياتي، مدام سميرة لا تدفع مبالغ كبيرة، لذلك يجب أن أبحث عن مصدر رزقٍ أفضل كي أصعد.

لقاؤنا في الأسبوع القادم يوم الخميس الساعة الثانية ظهرا، اتفقنا.

عدتُ إلى بيت المدام سميرة حين انتهيت من السيدة خولة وأخبرتها بكل ما حصل معي فسألتني:

- متى ستتقابل إن كنت سترسم لها عشرين لوحة هناك؟
- سأذهب إليها في الصباح أرسم بضع ساعات وأعود إليكِ.

أحسستُ أنها لا تريد مني الذهاب إلى هناك، ربما ظنَّت أن المدام خولة ستسرقني منها وأبقى معها، المدام سميرة ليست مثل المدام خولة، المدام خولة يبدو عليها أنها تملك ثروةً فَاحِشَةً وهي أجمل من المدام سميرة.

- أخبرها أنك سوف ترسم في مرسمك.
- مرسمي؟ أنا لا أملك مرسما خاصا، كل ما في الأمر أنني محتل زاوية صغيرة في مكتب بيتك أرسم فيها.
- من اليوم سيكون لك مرسمٌ خاص.
- كيف وأين؟

- أملكُ صالةً كبيرةً في الجميلية كانت مخصصة لبيع الملابس، لكن شركة الملابس أعلنت إفلاسها منذُ فترة، والصالة مغلقة، سنذهب الآن لترى الصالة وستتكلم مع مهندس الديكور ليجهز لك الصالة كما تريد وسنعمل مناصفةً بدل الإيجار، مارأيك؟
- معقول! أتسألِيني عن رأي؟ هذا حلمٌ من أحلامي.

احتضنتها والفرحة تغمرني، لأنه على ما يبدو أن حبل مشنقة الحزن والفقر أصبح جاهزاً لإعدام كل أيام التعاسة في تاريخ حياتي.

ذهبنا إلى الجميلية، وقفتُ أمام صالة بجانب مكتب شكري القنواتي الذي كنتُ أعمل عنده وقالت لي هذه هي الصالة، حين دخلنا أصابني الذهول للمساحة الكبيرة، هل من المعقول أن هذا المكان سيصبح مرسما خاصا بي؟ لا أصدق!

شكرا يا إلهي.

تحدثنا عن شكل المرسم كيف يجب أن يكون وأنا غير مصدق بأنني صاحب المرسم هذا، والأجمل من كل هذا سيكون لدي فرصة كي أنتقم من شكري القنواتي الذي سيصبح جاري في المستقبل القريب.

ذهبنا بعدها إلى مكتب مهندس الديكور وتكلمنا معه عن الصالة واتفقنا على موعد في اليوم التالي في الصالة لنتكلم على أرض الواقع، بعدها طلبت مني أن أخبر أهلي بأنني سأسافر لمدة أسبوع معها لنذهب في اجازة صغيرة إلى بيروت لنشتري بعض مواد الرسم والأقمشة.

عدتُ إلى البيت لأخبر أمي بما حصل معي وقلتُ لها بأننا سنذهب إلى بيروت لنشتري مواد الرسم للمرسم، احتضنتني أمي وهي تبتسم وتقول لي ستفرج إن شاء الله يا بُني،

كانت لحظة سعيدة وعلى ما أظن أنها كانت المرة الأولى في حياتنا التي رسمت ابتسامة حقيقية على وجوهنا.

ودَّعْتُ أمي وإخوتي وعدتُ إلى المدام سميرة لأبقى في بيتها تلك الليلة وفي الصباح نلتقي بالمهندس في الصالة ونمضي إلى بيروت بعدها. في طريقي حين خرجتُ من البيت التقيت بخلود بالصدفة، توقفنا وتحدثنا قليلًا، أبدت إعجابها بشكلي الجديد وقالت ظننتُ أنك شخصٌ آخر غير الذي أعرفه لكنه يشبهك، امتلكتني رغبة عارمة بأن أحتضنها وأقول لها أحبك، تكلمنا عن دراستها في الجامعة بعد أن أصبحت طالبة في كلية الآداب وافترقنا مثل كل مرة، نبتسم لبعضنا ونفترق وأعيننا لا تريد أن نفترق. صباح اليوم التالي التقينا بالمهندس في الصالة واتفقنا ومضينا إلى بيروت، وصلنا مساءً إلى هناك، كانت المرة الأولى التي أسافرُ فيها، السعادةُ تغمرني وآلاف الأشياء والأفكار في مخيلتي، إنها الخطوة الأكبر والأهم التي سأخطوها في حياتي، يجب أن أضع قدمي على مكانٍ صلب، كي أبني مستقبلي ومستقبل إخوتي كما يجب. وصلنا إلى الفندق في ساحة "ساسين" في الأشرفية، كانت هناك فتاة في الريسبشن جمالها يفوق الخيال، رغم ارتفاع كونتوار الريسبشن إلا أن طولها كان أعلى من الكونتوار بشكلٍ ملحوظ، قرأت اسمها على اللوحة الاسمية المعلقة على صدرها كريستين، كريستين لم يغب نظرها عني، تحدق في عينيّ وهي تملأ البيانات المطلوبة، كان واضحا علينا أننا وقعنا في شِباك بعضنا، حين انتهت أعطتني مفاتيح غرفتين وأضافت إقامة سعيدة أتمناها لكما ، لاحظت المدام سميرة نظرات الموظفة الغريبة وقالت لي انها قبيحة جدا، وحاولت أن تمنعني من النظر إليها ووقفت أمامي، كريستين لم تغب عن مخيلتي كل الليل رغم التعب من طريق السفر، أحسستُ بخيطٍ قوي يربطني بهذه الفتاة، كانت المرة الأولى

في حياتي التي أصادف فيها أنثى تجعلني أبدو كئيباً، هي مسيحية وأنا مسلم، هي مقيمة في بيروت وأنا في حلب، لكن جمالها أحدث في داخلي شيئا يفوق الهيام، كل تفاصيل وجهها وعينيها لم تفارقني، لكن فرقي الجغرافيا والدين كانا شاسعين، تُرى هل سيتبددا في يومٍ من الأيام إن تكلمتُ معها؟

تقصدتُ بأن أنزل إلى الريسبشن مرةً أخرى لربما ألتقي بها، حين وصلتُ كان هناك شابٌ آخر يقف خلف طاولة الريسيبشن، سألني إذا كان يستطيع مساعدتي في شيء فقلتُ له كنتُ أتمنى لو أتأكد من تاريخ المغادرة لأنني لا أذكر بالضبط متى قلت للموظفة كريستين ذلك، دققَّ في الأوراق وأخبرني بأنه يوم الأربعاء القادم الساعة 12 ظهرا. شكرته ثم سألته عن كريستين، فسألني ما إن بدر منها شيء . فقلتُ له:

- لا كنتُ فقط أريد أن أشكرها على حسن الاستقبال وأتمنى أن تخبر إدارة الفندق بذلك.

أخبرني أن دوامها غدا سيكون في تمام الواحدة ظهرا فشكرته ثانيةً وعدتُ إلى غرفتي. تمددت في سريري لكن النوم لم يعرف لعيني طريقا، منذ أن قابلتُ كريستين، أتقلب في السرير محاولاً النوم، لكن دون جدوى، تناثرت خيوط الشمس الذهبية من بين الستائر معلنة بداية يومٍ جديد، طرق أحدهم الباب وحين فتحت كانت المدام سميرة واقفة تبتسم، كم تمنيت أن تكون كريستين هي التي تطرق الباب.

- صباح الخير حبيبي سعيد
- صباح النور مدام
- ما بك؟
- لا شيء، لم أستطع النوم، شعرتُ بصداعٍ قوي منتصف الليل ولم أستطع

النوم بعدها.

- ولماذا لم تأتِ إلى غرفتي لتخبرني؟ لكُنَّا طلبنا من الفندق بعض الأدوية.
- لا داعي لذلك، كل ما في الأمر صداع وسيزول.
- وكيف أصبحت الآن؟
- لا بأس، أفضل.
- ما رأيك بأن نذهب لتناول الفطور، وبعدها نذهب للتسوق؟
- حسنا، سألحق بك إلى المطعم.

دخلتُ إلى الغرفة وشعور اللاشيء يمتلكني، كل ما أريده أن ألتقي بكريستين من جديد، أريد أن أترجم اللغز الذي امتلكني حين التقيتُ بها، عليَّ أن أسرع في الذهاب كي نعود إلى الفندق قبل انتهاء دوام كريستين.

تناولنا فطورنا وانطلقنا للتسوق وشراء حاجيات المرسم. بيروت مدينة ساحرة حرة وودودة، فاتنة، تحبس الأنفاس. تنقَّلنا بين الأسواق والأحياء واشترينا أغلب المستلزمات، تناولنا الغداء في مطعمٍ بالقرب من صخرة الروشة، طوال الوقت لم أكن معها، كانت تسألني دائماً إن تحسنت أم لا، لأنني كنتُ شاردَ الذهن، كل تفكيري في كريستين، أريد العودة إلى الفندق لأتنفس من نسيمٍ يحمل من أنفاسها.

عدنا إلى الفندق لنأخذ قسطاً من الراحة قبل المساء، لأن المدام سميرة طلبت مني أن نذهب سوياً إلى بيت إحدى صديقاتها في منطقة أنطلياس، حين دخلنا بهو الفندق لم أجد كريستين في الريسبشن، أحسستُ بإحساس الغربة الذي كانوا يتكلمون عنه، أحسستُ أن قدميّ لم تعد تحملاني، أين هي يا ترى؟

لا أريد أن أسأل الموظفين كي لا تنتبه مدام سميرة إلى ذلك، صعدنا إلى غرفنا ولم أشعر بشيء غير الفراغ، أين هي؟ كان يجب أن تكون هنا، ما الذي حصل؟

ليت الأمنيات تتحقق بدون عناء، من السهل حينها أن نعيش بدون شقاء.

خيطٌ قوي يصلني بها، أنا أعرفها وأشعر أننا تقابلنا، لكن أين؟

أشعر بها وكأنها قربي، تلامسني، تلتف من حولي مثل الأسوارة في المعصم. ألتفت في كل الاتجاهات فلا أجدها، كريستين... أيُّ خيطٍ هذا الذي يصلني بكِ؟

أي دمعةٍ حائرة تقف في مقلتي منذُ الأمس، تخنقني ولا تنزل، تبعثرني أشلاءً ولا تنزل، ترميني نحو المجهول ولا تنزل، كم يجب عليَّ أن أنتظر لألتقي بها من جديد؟

ساعةً؟ ساعتين؟

يوما؟ يومين؟

لا لن أحتمل أكثر، لململتُ نفسي المكسورة وذهبتُ إلى الريسبشن أسأل عنها.

قال لي الموظف:

- اتصلت هذا الصباح وقالت أنها مريضة لا تستطيع القدوم.
- إلى متى؟ سألتُه.
- طلبت أجازة يومين، وربما أكثر، يبدو أنها أصابتها إنفلونزا قوية.

اللعنة عليَّ الانتظار يومين كي ألتقي بها من جديد؟

دائماً الحظ التعيس يلاحقني، لا تكتمل ألوان السرور في داخلي، دائماً هناك لونٌ ينقصني ولا تكتمل صورة فرحي.

في المساء قصدنا بيت صديقة المدام سميرة في أنطلياس، نزلنا من التاكسي أمام بناءٍ بجانبِ كنيسةٍ.

صعدنا إلى الطابق الأول في البناء وطرقنا الباب، وكانت المفاجأة!!

كانت كريستين من فتحت الباب، تلعثمتْ الكلماتُ في فمي ولم تخرج مني غير كلمة "مرحبا"، وأنا أحدق في عينيها الذابلتين، كان المرض قد أنهك شكلها. ردت ببطء:

- أهلا.
- هل هنا بيت مدام أنطوانيت؟ سألت المدام سميرة.
- نعم أهلا بكم، قالت كريستين.
- هل هي موجودة؟
- نعم هي هنا، ونادت: "أمي، لدينا ضيوف يطلبونك". ثم قالت: "تفضلوا".

ونحن نحدق في أعين بعضنا البعض.

حين دخلنا كانت المدام أنطوانيت متجهة نحو الباب لترى من القادم، حين رأت المدام سميرة احتضنتها مرحبةً بها، كانتا صديقتين في جامعة بيروت قبل خمسة وعشرين سنة تقريبا كما قالت لي مدام سميرة.

جلسنا في الصالون الذي كان شكله أقرب إلى كنيسة، صليب كبير معلق على الجدار، شموع، رائحة بخور، أيقونات للسيد المسيح والسيدة مريم العذراء والقديس "مار شربل".

سعادتي بلقاء كريستين أنستني التكلم مع والدتها وأن أُعرفها بنفسي، بينما كانت هي مشغولةً مع مدام سميرة والحديث عن أيام الدراسة، استأذنتُ منهم في الخروج إلى

الشرفة للتدخين لربما تتيح لي الفرصة هناك التكلم مع كريستين، لحقتني كريستين إلى الشرفة مع صحن السجائر، حاولتُ الإسراع في الحديث وعدم التباطؤ لأنني متأكد أن مدام سميرة تذكرتْ من هي وكيف كانت تحدق في عينيها حين وصلنا الفندق، قلتُ لها:

- أشعر بأنني أعرفك منذ زمنٍ بعيد ومن اللحظة الأولى أحسستُ أن هناك خيطا قويا يربطني بك، أنا آسف لجرأتي، لكن منذ الأمس وصورتك لم تفارقني. قالت:
- وأنا أيضا، الأمس حين عدتُ إلى البيت من العمل شعرتُ بحرارة عالية جدا لم أستطع رفع رأسي من شدة التعب، لا أعرف مالذي حصل بي حين قابلتك امتلكني نفس الشعور كأننا تقابلنا من قبل.

دخلت المدام سميرة وأفسدتْ حديثنا، كان الشكُّ يلاحقها بأن هناك شيئا سيحصل بيني وبين كريستين. تظاهرت المدام سميرة أنها لا تذكر أين قابلتْ كريستين حين قالت لها:

- على ما أظن أننا تقابلنا لكن أين؟ ردت كريستين على الفور:
- في الفندق مدام، فأنا أعمل في الفندق الذي تقيمان فيه، لكن اعذريني لم أكن أعرف أنك صديقة والدتي.
- لا بأس، كيف العمل في الفندق؟ سألتها مدام سميرة.
- لا بأس، جاوبتها كريستين. قالت مدام سميرة:
- لكن على ما أظن أنه ليس بعملٍ مناسب لابنة الخوري المعروف ميشيل؟

جاوبتها كريستين:

- وما العمل الذي يناسب شابة مثلي لم تكمل تعليمها؟ ردت مدام:
- راهبة مثلاً.
- الراهبة لا تتزوج وأنا أريد أن أكمل حياتي بشكلٍ طبيعي.

أحسستُ من نبرة صوت كريستين رغم المرض أن الحديث مع المدام سميرة أزعجها بعض الشيء، طلبتُ منها كأسا من الماء، لأتمكن من تخفيف حدة الغيرة التي ارتسمت على وجه المدام سميرة. قلتُ لها:

- دعينا نذهب باكراً إلى الفندق ليبقى لدينا وقتٌ لنشرب نخب بيروت. قالت:
- لمَ لا، فأنا اشتقت إليك.

عدنا إلى الصالون وأكملنا سهرتنا وعيون المدام سميرة لا تفارق تحركات كريستين. سألت والدة كريستين عن طبيعة زيارتنا لبيروت وعن العلاقة التي تربطنا أنا والمدام سميرة فقالت لها:

- سعيد فنان تشكيلي، والآن نحن بصدد أن نفتتح مرسما معا، لدي صالة كبيرة في حلب لا أستغلها فقررتُ أن نتشارك هذا المشروع سويا، سنجعلها مرسما له وسنتقاسم الأرباح؛ لذلك جئنا إلى بيروت لنشتري المواد اللازمة للمرسم. قاطعتها كريستين:
- إذًا سوف ترسمني قبل رحيلك.
- لمَ لا؟ جاوبتها. لي الشرف أن أرسم فتاة بجمالك. قاطعتنا المدام سميرة وقالت:
- ليس لدينا وقتٌ كاف يا سعيد، علينا العودة يوم الأربعاء أي بعد أربعة أيام.

- وهل سترفضين طلب ابنة صديقتك؟ قلتُ لها في مكر. في جلستين أو ثلاثة سأنتهي من رسمها.

المدام سميرة كانت تعرف جيدا أنه حين أرسم لا أحبذ وجود أحدٍ بجانبي غير الذي أرسمه، شعور المراقب لا أحبه. أكره أن يقف أحدٌ خلفي وهو يراقبني.

قالت المدام أنطوانيت:

- إنها فرصة جيدة لألتقي بكِ يا سميرة، سعيد وكريستين سيجلسان في غرفة كريستين ونحن نشرب قهوتنا في الصالون هنا.

أحسستُ بالدخان يتصاعد من المدام سميرة، واتفقنا أن نأتي في اليوم التالي مساءً لنبدأ الرسم. ابتسامة كريستين كانت واضحة مثل الشمس، وغضب المدام سميرة أيضا.. كانت تحاول أن تبعدني بقدر الامكان عن الفتيات والنساء، أنا لا أنكر فضلها عليّ، لكن سيأتي يوم وننفصل وأكمل حياتي بشكلٍ طبيعي، فهي قد تجاوزت الخمسين من عمرها وأنا شاب، علاقتي معها مبنية على المصالح ليس أكثر، وأنا لا أنكر ذلك، لكن أريد أن أعيش حياتي كما يجب، علاقتنا مبنية على أساسٍ خاطئٍ، والأساس الخاطئ في البناء سيأتي يوم ويهدم كل ما بني فوقه.

اتفقنا أن نعود في اليوم التالي حين ننتهي من جولتنا في السوق، عدنا إلى الفندق، طوال الطريق والمدام سميرة لم تنطق بحرفٍ واحدٍ، كان يبدو عدم رضاها بالموضوع، لكنني لن أغير فكرتي عن رسم كريستين حتى لو كان ذلك سيغضبها، حين وصلنا إلى الفندق طلبتُ منها أن توصي بزجاجة شامبانيا إلى غرفتها إلى أن آخذ حماما وبعدها سأذهب إليها، فردت: "أني متعبة وأريد النوم".

- لا لستِ مُتعبة، لكن فكرة رسم كريستين لم تناسبك، لذلك أنتِ غاضبة ولم تحدثيني طوال الطريق.
- نعم لم ترق لي فكرة رسمها.
- لماذا، هل تخافين أن تسرقني منك؟
- لمَ لا، هي جميلةٌ، وشابة في مقتبل العمر، وكان واضحا أنها أغرمت بك.
- سيأتي يوم وأختار شريكة لحياتي، حينها يجب أن تتقبلي ذلك، أنا لا أنكر بأنني سعيدٌ جدًا معك، لكن لا داعي لشرح ما لا يُراد شرحه، كريستين مسيحية وأنا مسلم، هي في بيروت وأنا في حلب، وإن تعمقت علاقتنا لن تطول، لأننا بكل بساطة مختلفين من الناحية الاجتماعية، بالإضافة إلى ذلك كيف سأرمم الفوارق بيني وبينها إن كانت طبيعة الديانة والجغرافيا تحدث فجوة لا ترمم؟
- وهل أفهم من حديثك أنك لم تحبها؟ سألتني مدام.
- أيُّ حبٍّ تتكلمين عنه؟، نحن لم نلتقِ سوى مرتين!
- لكن نظراتها كانت غير طبيعية.
- وليكن، أنا لا أستطيع ترميم فجوتي الديانة والجغرافيا.
- يا حبيبي يا سعيد، أنت شابٌ ذكيٌ وواعٍ، أدرك ذلك جيدا، سأنتظرك في الغرفة لا تتأخر علي.

كم هي متعبة الحياة حين تجد شخصا ما تحبه وتشعر بأنه يلامس قلبك ولا تستطيع أن تغادر من يحبك، كريستين لامست قلبي وأنا الآن أفكر بأن أقيم في بيروت لأبقى

بقربها، والمدام سميرة تحبني بشكلٍ جنوني ولا تريدني أن أبتعد عنها، كيف سأقنعها بأني لغيت فكرة المرسم وسأهرب منها؟

كريستين، لامست قلبي بشغف، والخيط الذي يربطني بها غيرَ ملموسٍ وغير مفهومٍ. لكن ما هو؟ ساعدني يا إلهي. أين أنا وإخوتي وأمي، وأين المدام سميرة وكريستين، كم سأحمل في طرق الحياة الوعرة؟

إن بقيتُ مع المدام سميرة سيمر العمر لأجني المال منها سأدفعُ في المقابل شبابي، وإن تركتها فربما الرسم لن يساعدني كما تساعدني هي، ولكن كيف لي أن أجتاز حدود الدين والجغرافيا مع كريستين؟

كل هذه الأفكار أتتني وأنا أستحم، وحين عدتُ إلى رشدي أدركتُ بأنني أستحم بملابسي، نسيتُ أن أضعَ ثيابي قبل الدخول إلى الحمّام، تباً.

ذهبتُ إلى غرفة المدام سميرة بعد أن بدلتُ ملابسي، وجدتُ الغرفة مليئة بالشموع وزجاجة الشامبانيا والموالح واللحوم المقددة والأجبان على الطاولة بدأنا ليلتنا بالرقص ونحن نتمايل، كريستين لا تفارق مخيلتي كيف لي أن أُشفى من الذي أنا فيه؟ أكملنا ليلتنا كالمعتاد، رقص، خمر، جنس ونوم، تباً للحياة!

حين أنتهي من رسم كريستين سأقرر ما هي طبيعة العلاقة بيننا، وكيف يجب أن تكون، لكن لا أستطيعُ أن أتخيل نفسي وأنا أغادر بيروت لا ... ولا أستطيعُ أن أتخيلَ نفسي بعيدا عن أمي وفرهاد وجيهان وجوان وجميل، هم إخوتي وبوصلتي في هذه الحياة، لو كل ما نحلم به يتحقق بسهولة لكانت الحياة مثل اليقطينة الفارغة، ساعدني يا إلهي وحقق لي أمنيتي أن أبقى بجانب كريستين وعائلتي، ساعدني.

مساء اليوم التالي ذهبنا إلى منزل كريستين، اللوحة والألوان والأدوات معي لنبدأ الرسم، دخلنا إلى الصالون شربنا قهوتنا، بعدها استأذنَّا من المدام سميرة ووالدتها لنبدأ، طلبتُ منها في الغرفة أن أرى قمصانها لأحدد أيًّا منها يليق بها أكثر للوحة، فتحت خزانتها وبدأتُ بالبحث، أضعُ القميص على صدرِها وأغمض عيني قليلا لأتخيل اللون، وقعتْ عيني على بروتيل لونه أحمر وطلبتُ منها أن تلبسه، لم أتوقع أن تلبسه أمامي حين شلحتْ القميص وبقيتْ بحمالة الصدر فقط، لويتُ عنقي قليلا لأتاكد من أنها فعلت ذلك أم خُيِّل إليّ ذلك وبالفعل بقيت بحمالة الصدر وهي تحاول لبس البروتيل، طلبتُ منها أن تسرع قبل أن تأتي والدتها أو المدام سميرة، قالت: "لا تقلق".

- لكن أريدك أن تجربي البروتيل بدون حمالة صدر ومع الحمالة، لأتأكد أيا منهما يليق أكثر للوحة.

حين مدَّتْ يدها للخلف لتفتح حمالة الصدر ارتعشتْ ركبتاي وشعرتُ بحرارةٍ وأحسستُ أن لوني تغير إلى الأحمر، هل تريد أن تتعرى أمامي من المرة الأولى؟

إنها لحظة جميلة، لكن ماذا عن والدتها والمدام سميرة؟

إن دخل أيٌّ منهما علينا في هذه اللحظة فلا أعرف ما الذي سيحدث؟ لا أريد أن يحدثَ شيءٌ بيننا، لبست البروتيل وهي تراقبني، دققتُ النظر إليها كان صدرُها أجملَ بدون حمالة.

- حسنا، ابقي هكذا، أين تضعين المكياج؟ سألتها. قالت:
- هناك على الطاولة بجانب سريري.

بدأتُ بالبحث عن ألوان مكياج تناسب لون البروتيل الذي تلبسه، طلبتُ منها أن تضع القليل من اللون الأحمر الفاتح على شفتيها وقليلا من الكحل في عينيها إلى أن أثبّت اللوحة وأجهز الألوان والفراشي والسكاكين للرسم، وطلبتُ منها أيضا أن تضع موسيقى هادئة لنبدأ، جلستْ على الكرسي فوضعتُ خلفها غطاءً بلونٍ أسود ليناسب بياض بشرتها ولون البروتيل الأحمر، أشعلتُ لمبة كانت على طاولتها ووجهتها إلى رأسها لتظهر الإضاءة من الجانب فقط، حين انتهيتُ من الإضاءة والخلفية وأصبح كل شيءٍ جاهزا، بدأتُ بوضع الألوان على البالته وانطلقتُ في رسم الخطوط الأولى، كريستين الأنثى الوحيدة التي جعلتني أكتئبُ حين رأيتُها لأول مرة، وأنا أرسم كانت تحدثني عن حياتها وعملها، وكيف أن والدها يطلب منها أن تكون " قَنْدَلَفْت[3]" أو راهبة في الكنيسة وهي لا تريد، وهي مستاءةٌ جدا من التشدد الذي يمارسه والدها عليها وعلى والدتها. سألتها عن إيمانها فقالت أنها في المنتصف، لا تحب الإلحاد، لأنه من الغباء أن يُقال أن هذا الكون من صُنع الطبيعة وليس من صنع الله، ولكنها لا تحب التشدد في الدين، فالإيمان في القلب، تذكرت أمي حين كانت تقول لي الإيمان في القلب. سألتني عني وعن بعض تفاصيل حياتي، كان يبدو أن كريستين تورطت في إعجابها بي، لكن كبرياءها أو الاختلاف الديني أو خوفها من والدها منعها من الإفصاح، لأنها قالت لي أثناء حديثنا، "إن أبي يحلم بأن يزوجني برجلٍ تقيٍّ مثله في المستقبل" . أتعلم ماذا يمنعني من الحب؟ سألتني.

قلتُ لا.. قالت:

[3] قَنْدَلَفْت: خادم كنيسة

- أبحث عن شخص يجعلني أبكي حين يبتعد عني، مثل الطفل حين تغادره أمه.
- وإلى الآن لم تقابلي شخصا جعلكِ تبكين؟ سألتها.

وقفت ثم سارت نحوي وقالت:

- نعم هناك شخص جعلني أبكي.

وحدَّقت في عينيّ عن قرب، والدموع بدأت تتلألأ في مقلتيها.

- ومن هو؟ سألتها. قالت:
- أنت.
- أنا!
- نعم أنت، حين دخلت بهو الفندق لأول مرة شعرتُ بأنني أريد أن أحتضنك وأقبل عينيك لجمالهما.
- شعرت بأنكِ كنتِ تراقبينني بشدة حين كنتِ تملئين البيانات، وأنا شعرتُ بشعورٍ غريبٍ أيضا، لدرجة أني لم أنم الليل كله وأنا أحاول أن أنسى، ذهبتُ إلى الاستقبال فلم أجدك حينها، كنتُ أدرك أنكِ لستِ هناك، لكن هذا لم يمنعني لأذهب إلى مكان لقائنا الأول.
- وأنا عدتُ إلى البيت وإحساسٌ غريبٌ امتلكني، لم آت إلى العمل كي لا ألتقي بك مجدداً وأتورط بك أكثر، شعرتُ بحرارةٍ عاليةٍ وكانت حجتي أكبر حينها، لا أريدُ أن أتورطَ في حبِّ شخصٍ بعيدٍ عني، الحب جميل لكنه متعب .

- كلماتك هذه جعلت الفجوة أكبر، بصراحة منذ لحظة لقائي بك وأنا أفكر في البقاء هنا في بيروت، لكن شعرتُ بأننا خطين متوازيين لعدة أسباب كبيرة ومهمة ويصعب علينا أن نلتقي.
- ماهي هذه الأسباب؟ سألتني وبدأت عيناها تدمعان.
- أنا مسؤول عن أمي وإخوتي، بالإضافة إلى ذلك لا أملك شيئا غير عملي مع المدام سميرة، غير هذا كله أنا مسلم وأنتِ مسيحية، أنا في حلب وأنتِ في بيروت، باختصار نحنُ خطان متوازيان. صمتت للحظة ثم قالت:
- ولِمَ لا تقيم هنا في بيروت؟ على الأقل سنكون قريبين من بعض، أُطلب من المدام سميرة أن تفتحَ مرسماً هنا في بيروت، لأن أمي قالت أنها فاحشةُ الثراءِ وتستطيعُ ذلك، وأحضر أمك وإخوتك إلى هنا، بيروت مدينة ساحرة وأنا أحببتك يا سعيد. لا أستطيعُ أن أتخيلَ حياتي بدونك.
- وأنا أيضا، أشعرُ بأن طيفَك يحومُ حولي في كلِّ الاتجاهات، لكن أمي وإخوتي ...! أنا لا أبني طريقي بدونهم، هم بوصلتي في هذه الحياة إلى أن يكبروا ويصبحوا أقوياء، لا أستطيعُ أن أبتعدَ عنهم، كل ما أستطيعُ أن أعدَك به هو أني سآتي إلى زيارتك كلما استطعتُ إلى ذلك سبيلا، ربما كل شهر أو شهرين مرة على الأقل، هذا الذي أستطيعُ أن أعدَك به الآن، لكن فيما بعد لا أدري، ولا أستطيعُ أن أعدكِ بالزواج أو ما شابه، أنا لا أستطيع أن أصبح مسيحياً وأنتِ لا تستطيعين أن تصبحي مسلمة، لأنني فهمت من حديثك أن والدك متشددٌ ويحلمُ بعريسٍ متدين لك، تقيّ مثله، وهذا يعني لا زواج لنا.

لفَّنا شعورٌ غريبٌ وحزين، توقفتُ عن الرسم، الصمتُ والكآبة هما سيدا الموقف، طلبتُ منها أن تصنع لنا قهوة لنُكمل الرسم، وبينما كانت في المطبخ دخلت المدام سميرة لترى إلى أين وصَلتُ، حين نظرتْ إلى اللوحة تنهدتْ بقوةٍ وقالت:

- كل هذا الوقت ولم تنتهِ من الملامح بعد؟ قلتُ لها:
- الإضاءة أتعبتني بعض الشيء حتى استطعت الحصولَ على إضاءةٍ مناسبة.
- على هذه الحال لن تنتهي منها قبل مغادرتنا؟

أحسستُ في نبرة كلامها شيئا من الشك، فقلتُ:

- لا تقلقي، اليوم سأنتهي من الملامح، خلال ساعتين أو ثلاثة، وغدا أضعُ الألوان، وبعد غدٍ سأضعُ اللمسات الأخيرة، وقبل رحيلنا بيوم إن لم تنتهِ سأحاول أن آتي لوحدي إلى هنا بينما أنتِ ترتبين الحقائب استعدادا لرحيلنا.

هزت رأسها بقبولٍ مبدئيٍّ، وكان يبدو أنها ليست راضية تماما.

دخلت كريستين والقهوة بيدِها، فقالت لها المدام سميرة:

- هذا البروتيل احمرارهُ فاقع، ولا أظن أنه سيناسب وجهك في اللوحة.
- سعيد من اختار لي هذا البروتيل ليرسمني به، ردت كريستين.

حين قالت هذا زمَّت مدام سميرة شفتيها مغتاظة، ثم أردفتْ ساخرةً:

- لم أكن أعرف أن ذوقك في اختيار الألوان هكذا يا سعيد، هناك أشخاص رسمتَهم وطلبتَ منهم أن يلبسوا ألواناً أجمل، الأحمر لا يليق بك صدقيني.

قالت هذا وذهبت إلى الصالون.

جلست كريستين على الكرسي بعد أن طلبتُ منها ذلك لأنتهيَ من رسم الملامح والتفاصيل على الأقل.

بعد ساعتين تقريبا كانت الخطوط الأولى لتفاصيل الوجه جاهزةً لوضع الألوان، طلبتُ منها أن نتوقف ونكمل في اليوم التالي، فالوقت قد تأخر.

في طريقنا إلى الفندق، بقيت المدام سميرة صامتة، لكن النار كانت تقدحُ من عينيها، دخلنا الفندق فأمسكت يدها وسألتها:

- لماذا أنتِ غاضبة؟
- أين لبستْ البروتيل كريستين؟، سألتني. قلتُ لها:
- لا أدري، أنا طلبتُ منها أن تريني ما لديها واخترت لها ذاك البروتيل وذهبت، على ما يبدو لبستهُ في الغرفة الثانية. قالت:
- لا، لم تخرج إلا وقت أن ذهبتْ إلى المطبخ لتصنع القهوة، كنتُ أنتظرُ أن تخرجَ لآتي وأرى ماذا فعلت، وهل من المعقول أن تأخذ ساعة بأكملها لتجد الإضاءة المناسبة؟
- اسمعي مدام، أنا لا أكذب، وإن كانت الغيرةُ تلتفُ من حولك فافعلي ما يحلو لك، وخذي القرار الذي يناسبك ويريحك.

قلتُ هذا وأدرتُ ظهري ذاهباً إلى غرفتي غيرَ مكترثٍ بها.

جلستُ في سريري أفكر بكريستين وبالذي حصل معي، كنتُ أقول إن المال يجلب السعادة، لكنَّ هذا غيرُ صحيحٍ، كان من الأفضلِ لو فكرتُ بالمال كَوسيلةٍ وليس كَهدف، وسيلة أعيش فيها بقناعة بالذي أجنيه، ربما كان العمل في المرسم ومسح زجاج السيارات متعب، لكن المال الذي كنتُ أجنيه هناك كان طعمه ألذ، ماذا فعلتُ بنفسي يا إلهي؟ امرأة تجاوزتْ الخمسين من عمرها بقليلٍ من المال تظنُ أنها امتلكتني للأبد، الأفكار حامتْ في رأسي مثل الزوبعة. خرجتُ من الفندق للتمشِّي وربما الهواء

الطلق سيساعدني على التركيز بشكلٍ أفضل، المدام سميرة بدون مرسم تظن أنها امتلكتني للأبد، إذًا كيف سيصبح الأمر حين نفتح المرسم؟

ربما ستسيطر عليها فكرة أنني عقار تمتلكه، ولا أحد يستطيع أن يأخذني منها، يجب ألا أعود إلى الفندق قبل أن أضع النقاط على الحروف، تمشيتُ باتجاه أنطلياس لربما وصلتُ إلى منزل كريستين وتنفستُ من نسيمٍ يحمل أنفاسها.

كان يجب أن أبقى في عملي في الفندق ومسح الزجاج والمرسم إلى أن أجد فرصةً أخرى غير الجريمة التي ارتكبتها في علاقتي مع المدام سميرة، يُخلق الإنسان ليكافح وليس ليَخْدَعَ، تباً للمال الذي جعلني أخدعُ إنسانةً مختلةً عقلياً من أجل حفنةِ مال، سأبقى في عملي معها في المرسم بدون جنس، وإن لم تقبل فهذا شأنُها وهي حرة في قرارها، سأخبرها هذا في الصباح قبل أن نكمل طريقنا في شراء المواد والمستلزمات.

اقتربتُ من منزل كريستين، خيطٌ أحمر توهج من بعيد في السماء مُنْذِراً ببدايةِ يومٍ جديد.

يومٌ جديد ولا شيء جديد في قراري بخصوص كريستين، سأرى قرار المدام سميرة حين أخبرها أنه لا جنس بيننا بعد اليوم، وإن أرادت أن نعمل في المرسم مناصفةً سأوافق، حينها سأبقى في حلب وآتي لزيارة كريستين كل شهرين مرة.

حين وصلتُ إلى الحي الذي تسكن فيه كريستين لمحتُ شخصا جالسا في شرفتها، ومن البعيد يبدو أنها هي، كم سأكون سعيدا لو كانت هي، ربما سأخبرها بالحقيقة أو تستطيع أن تطرد غمامة الحزن من فوقي، حين اقتربتُ كانت هي جالسة في الشرفة تمجُ لفافةَ تَبْغِها ويبدو عليها الارهاق، حين رأتني ابتسمتْ وأشارت لي بأن أنتظرها في الأسفل، بعد قليل جاءتْ وهي بالبروتيل الذي اخترته لها لتلبسه في الأمس.

- صباح الخير.
- صباح الخير.
- ماذا تفعل هنا؟ سألتني.
- لم أستطع النوم وخرجتُ لأتمشى قليلا، واخترت وجهة بيتكم، قلتُ في نفسي إن وصلتُ ولم أتعب سيكون جميلاً أن أتنفس نسيما يحملُ من أنفاسك، وإن تعبتُ قبل أن أصل سأكتفي بالنية وأعود إلى الفندق، لكن من حسن حظي أنني لم أتعب ووجدتك، قلت لها: هل استيقظتِ باكراً أم لم تنامي؟
- لا لم أنم، بعد أن ذهبتَ، دخلتُ إلى غرفتي لألجأ إلى النوم هرباً من التفكير بك بصراحة، لكن أدركتُ أن الوسادة لها عملٌ آخر غير أن تحمل رؤوسنا المنهكة وقت النوم، وهو أن تحاصرك من كل الجهات كي لا تهرب ممن تحب، نظرتُ إلى اللوحة في منتصفِ الغرفة بعد أن أنهكتني الوسادة ولم تمتص التفكير بك من مخيلتي، بدأتُ أتمعن فيها وقلتُ في نفسي هل هو حرامٌ أن تكون أنت هنا وليس لوحتك؟ أنت لم تخرج مني يا سعيد، منذ اللحظة الأولى وأنا أحاول أن أطردك من داخلي وكلما حاولتُ أفشل، ما الحل برأيك؟
- أنا هنا لتجدي لي الحل، الطريق لم يتعبني مثلما أتعبتني الفكرة التي لا تريد أن ترحل من رأسي، لكن كما قلت لك أنا لا أستطيع الابتعاد عن إخوتي وأمي إلى أن يكبر جميل وجوان قليلاً، لذلك من الأفضل لنا أن نبتعد قليلا، لأن القرارات الصائبة تؤخذ حين يكون الشخص بعيدا.

بدأنا بالمشي باتجاه البحر، الصمتُ كان سيدَ الحضور، أصابعنا تتشابك وشعور الفراق والحزن يخيم علينا، كانت أصابعها باردة .

كريستين كم أنا سعيد وحزين لأني التقيتُ بك، لم أكن أدري أنه من الممكن أن يقابل الإنسان أشخاصا في حياته رغم السعادة معهم لكن الحزن يرسم الطريق أمامه وأي حزن أمامنا؟ الحب أذكى من اللص، يتسلل إلى قلوب العشاق بسرعةٍ فائقة، ويحتدُ في البراعة حين تكون هناك حلقةٌ ناقصةٌ في السلسلة، لتبدأ رحلة الألم من النوع الفاخر.

سألتني عن أمي وإخوتي وطلبتْ مني أن أقصَّ عليها عن تفاصيل حياتي أكثر، أدركتُ حينها أنها تفكر في الارتباط بي، لكن أين نحن بين الصليب والهلال؟

أين نحن؟ بين بيروت التي تحوي نبض قلبي وحلب التي تحوي أنفاسي؟

بدأتُ أروي لها أشياء عن حياتي المعقدة، حياتي التي لا تشبهُ حياةَ أحد، حياتي التي لا أعرف إن عشتُ الطفولة والمراهقة والتفاصيل الصغيرة التي يمرُ بها الإنسان، أخبرتها كيف سرقني العمر بين العمل كبائع خضار والذي انتهى باغتصابي، إلى أجيرٍ في مكتب عقاري انتهى صاحبه بتهمتي بالسرقة كي يجبر أمي على إقامة علاقة معه، وأيضا كان سبباً في كشف أمي أنها تعمل مدرسة لغة كُردية في السر، وعن جورجيت التي تشبه وردة السلام كيف ساعدتني في العمل، وعن سلام الفنان التشكيلي كيف وضع قدمي على أول طريق الفن، وأغلب الذين تسببوا بالأذى لي والذين كانت لهم بصمة جميلة في حياتي عدا خلود لم أتكلم عنها، لا أعرف لماذا لكن كان هناك شيء يعيق حركة لساني في حالتين، حين كنتُ أقابلُ خلود لم أكن أستطيع أن أقول لها شيئا، وحين أتكلم مع أحدٍ آخر أحاول أن أخبره عن خلود وكيف أستطيع كسر الحاجز الذي بيننا، في هاتين

الحالتين كانت تصطكُ أسناني وتتلعثمُ الحروف في فمي وكأنني طفلٌ يتيم فقد أمه ونسي مقدرته على الكلام.

أنا يا كريستين بكيتُ كثيرا، لا أذكر ليلةً لم أنم فيها سعيداً كما اسمي، لا أذكر يوما شعرتُ فيه أن الصفاء حالة ستخيم على مسيرة حياتي الباقية، كنتُ دائماً مثل الهاربِ من وجه العدالة، لا يعرف متى ينكشف أمره ويعتقل، في أكثر الأوقات كنتُ أطلب من الله ألَّا تسوء الأمور أكثر في حياتي، حين كانت تمرُ فترة بدون مصائب جديدة كنتُ أشعر أنها السعادة بعينها، ألَّا تسوءَ الأمورُ أكثر.

اشتدَّ الحر قليلا، التصقت السماء بالبحر بلونهما ونحن نتكلم، والساعةُ اقتربتْ من العاشرة، يجب أن أعود إلى الفندق قبل أن تفقد عقلها المدام سميرة ، اتفقنا أن نأتي في المساء لنكمل اللوحة وحينها سنتكلم أكثر.

وصلتُ إلى الفندق، كانت المدام سميرة جالسةً في اللوبي، وعلامات الغضب ترتسمُ على وجهها.

- مرحبا.
- أهلا، أين كنت؟
- خرجتُ لأتمشى لأنني لم أستطع النوم.
- ولماذا لم تأت إلى غرفتي لتحاول الاسترخاء قليلا.
- اسمعي مدام، أنا لم أنم ليس لأنني لا أريد النوم، بل لأن تصرفك بالأمس جعلني أنتبه لشيء مهم، ألا وهو أنكِ تظنين أنني عبدٌ عندك ليس أكثر، تذكري جيدا أنني أعمل عندك، بغض النظر عن طبيعة العمل، لكن الذي اكتشفتُه هنا أنكِ ستحرمينني من شبابي من أجل الليالي التي قضيناها سوياً،

في قطارِ كلِّ إنسانٍ محطات وفي كلِّ محطة هناك قصة وقصتنا انتهتْ الآن، وعليَّ أن أُكمل بقطار عمري وحيدا، أنا من اليوم لا أستطيع ممارسة الجنس معك، كل ما أستطيع تقديمه لك هو أن نعمل سوياً بالمرسم، ونتقاسم مناصفة المال الذي سأجنيه من الرسم، أكثر من هذا ليس عندي من اليوم، أين كنت أو أين سأذهب هذا من شأني أنا.

- لا حبيبي سعيد، أنا لم أقل بأنني أريد أن أحجز حريتك، كل ما في الأمر أنها أسئلة عادية، وأنت الذي أعطيتَ للموضوع شأنا أكبر، أنا لن أجد شخصا مثلك في حياتي حتى لو انفصلنا الآن.
- جيد، الآن سأذهب لأستريحَ قليلا، وحين أستيقظُ سنذهب لنكمل شراء المواد والمستلزمات، وبعدها نذهب إلى بيت المدام أنطوانيت، ولَّيْتُ ظهري ومضيت إلى غرفتي للنوم.

كانت الساعة تشير إلى السادسة مساءً حين استيقظت، شعورٌ غريب يمتلكني كآبة أو فراغ أو ماذا لا أدري، الذي كنتُ أعرفه فقط هو أني أريدُ أن أتنفس من عيني كريستين، لملمتُ نفسي وذهبتُ إلى غرفة مدام سميرة.

- هيا بنا نخرج. قالت:
- لا أستطيع الخروج، أشعر بالتعب.
- حسنا، إذًا سأذهب وحدي إلى بيت السيدة أنطوانيت لأكمل لوحة كريستين.
- ما رأيك أن نذهب سوياً، لربما تحسنتُ قليلا؟ قالت لي بعد أن تذكرت كريستين على ما يبدو.

- حسنا، سأنتظرك في اللوبي.

جاءت المدام سميرة وكان واضحٌ عليها من تفاصيل وجهها أنها تريد أن تعكر صفاء ليلتنا، لا يهم، أنا سأذهب لأكمل لوحتي وأتكلم مع كريستين وهي ستجلس في الصالون ولن أدعها تفسد ليلتي مع كريستين.

حين وصلنا إلى منزل كريستين كان والدها هناك أيضا، رجلٌ ذو وَقَار، له لحية ويبدو عليه أنه طيبٌ جدا، لأول مرة ألتقي برجلٍ دينٍ مسيحي، جلسنا وتحدثنا عن الفن والرسم وأخبرني عن الرسومات التي تفوق الخيال في إيطاليا حين ذهب بزيارة إلى الفاتيكان، وأخرج بعض الصور كان قد التقطها هناك، أحسستُ بأنني أريد أن أبقى مع هذا الرجل كل الليل، طيب القلب متسامح عفويّ، عيناه تدلان على الحب والسلام والطمأنينة.

بعد قليل قال لي تستطيع أن تكمل لوحتك مع كريستين، استأذنَّا منهم وذهبنا إلى غرفتها، حين أغلقتْ الباب أسندتني على الجدار وبدأت تلتهم شفتيّ، وكأنها كانت ظمآنة وتنتظرني لترتوي، أنا لا أريد أن تبقى القبلة أطول كي لا ننتهي بشيء نندم عليه، لكنها كانت أشبهُ بغزالةٍ تائهة ووجدت من يحضنها في النهاية بعد التعب.

- أحبك.

قالت لي وهي تضعُ يديها على كتفي وتلصقني بالجدار وكأنها تريد أن تحتجزني للأبد.

- وأنا أحبك أيضا، لكن والديك هنا وأخاف أن يأتي أحد.
- لا تخف.
- يجب أن أكمل اللوحة كي أنتهي منها قبل أن نغادر بيروت.
- وهل اتخذت القرار في الرحيل؟

- نعم، كما قلتُ لك يجب علينا أن نبتعد قليلا لنرى ما الذي سنشعر به.
- حسنا، تفضل سأشغل الموسيقى إلى أن تأخذ مكانك، غيرتْ مجرى الحديث، كأنها امتعضت.

جلستُ أكمل لوحتي وهي أمامي، نيرانٌ في داخلي، أريدُ أن أرمي الفرشاة وأرسم لوحتي الخاصة على جسدها، بدأتُ بوضع الألوان وأنا أحاول أن أرسمها بأفضل لوحة، شعاع تسلل من خصلة شعرها وكأن نجماً في السماء أُضيء خصيصاً لها.

- سأذهب إلى العمل غدا صباحا، قالت.
- جميل، هذا يعني أنني سألتقي بك في الصباح وفي المساء.
- لا سنلتقي ثلاث مرات.
- كيف ثلاث مرات؟
- حين أنتهي من عملي سأنتظرك في الغرفة رقم 451، هذه الغرفة مغلقة لأعمال صيانة في الحمّام، وأنا سآخذ المفتاح من صديقتي التي ستعمل بعدي.
- وإن أخبرت الإدارة بذلك؟ سألتها. قالت:
- لا، لأنها على علاقة مع شاب في الفندق يعمل في المطبخ، وحين ينتهي دوامهما وأكون أنا التي بعدها، تأخذ المفتاح مني. أريد أن أتنفس منك قليلا دون أن يكون هناك أحدٌ، أو شيءٌ يعكر صفو جلستنا.
- وأنا أريد ذلك يا كريستين، لكن أنا لا أريد أن يحصل شيء بيننا الآن ليكون قرارنا مبنيا على الحب فقط دون غرائز.
- سنحاول ألَّا يحصل الكثير، الساعة الثالثة سأكون في الغرفة.

في اليوم التالي بعد عودتنا ظهرا إلى الفندق طلبت مني المدام سميرة أن أبقى في غرفتها لأنها تشعر بالإرهاق بعضَ الشيء، ربما حين وجدتْ كريستين في العمل شعرتْ بأنه سيحصل شيء بيننا، لكنني رفضت وقلتُ لها أني أريد النوم.

جلستُ في غرفتي إلى أن تصبح الساعة الثالثة وألتقي بكريستين في عزلةٍ تامة، لونٌ وردي يتسلل إلى داخلي حين أذكرها، كم هي جميلة، الابتسامة تداعب وجهي. حان الوقت صعدتُ إلى الغرفة في الطابق الرابع، كان وجهها الملائكي يرسمُ ابتسامةٍ سخية مليئة بالدفء والحنان، دخلتُ إلى الغرفة عانقتُها وبدأنا بالالتفافِ حول بعضنا البعض، وعيوننا لا تفارق بعضها، قبّلتها على وجنتيها قبّلتني في فمي، رمتني على السرير دون إذن، وبدأت تلاعبُ شعري وهي تقبّلني من فمي وعنقي وكل مكان طالَت شفتيها، بدأتْ تفكُ أزرار قميصي وكأنها تريد أن تلتهمني، تمعنتُ في عينيها الحب، بدأتُ أداعبها، وسافرتُ في تفاصيل جسدها، صدرها المكوّر، والنهدان خجولان، وخاصرةٌ كالغزال، شامةٌ خجولةٌ ارتسمتْ أعلى رحمها تشير إلى السكينة والحنان، سافر قاربي في بحر جسدها وبدأتْ أنفاسها تتلاهث، مرَّت ساعةٌ ونحنُ على هذه الحال، كان يوما أشبه بالقصص التي قرأتها في كتب الحب والعشاق، تمرُ اللحظة بسرعة، لم نشعر بالوقت.

حين عدتُ إلى غرفتي وجدتُ المدام سميرة تقف أمام الباب، سألتني أين كنت؟ فقلت لها كما اتفقنا، بيننا عمل فقط وليس لديكِ الحق في أن تسأليني أين كنت وماذا كنتُ أفعل، وإن كان هذا العمل لا يناسبك لا مانع عندي من الانفصال حتى من العمل. قالت "لا أقصد هذا ولكن كنت بحاجتك وأنا أبحث عنك في اللوبي وبين المطاعم في الفندق ولم أجدك".

- كنت خارج الفندق، والآن لنذهب لتناول الغداء وبعدها سنذهب لنكمل لوحة كريستين.

ذهبنا في المساء إلى أنطلياس، السعادة اقتحمتْ عينا كريستين، المدام سميرة اكتشفت أن كريستين غير طبيعة هذه الليلة، جلسنا في الصالون قبل أن نبدأ الرسم، قالت المدام سميرة لكريستين:

- لم نجدك في الفندق حين ذهبنا إلى الغداء اليوم، متى انتهى دوامك؟

كان واضحا من سؤالها تريد أن تعرف إن كنا معا أم لا، أجابت كريستين:

- عدتُ إلى المنزل في السادسة
- وهل انتهى دوامك قبلها ؟ سألتها المدام سميرة. قالت كريستين:
- كنتُ في اجتماع بعد أن أنهيت عملي في الريسبشن.

أحسستُ أن المدام سميرة اكتشفتْ أننا كنا معا. ذهبنا إلى غرفتها لنكمل اللوحة بعدها، وبين الحين والحين نسترق قبلةً أو قبلتين، جلستْ ساعتين أمامي وشعورٌ غريب يمتلكني أمامها، كم تريحني نظراتها، وكم هي جميلة، لا أملك غير الحسرة عليها لأنني أشعر بأنها ليست لي، كيف سأواجه أهلي وأهلها إن قررنا الزواج؟

كيف لنا أن نستمر في مجتمعٍ الدين يسيطر عليه؟

باتت الفكرة تخنقني، لا أستطيع تخيل نفسي من دونها، ومعها المشاكل ستسيطر على حياتنا.

بعد ثلاث ساعات تقريبا بدأت اللوحة تظهر بشكلٍ واضح ولا ينقصها غير اللمسات الأخيرة، رغم أني كنتُ أريد أن أنتهي منها، لكن في نفس الوقت كنتُ أتمنى أن أبقى أكثر، لكن ما باليد حيلة، عليَّ أن أنتهي منها لتبقى ذكرى مني إليها.

طلبتُ منها أن نتوقف هذا المساء وغدا سننتهي منها، وبعد غد قبل أن نغادر سأنهي آخر اللمسات إن بقي شيء ونودع بعضنا، ذبلت مثل وردةٍ ظمأتْ، وسألتني:

- متى ستعود لنلتقي من جديد؟
- قلت لكِ سأحاول كلما استطعت، صدقيني.
- انتظر سأُعطيكَ شيئا يذكرك بي.
- وهل أستطيع أن أتذكر غيرك حتى تعطيني شيئا يذكرني بك؟
- أعرف لكن انتظر.

أخرجت من خزانتها شالا أبيضَ اللون ورشَّت عليه قليلا من عطرها وقالت احتفظ بهذا لأبقى بجانبك، واللوحة كافية لأتذكرك دائماً، عانقتْني وقبّلتْني وخرجنا إلى الصالون.

في اليوم التالي عدنا إلى منزلهم كانت الليلة الأخيرة لنا في بيروت، دخلنا غرفتها وأنهيتُ اللوحة والحزن يعصرنا، طلبتْ مني أن أعود في أقربِ وقتٍ وهي تبكي.

- أعدك سأعود قريبا، فقط أعطني الوقت كي أبدأ عملي ولدي بعض الأعمال سأنتهي منها قريبا وأرتب كل شيء وسآتي إليك.

عدنا إلى الفندق وأنا لا أستطيعُ التكلم، كلما سألتني المدام سميرة عن شيء أجيبها بكلمات مقتضبة، أحسستُ بثقلٍ في لساني، وكأن الكلمات لا تريد أن تخرج من فمي، تخرج على هيئة دمعات تنفر من عيني، تقتل شعور الرحيل من داخلي. دخلتُ غرفتي وأنا أحاول أن أكون قويا لأستطيعَ المسير بلا قراراتٍ أغيرُ فيها مسير حياتي المقبلة في المرسم الخاص، لا أريد أن أتخذ قرارَ البقاء هنا، إخوتي ينتظرونني، بدأتُ بترتيبِ أمتعتي وكل ما اشتريناه من مواد، حين أنهيتُ كل شيء تمددتُ على السرير محاولاً

النوم، الطريقُ من بيروت إلى حلب طويلٌ ويجب أن أنام لألتقي بأمي وإخوتي غدا، لكن الأرق لا يفارقني، وضعتُ شال كريستين على وجهي وتنشقتُ من عطرها، تمددتُ بسلام حين فاح عطرُها في أرجاء الغرفة.

في الصباح وقت مغادرتنا كانت كريستين في الريسبشن، الحزنُ كان واضحا عليها، وابتسامة المدام سميرة كانت واضحةً أيضا، هي تشعرُ بأنَّ هناك شيء حصل بيني وبينها لكن لا يوجد دليل على ذلك، ودَّعتنا بابتسامةٍ كئيبةٍ ومضينا في طريقنا إلى حلب. شعرتُ بأنني ذاهبٌ إلى السجن وليس إلى بيتي وأهلي، غصةٌ مبحوحة ودمعةٌ ترافقها تخنقني، الرحيلُ يتعبني ولا أستطيع البقاء، أمتعتي هنا معي مبعثرة وأمتعة قلبي في بيروت، أكره أنصاف الحلول ولا أملك خيارا آخر، سأتربصُ في موضعي على أملِ أن غدا أفضل، لكن الواقع لن يتغير، هي مسيحية وأنا مسلم، هي في بيروت وأمي في حلب، أخرجتُ سيجارة من علبة دخاني في الاستراحة وبدأتُ أمجُ منها بصمتٍ قاتل، وكأنني أحترق بدلًا من التبغ.

*****

7

حين عدنا من بيروت كان المهندس قد انتهى من ترميمِ الصالة وتجهيزِ كل ما طلبناه منه، لم يبقَ سوى أن أختار اسماً للمرسم وأن أضع العدة الخاصة التي سأعمل بها ولوحاتي وأنطلق في العمل. ذهبنا أنا والمدام سميرة إلى خطاط ليخُطَّ لنا لوحةً كبيرة مكتوبٌ عليها اسم المحل ويطبعَ لنا بطاقات عملٍ مكتوبٌ عليها اسمي واسم وعنوان المرسم، اتفقنا على اسم "لمسات" للمرسم. خلال يومين كان المرسمُ جاهزا للانطلاق، فاجأتني المدام سميرة حين قالت لي بعد غدٍ حفلُ الافتتاح، وهناك شخصيات كثيرة دعتهم للحضور، شعرتُ بشعورٍ غريب يمتلكني، سيأتي أصدقاؤها من الطبقة المخملية ليحضروا حفل الافتتاح، شعرتُ بأنني أضع قدمي على أولِّ الطريق الذي رسمته في مخيلتي حين كنتُ صغيرا. طلبتْ مني المدام سميرة أن أدعو أمي وإخوتي أيضا وأهدتني بدلةً كانت قد أوصتْ بها المدام خولة من باريس، فعلتْ كل هذا لي، شعرتُ بالحزن عليها بعض الشيء، هي تحبني كثيرا لكن لا أستطيع المسير معها في نفس الطريق.

في يوم الافتتاح كان هناك عازفُ عود وعازفُ كمان من أصدقاء المدام سميرة، لإحياء الحفل، في الساعة العاشرة صباحا اجتمع المدعوون أمام الصالة، اصطحبتُ أمي وإخوتي معي، ومن بين الحضور كانت ميساء موجودة، الفتاة التي أمرت حراسها بضربي منذ أعوام، حين التقتْ عيناي بعينيها أدركتُ أنها تذكرتْني من ابتسامتها وهي ترمي السلام علي من بعيد، قمنا بقصِّ الشريط أنا والمدام سميرة باعتبار أنها شريكتي في المرسم، صفقَ الجميع وبدأت الفرقة الصغيرة بالعزف والناس تتجول في أرجاء

الصالة وأخذوا يبدون إعجابهم بأعمالي، كنتُ أتنقل مع المدام سميرة بين المدعوين لتعرفني على الذين لم ألتقِ بهم من قبل، وحين وصلنا عند ميساء رحبتُ بها، فقالت:

- أهلا سعيد.
- وهل تعرفان بعضكما من قبل؟ سألت مدام سميرة.
- نعم تعرفنا على بعض قبل أن أعرفك، حصل سوء فهم بيني وبينها وتعارفنا من خلاله. استغربت المدام سميرة وقالت:
- لم تقل لي ذلك.
- لم أكن أعلم أنكِ تعرفينها، ولهذا السبب لم أحدثك.

بينما كنا نتكلم دخل صديقي سلام إلى الصالة بعد أن قمتُ بدعوته، طلبتُ من العازفين أن يتوقفوا لأقدم للضيوف سلام الذي ساعدني في وضع قدمي على استمرارطريق الفن، ولأنني أدينُ له بما أنا عليه الآن، صفقتُ بيدي لألفت انتباه الجميع، قلتُ لهم :

- اليوم هو يومٌ كبير بالنسبة لي، وحضوركم جعل الفرحة فرحتين، أنا أدين في حياتي لشخصين، شخصٌ جعلني أكون من أنا وشخص جعلني فناناً ، الشخص الذي جعلني من أنا هي أمي، أمسكتُ يدها وقبّلتها أمام الحضور، عانقتني وقبلتني ودموع فرحها لم تحتمل الانتظار أكثر، ربما للمرة الأولى في حياتها، وأما الشخص الثاني الذي أدينُ له هو الفنان سلام الذي جعلني أبدأ مسيرتي الفنية في المرسم الذي عملنا فيه سوياً، صافحته أمام الجميع وعانقنا بعضنا، في تلك اللحظة دخلت جورجيت مع زوجها، دعوتها عن طريق السيد حنّا صاحب المخبز الذي كنا نعمل فيه سوياً، عرفتني إلى زوجها

ميشيل الشاب الذي كان يتردد على المخبز حين كنا نعمل معا، هو لم يتذكرني ربما كان قدومه إلى المخبز حينها في غايةٍ لرؤية جورجيت. عاد العازفون إلى إكمال مقطوعاتهم والحضور إلى إكمال مشاهدة اللوحات، ابتساماتٌ كبيرة تملأ أعين إخوتي وأمي، وكأني طبيبٌ أو مهندسٌ يفتحُ مشروعاً خاصاً به، سعادتي كانت كبيرة ورغم كل السعادة التي كانت تتملكني حينها فلم أشعر بأنها مكتملة، كريستين كانت تحوم في مخيلتي.أفسد الفرحة شكري صاحب المكتب العقاري حين دخل إلى الصالة وهو يمسكُ بشاربيه المعكوفين، لاحظت ميساء غضبي حين دخل شكري إلى الصالة. سألتني:

- لماذا تغيرت ملامح وجهك حين دخل هذا الرجل؟ قلتُ لها:
- لا تبالي، الأمر لا يستحق . قالت:
- إن أردتَ، سأرد لك الدينأ وابتسمت.

كم كانت فكرة جميلة، قلتُ لها:

- سنتكلم في الموضوع فيما بعد، أتمنى زيارتك في أقرب وقت في الأيام القريبة حينها سنتكلم. ابتسمت وقالت:
- طبعاً سأقوم بزيارتك كثيرا ودائماً، سترسمني، وترسم لي الكثير.

بعتُ تسعَ لوحاتٍ يوم الافتتاح، وطُلب مني رسمُ خمس لوحات بورتريه لأبناء بعض الأشخاص الموجودين في الحفل. انتهى الحفل وذهب الجميع، بقينا أنا والمدام سميرة في المرسم، طلبت مني أن أذهب إليها مقابل الذي قامت به من المفاجأت، كنتُ في حيرةٍ من أمري، لكن انتهى بي التفكير إلى أن أعتذر منها ولو كلفني ذلك أي ثمن، يجب أن تفهم أن حياتي معها انتهت. حين قلتُ لها ذلك شعرت بالإحباط وحاولت

أن ترغمني وهي تتوسل إلي بطريقةٍ جعلتني أنفر منها أكثر، بقيتُ مُصراً على موقفي، مضى كلٌ منّا في اتجاه بيته ولم أبالِ بما سيحصل.

في طريقي إلى البيت بدأتُ أرتب طرق الانتقام من الأشخاص الذين أحدثوا فجوة كبيرة في حياتي، بدءً من مصطفى وانتهاءً بأقاربي الذين كانوا يعتقدون أننا لا نصلح لشيء في الحياة ويتهموننا بالفشل موجهين الشتائم إليَّ وإلى إخوتي، أنا لا أحقد على أحد لكن لا أستطيع أن أنسى من أبكاني.

كانت خالتي آفين أول من انتقمتُ منها، حين ذهبتُ إليها راكبا سيارتي التي اشترتْها لي المدام سميرة لأجل العمل في المرسم ومرتديا بدلتي الفرنسية. ترجلتُ من السيارة أمام منزلها، ومن حسن حظي أنها كانت تجلسُ في الشرفة مع زوجها، حين رأتني كانت صدمتها كبيرة من مظهري بالبدلة والسيارة، حين وصلتُ أمام منزلها كنت تنتظرني مع زوجها والابتسامة المسمومة تملأ وجوههما:

- أهلا سعيد لم أعرفك حين نزلت من السيارة.
- أهلا خالتي. أجبتها ببرود ودخلت.

جلسنا في الصالون أضعُ ساقا على ساق وأشعلتُ الغليون وقلتُ لابنتها:

- سادة، أنا أشرب القهوة سادة.

هم لم يسألوني ماذا أشرب، لكن قلتُ هذا لأبدأ حديثي المسموم بطريقة مسمومة، وبالفعل حين قلتُ ذلك ارتسمت علامات الاستغراب على وجهها وشعرتْ بأن حضوري ليست لزيارة عائلية.

- كيف حالك وكيف هم إخوتك وأمك؟ سألتني خالتي.

- مدام آفين أمي هي أختك، وكان بإمكانك زيارتها كل فترة وفترة للاطمئنان عليها، أم أنه لا يناسبكم مستوانا المادي، وبعد أن خرجت أمي من السجن؟ أعوام وهي تنتظر أختها وتبكي بحرقة عليكما أنتِ وخالتي روخاش، أنتِ في بعض الأحيان قمتِ بمساعدتنا حين كانت أمي في السجن، لا أنكر أقلام الرصاص والدفاتر التي اشتريتِها من مالك الخاص، ولا أنكر صدرية ابنك وصدرية بنتك حين أحضرتيهما لنا واشتريتِ لأولادك صدريات مدرسية جديدة، والباقي لا أعرف من أين أتيتِ بهم لأخي فرهاد وجوان، لكن لم يكونوا صدريات جديدة على ما أذكر، بكل الأحوال أنا لستُ هنا من أجل أن أقول لكِ هذا، كل ما في الأمر أتيت لأرد لك الدين.
- أي دين سألتني؟
- ثمن أقلام الرصاص والدفاتر، وسأعطيكِ ثمن علبة الألوان التي طلبتها منك لأختي ولم أحصل عليه حينها، لكن إن طلب منكِ طفل شيئا في المرة القادمة لا تخذليه، لأنني بكيتُ كثيرا إلى أن أشتريت علبة ألوان لأختي، المهم أنني وقفتُ على قدميّ وها أنا الآن أستطيع شراء علب ألوان لأطفال الحي كلهم. هل تذكرين كم صرفتِ علينا ثمن القرطاسية الفاخرة؟ سألتها مستهزئاً قالت:
- عيب أن تقول هذا، وأنا لم أشترِها لكم لكي ترد الدين لي فيما بعد.
- شكرا لكِ يا خالتي العظيمة، لكن دعيني أرد لكِ المعروف على طريقتي إن سمحتِ لي بذلك.

أخرجتُ من جيبي خمسة آلاف ليرة كنتُ قد وضعتها على انفراد، وقلتُ لها:هذه خمسة آلاف ليرة، وعلى ما أذكر أن ثمن قلم الرصاص مع الدفتر حينها كان عشر ليرات فقط، لكنني أدفع لكِ هذا المبلغ لأنكِ انتظرتِ وقتا طويلًا، آه .. صحيح، وهذا ثمن القهوة التي لم أشربها.

رميتُ المال على الطاولة ومضيت دون أن ألتفت إلى الخلف.

أنا لا أحقد على أحد لكن جرحي يمنعني من النسيان، خالتي وبعض أقاربي سببوا لي جراحا صغيرةً مقارنة بالجراح التي سببها لي مصطفى والآنسة فهيمة.

عدتُ إلى البيت بعد يومٍ شاق، جدتي لم تبارك لي على المرسم ، الكره يعميها، أخبرتُ أمي بأننا سنرحل من هذا البيت المشؤوم، جلسنا أنا وإخوتي لأولِ مرةٍ والضحكة تملأ أرجاء البيت، أخي جميل أصبح في المدرسة الابتدائية، جوان في المدرسة الثانوية، جيهان في الجامعة وأخي فرهاد كان قد بدأ العمل في مجال التصوير في ستديو صغير قرب بيتنا. أخبرتُ أمي بالذي حصل معي عند خالتي آفين، غضبتْ مني لكن فرهاد وجيهان صرخا بأعلى صوتيهما لسماعهما الخبر.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى المرسم صباحا لأبدأ العملَ بلوحاتِ مدام خولة، حين كنتُ أصنعُ قهوتي دخل عليّ السيد شكري وقال لي:

- أتمنى أن نكون نعم الجيران، وأن تنسى ما حصل.
- وما الذي حصل؟ سألته. قال:
- ما حصل بيننا حين كنت تعمل عندي.
- هل ما زلت تذكر؟ قلتُ له مدعياً أني نسيت. قال:
- نعم.

يحاول أن يكون لطيفاً بعد أن رأى الشخصيات في المرسم يوم الافتتاح.

- لا لا أنا نسيت منذ ذلك الوقت وأهلا بك تفضل نشرب القهوة سوياً. قال:
- دعني أدعوك على قهوة من عندي.
- لمَ لا، ربما من يدك ستكون ألذ.

كم هم سيئون أولئك الذين يستغلون الناس حين يكونون ضعفاء، ويصبحون كالقطط حين يقفون أمام الأقوياء. سأنتظر ميساء إلى أن تأتي لأرى ماذا يمكن أن تفعل مع هذا الحقير، قلتُ في نفسي. بعد قليل أحضر القهوة ودخل المرسم وهو يبتسم ويحاول أن يكون لطيفاً حين بدأ يمدح أعمالي. شربنا القهوة المسمومة من يده وغادر المرسم وهو يقول لي سنتناول الغداء سوياً يوما ما، قلت في نفسي كم أنت مسكين يا شكري، لو اشتريت لي مطاعم حلب لن أغير فكرة انتقامي منك:

- حسنا، أنا موافق.

قلتُ له هذا على أمل أن يجد لي منزلًا بسعرٍ مقبول أو على دفعات، وسأنتقم منه في الخفاء دون أن يعرف أني السبب.

بدأتُ العمل برسم لوحات مدام خولة، كنتُ حذرا أكثر من اللازم في التقنية التي أرسم بها، رغم ثقتي بنفسي إلا أنني زدتُ من حرصي قليلًا لأنني في بناء الأساس لمستقبلي في المرسم. فيروز تمضي في أغانيها ورائحة القهوة والغليون يثيرون أفكاري، والريشة في يدي تتكلم بدلاً من الرسم، شال كريستين بجانبي يعطيني القوة ويمدّني بالإرادة والعزيمة، كم أتمنى لو نتزوج وتأتي لتقيم هنا، ستختصر عليَّ كل الآلام، لكن ما باليد حيلة. وأنا مسافرٌ بين ألواني وفيروز وأشيائي، دخلت فتاة في العقد الثالث من عمرها، مرتديةً بنطالَ جينز قاتم وقميصا أزرق اللون، الأزرار مفتوحةً إلى منتصف

الصدر، شعر أسود متماوج على الكتفين، شفاه حمراء كالكرز.لم تنتبه لوجودي خلف اللوحة أكملتْ طريقها بالنظر إلى اللوحات، حين وصلت إلى منتصف الصالة اكتشفتْ وجودي، وقالت:

- اعتقدت أنه ليس من أحدٍ هنا. وقفتُ وقلت:
- أهلا بكِ، وأنا الذي أعتذر لأني لم أتوقف لأرحب بك، لأنكِ منذ لحظة دخولك وأنتِ تراقبين اللوحات ، أهلا بك.

تابعت جولتها بين اللوحات وهي تتأملها بشكلٍ مثير، وكأنها تفحصها أكثر من أنها تريد شراء إحداها، أو أنها رسامة أيضا وتحاول أن تجدَ شيئا ما باحثةً في كل الأرجاء عنه، توقفتُ بعيدا عنها منتظراً سؤالاً منها أو استفسارا، لكن ظلَّتْ تتفحص اللوحات لأكثر من نصف ساعة، بعدها قالت:

- أعمالك جميلة جدا، وأنا لم أسمع بك من قبل لسوء حظي.
- شكرا لكِ هذا من لطفك.
- كم تأخذ على لوحة بورتريه؟ سألتني.

بدأتُ أشرح لها فرق الأسعار بين القياسات وإن كنتُ سأرسم الشخص مباشرةً أو من خلال صورة. قالت:

- سترسمها مباشرةً، لأن "الصورة خاصة"، ولا أثق بالمصورين، لا أريدُ لأحدٍ أن يحتفظ بنسخةٍ له.
- وماذا تعنين ب"الصورة خاصة"؟ سألتها. قالت:
- ستعرف حين نتفق على السعر، أريد هذا القياس مشيرة بسبابتها إلى لوحة قياس 80×60 بالألوان الزيتية.

- تكلفة هذه اللوحة 1000 ليرة، وتنتهي في ثلاث جلسات. قالت:
- اتفقنا.
- لكن من هو الشخص الذي سأرسمه؟ سألتها..قالت:
- أنا..
- وماذا تقصدين بالصورة الخاصة إذًا؟ سألتها. قالت:
- أريدك أن ترسمني في لوحة نصف عارية، وشعري يغطي طرفاً واحدا من صدري والطرف الآخر أن ترسم ظلاً داكناً يغطيه .

أعجبتني الفكرة، فتاة عارية وشعرها يغطي نصف صدرها من طرف والطرف الآخر ظلٌ داكن.

- ومتى نستطيع أن نبدأ؟ سألتني. قلتُ لها:
- اليوم سنأخذ فكرة عن اللوحة وغدا نبدأ في رسم الخطوط.

قلتُ هذا لأني وقعتُ في حيرةٍ من أمري، هل هي عاهرة أم ماذا؟ شكلها وأسلوبها في الكلام لا يوحي بأنها كذلك، لكن طلبها كان غريبا.

- وكيف ستأخذ الفكرة اليوم؟ سألتني. قلتُ لها:
- الغرفة الصغيرة في الزاوية مخصصة لرسم اللوحات الخاصة، كنتُ قد طلبتُ من المهندس أن يبنيها لأجل هذا الغرض، لربما تأتي إحدى المحجبات وتريدني أن أرسمها دون أن يراها أحد.لكن لم أتخيل أن أول فتاة ستدخل الغرفة هذه تريد أن تتعرى.

دخلنا إلى الغرفة، أشعلتُ الإضاءة وأوقفتُها أمام جدار الستائر، الجدار هذا علقت عليه ستائر من كل الألوان الأساسية لتناسب جميع البشرات، اخترتُ لها الخلفية

السوداء باعتبار أنها شقراء، شعرتُ أن الأسود يليق بها، وباعتبار أنها لوحة عارية، طلبتُ منها أن تقف كما تريدني أن أرسُمَها، وقفتْ وأسدلتْ خصلات شعرها على طرفِ قميصِها مخفيةً صدرها من القميص. قلتُ لها:

- أنتِ قلتِ أريدُ لوحةً عارية، وكما أرى الآن القميص موجود.
- وهل تريدني أن أتعرى الآن؟ سألتني.
- طبعاً، أنا هنا لأخذ الفكرة عن اللون والإضاءة.

بخجلٍ شديد وبيدين مرتجفتين بدأتْ تفتحُ أزرار قميصها، حين بان طرفُ صدرها طلبتْ مني أن أخرجَ لأنها تشعر بالخجل، قلتُ:

- الخجل سيفشل اللوحة، وعليكِ أن تتعري كما تطلبين مني أو انسي الأمر وابقي مرتدية القميص.

شلحت القميص وحمالة صدرها ووقفت نصف عارية أمامي، واحمرار وجهها كان واضحا عليها، إنها ليست عاهرة.

أسدلتُ خصلاتِ شعرِها على طرفِ صدرِها وأطفأتُ الإضاءة من الطرف الآخر ليبدو قاتماً الطرف الثاني، طلبتُ منها أن تُحرك غُرة رأسها قليلًا نحو الأسفل، وحين انتهيتُ من رسم الصورة في مخيلتي، طلبتُ منها أن ترتدي ملابسها، وعدتُ إلى الصالة وجلستُ خلف طاولتي أنتظرها.

حين جاءت، كتبتُ لها وصلا باستلام نصف المبلغ سلفا، والنصف الباقي حين أنتهي منها، وهي تعطيني النقود لم تستطع إخفاء رعشة يديها وخجلها، ولم أتجرأ وأسألها عن سبب طلبها اللوحة في هذا الشكل.

اتفقنا على أن تأتي في اليوم التالي في الواحدة ظهرا، وقت قيلولة المدام سميرة، لا أريدُها أن تأتي وتجدَ فتاةً عاريةً عندي، كي لا يغمى عليها وتغلق المرسم من غيرتها.

ذهبتْ الفتاة تاركةً لي أسئلة لاتنتهي. وبينما كنتُ شارداً في مخيلتي عنها دخلت المدام خولة بحضورها البهي وفستانها الفرنسي، الضيق، فتحة لمنتصف الركبة وفتحة من الأعلى لأول الصدر، وعطرها الفرنسي أيضا فاح في المكان كالمجنون، مدَّتْ يدها على طولها مثل سيدات المجتمع المخملي منتظرةً مني أن أقبّلها، قبّلتُ يدها بنعومة كاملة وأبقيتُ أنفي ملتصقا بيدها للحظات، لأشتمَّ رائحةَ عطرِها وتنتبه إلى ذلك، أريدها أن تقيم علاقةً معي لأكسب منها المزيد، لن أفعل مثلما فعلتُ مع المدام سميرة لكن سأجعلها تجثو على ركبتيها تتوسل لي أن أنام معها. كان هناك جدارٌ بيني وبين الأغنياء، لا أحبُهم، أشعرُ بأن الاستفادة منهم حلال، بل يجب أن أفعل ذلك، كنتُ أخافُ أن أعودَ كما كنتُ في طفولتي لذلك يجب عليَّ أن أبني مملكتي الخاصة التي يستحيل سقوطها في المستقبل. حين رفعتُ رأسي كان واضحا عليها أنها لاحظت إعجابي الشديد بعطرها، حين تنشقتُ قليلا وأنا أرفعُ رأسي، ابتسمت ابتسامة خفيفة وهي تجلس ثم سألتني:

- إلى أين وصلت في لوحاتي؟ قلتُ لها:
- اليوم هو اليوم الأول في المرسم وهذا يعني أنني في اللوحة الأولى التي سنضعها في صالون الفيلا، لوحة تعبيرية، لون تركواز خفيف يغطي تفاصيل اللوحة كما اتفقنا، ها هي هناك وسنكون على موعدنا.
- كنتُ أتمنى منك لو أنك ترسم في الغرفة التي في الفيلا، كان على الأقل يمكنني متابعتك بشكلٍ دائم.

- وهنا أيضا تستطيعين متابعتي بشكلٍ دائم، كل ما عليك فعله أن تركبي سيارتك وتأتي إلى هنا لأشتم رائحة عطرك وتتفحصي أنتِ اللوحات.

ضحكت وقالت:

- لا أستطيع المجيء كل يوم، هل تستطيع أن تأتي أنت في الصباح قبل أن تحضر إلى المرسم وتخبرني بالتطورات ونشرب قهوة الصباح سوياً؟

أشارت بسبابتها إلى صدرها بدلع وغمزتني بطرف عينِها، ولكي أقتلَ الشكَّ قلتُ لها:

- أفكر بأن أرسمك بشكلٍ مباشر حين أنتهي من لوحات الفيلا. سألتني:
- كيف وأين؟ قلتُ لها:
- هنا في المرسم، الغرفة تلك مخصصة للوحات الخاصة. قالت:
- لمَ لا، لكن أنا أفضّل أن ترسمني في الفيلا.
- أنا أيضا، لكن الفيلا فيها حراس وهناك خادمة وأنا لا أحب أن يزعجني أحد بتحركاته حين أرسم. قالت:
- دعني أرى الغرفة، توجهنا إلى الغرفة لتفحصها. قلتُ لها:
- اجلسي قليلا على الأريكة وضعي مرفقكِ الأيمن على طرفها ومدي ساقك الأيسر فوق الأريكة، احني رأسك على مرفقك الأيمن وانظري إليّ، هكذا سأرسمك مع بعض التعديلات على الفستان، لونُ الفستان هذا جميل جدا، الأخضر مع بعض الخطوط البيضاء يناسب لون بشرتك، كانت ساكنةً تماما حين اقتربتُ منها لأعدل في تفاصيل الفستان وأجعله يناسب انحناء جسدها على الأريكة، أمسكتُ الفستان بأصابعي ورفعتهُ قليلا للأعلى، لتعلو الفتحة الأمامية أكثر ويظهر جزءٌ أكبر من ساقها، مددتُ يدي لأعدل كسرة الفستان

بجانب الصدر، حينها شعرتُ بصوت أنفاسها، طلبتُ منها أن تجلس على وضعها هكذا إلى أن أرسمها في مخيلتي، وأنا جالسٌ أمامها أراقبها وهي تراقب تحركات عينيّ أين تقع، أطلتُ النظر إلى صدرها لتنتبه إلى ذلك، سألتني إن كان هناك شيء على صدرها فقلتُ لها لا، ولكنني لم أرسم من قبل صدرا مكورا بهذا الشكل الجميل، وأنا الآن أرسمه في مخيلتي كي لا أقع في أخطاء حين نبدأ. سألتني:

- ومتى سنبدأ؟ قلتُ لها:
- أنا الآن منشغلٌ بلوحاتكِ، وأنتِ تقررين متى تريدين أن أرسمك.
- سنبدأ غدا. قالت:
- غدا في الساعة العاشرة صباحا يناسبك؟ سألتها. قالت:
- جيد .
- لكن لا تنسي أن تأتي بنفس الفستان. قلتُ لها.
- لا أستطيع أن ألبس نفس الفستان ليومين متتالين! قلتُ لها:
- إذا البسي فستاناً آخر وأحضري معك هذا الفستان في حقيبة واتركيه هنا وكلما أتيتِ تلبسينه، وحين ننتهي تبدلي ملابسك.
- هكذا أفضل، لن أتقيد بالفستان.
- لكن عليكِ أن تتقيدي بالمكياج، أي لون تضعيه غدا سيكون هو اللون الدائم حتى ننتهي.
- حسنا، اتفقنا.

وبينما كنا نتحدث دخلت المدام سميرة إلى المرسم، تغيرتْ ملامحُ وجهها حين رأت المدام خولة تجلس معي.

- أهلا مدام، تفضلي.
- أهلا.

مدَّت يدها ببرود إلى المدام خولة لتسلم عليها، ثم جلست أمامها تحدّق في تفاصيل فستانها. حين شعرت المدام خولة بذلك أصرَّت على أن تغيظها حين قالت لها:

- سعيد سوف يرسمني مباشرةً هنا في المرسم.
- جميل، هذا يعني أننا سنلتقي كثيرا بحضرتك. جاوبتها المدام سميرة بغيظ.

قلتُ لها هذا هذا المكان مخصص للعمل ولقاءات العمل فقط، وليس لأحاديثكما الخاصة رجاءً. شعرتُ بدخانٍ يتصاعدُ من المدام سميرة حين قلتُ ذلك، وأضافت المدام خولة ابتسامة ساخرة أغاظتها أكثر؛ مما جعلها تقول:

- لا تنس أنني صاحبة الصالة، ويحق لي أن آتي إلى هنا متى شئت.
- لا لم أنسَ ذلك، إن أردتِ مقابلة مدام خولة يمكنك الحضور قبل أن أبدأ أو بعد أن أنتهي، وسنبدأ غدا في العاشرة صباحا، ويجب أن أتوقف في الثانية عشرة لأنه لدي موعدٌ آخر في الساعة الواحدة.

صمتت قليلًا، شعرتُ أن الأمر لن يمرَّ بسلام، لأني كنتُ قاسيا بعضَ الشيء، كان يجب أن أكونَ كذلك لأقطعَ الطريقَ أمامها في المستقبل، وحتى تدعني وشأني. استأذنت المدام خولة، وقالت:

- غدا صباحا سأكون هنا يا سعيد، قالتها بطريقة تغيظ بها المدام سميرة.

حين أصبحنا بمفردنا قالت المدام سميرة وهي تضعُ يدها على الطاولة:

- كان يجب أن تكون أكثر لطفاً معي أمامها، ولا أسمح لك بأن تكلمني بهذه الطريقة أمام أحد مرة أخرى.
- تكلمتُ معك بهذا الشكل لأقطعَ سلسلةَ الأوهام التي في رأسك، وفي نفس الوقت لأوجه رسالةً لك بأنني لستُ ملكا لكِ ولا لأحد، ولن أسمحَ لأحدٍ أن يتدخل في تفاصيل حياتي، الذي بيننا انتهى ولم يبقَ غير هذا المرسم، إن أردتِ خذي المفاتيح واللوحات ثمن ما صرفتيه .
- ماهي سلسة الأوهام الذي في رأسي؟ سألتني. قلتُ لها:
- أن أقيم علاقة مع مدام خولة، أو ربما ستمنعيني من إقامة أي علاقة على أمل أن نعود كما كنا. قالت:
- هذا غير صحيح، ومن اليوم لن أسمح لك حتى لو طلبت أنت مني هذا.
- رائعٌ إذًا، كما اتفقنا علاقتنا في العمل فقط، وفي المال تحديداً، لا يحقُ لكِ أن تأتي كلما جاءت إحدى صديقاتك لأرسمها وتبقين هنا، لأنكِ تعرفين أني لا أحبذ وجود أحد حين أرسم، وهذا كان ضمن اتفاقنا في بيروت، وأنتِ قبلتِ، اليوم هو اليوم الأول في عملنا إما أن ننفصل في العمل الآن وأمضي في طريقي أو تقبلي بشروطي، أو أدفع لكِ وكأنني مستأجر.

حملت حقيبتها ومضت في طريقها دون أن تجيب بكلمة واحدة، أدركُ أنني كنتُ قاسيا معها، لكن المدام سميرة كانت تظن أنه لا فرق بيني وبين قطع الأنتيكا التي تحتفظ بها في منزلها، وأنني ملكٌ لها ولا يحق لأحد أن يأخذني منها، لا أنكرُ فضلَها عليّ، لكن حبها لي أصبح مملاً، الحبُ سعادة وليست ملكية خاصة، إن كانت سعادتها مع رجلٍ غيري فلتذهب، أنا لا أحبها ولا أكرهها، الشفقة والمال جعلاني أستمر معها كل هذه

الفترة، والاستغلال هذا كنتُ أبرره بأنه عمل لأنني تركتُ كل شيء ومضيتُ إليها تاركاً خلفي سنوات عمري التي أهدرتها في جمع المال منها.

أغلقتُ الصالة في المساء وتوجهتُ إلى بيتها، طرقتُ الباب، حين فتحتْ كان وجهها ملطخا بالكحل من كثرة الدموع وهي تتمايل، يبدو عليها أنها ثملة، دخلتُ وأمسكتُ يدها وأخذتها إلى الحمَّام، طلبتُ منها أن تغسل وجهها وتلحقني إلى المطبخ لنتناول شيئا معا. وبينما كنتُ أرتب الخضروات وأغسلها سمعتُ صوتا من الحمَّام، ركضتُ مسرعاً لأرى ما الذي حصل، حين فتحتُ الباب كانت قد كسرتْ المرآة بيدها، وبدأ الدم يسيلُ من يدها، تناولتُ المنشفة المعلقة على الجدار ولففتُ يدها وسحبتها إلى الخارج لأضمدَّ جرحها، طلبتْ مني أن أتركها وهي تبكي ولكني لم أفعل، كلُّ ما كنتُ أفكر به كيف سأنتهي من الورطة التي أنا فيها، كيف سأقنعُها بأنني لستُ لها؟

نشَّفتُ الدم بالمنشفة وذهبتُ لأحضر علبة الإسعافات الأولية، عقّمتُ مكان الجرح بالكحول ولففته بقطعة شاش طبي، قبّلتها على جبينها وطلبتُ منها أن تهدأ لنتحدث، أمسكتُ يدها وذهبنا إلى المطبخ، أكملتُ تحضير العشاء وأنا أحدثها ببعض النكات التي سمعتها من أصدقائي لأمتصَّ غضبَها قالت لي:

- لا أستطيع أن أتخيل نفسي بدونك، جلستُ في الصالون أشعر بلمساتك في كل مكان، تمددتُ على سريري رائحتك عليه، حاولتُ أن أُلهي نفسي بأي شيء لكنك لم تخرج مني، أنا لا أستطيع أن أخرج منك.
- حسنا، هل تقبلين على نفسك أن تكوني مجرمة؟ سألتها.
- مجرمة؟ سألتني مستغربة.
- نعم مجرمة، هل تقبلين أن تقتلي أحدا؟

- طبعاً لا، قالت لي.
- إن بقيتُ معك سأقتل شبابي، هل تفهمين هذا؟ يجب أن أجدَ إنسانةً قريبةً من عمري، أحبها وتحبني وأكمل معها حياتي بالشكل الطبيعي، نتزوج ويكون لدينا أولاد، وبقائي معك هو جريمة، يجب أن أعيش حياتي، كنا في علاقة وأخبرتُك في أكثرِ من مناسبةٍ أنه يوما ما سنفترق، واليوم هذا حان وقته، إن أردتِ سأترك لكِ كلَّ شيء، لكن لا أستطيعُ البقاء في سريرك ولا في حياتك، لا أستطيع الاستمرار في ذلك أكثر من هذا، إنني بحاجة إلى إنسانة حين أدخل معها إلى مكان ما أقول أنها حبيبتي، زوجتي، أي شيء، أنا في نظر أصدقائك مرافقك، وهم على علم أنه يوجد علاقة بيننا، مللتُ من هذا الاسم ومن نظراتهم، أنا شابٌ ويجب أن أعيش شبابي، قناع المرافق المخادع يقتلني، أريدُ أن أتنفسَ، أن أحيا، أن أقولَ أنا أحبُ فلانة لأني أحبُها وليس أبيع جسدي مثل عاهرة لم يقبل أحد النوم معها فلجأتْ إلى عجوز.

بدأتْ دموعي تنهمر وانتفخت أوداجي وأنا أتكلم معها بانفعال، انكسر كأسُ العصير في يدي وسالَ دمي حارا، وأردفتُ:

أنا لا أريد أن أكون كذلك، لكن حاجتي إلى العمل دفعتني الى الغلط، أعوام وأنا معك هذا يكفي هل فهمتِ؟ أم أكتبها لك بخط يدي على ورقة وأنسخ منها أكثر من نسخة وأعلقها في المطبخ والصالون والبرندة والحمّام وعلى مدخل البيت وفي كل مكان؟ هذا يكفي، لأني تعبت تعبتُ من أداء دور الممثل، تعبت من دور المخادع تعبت، هل تفهمين؟

لم تتفوه بكلمة، كانت صامتةً إلى أن أنهيتُ حديثي وأنا أبكي، لأنني ارتكبتُ الحماقة من أجل المال، ليتني كنتُ عاملَ نظافة، أو عتالًا، أو أيَّ شيء ولم أخدعها.

شعرتُ بأنها أيقنت بأننا يجب أن ننفصل، حين قالت لي:

- أتمنى منك زيارتي كلما استطعت، ولن أضغط عليك بشيء، عِشْ حياتك كما تريد، لكن تذكر أنني أحبك، وفي أي يوم تقصدني، بيتي هو بيتك وأنت الشخص الوحيد الذي أعطاني ما كان ينقصني.
- أنا لم أُعطِكِ ما كان ينقصك، أنا قمتُ بالتمثيل لكي أمارس هوايتي في الرسم، وأن أعمل في مكانٍ أستطيع أن أرسم فيه، وفي نفس الوقت يجلب لي المال الذي يغنيني عن عملٍ آخر، هذه هي الحقيقة، وقفتْ واقتربتْ مني احتضنتني من الخلف وقالت:
- أنت سعيد الذي جعل حياتي سعيدة، اذهب حيث تريد وافعل ما تريد وسأعطيك كل ما تريد، لكن لا تبتعد عني كثيرا، فقط أريدُك أن تزورني.
- طبعاً سأقوم بزيارتك وتقومين بزيارتي في المرسم لأنه بيننا عمل.
- لا لن آتي إلى المرسم غير مرة واحدة في الشهر، لأجل الحساب الذي بيننا.
- اتفقنا، قلت لها.
- قبل أن تذهب أريدك أن تذهب إلى منزل الشغالة نجوى لكي تحضرها إلى هنا.
- لماذا؟ سألتها.
- أشعر بأنني لستُ على ما يرام وأريدها أن تبقى عندي الليلة.
- حسنا، إذًا سأذهب الآن كي لا أتأخر أكثر.

خرجتُ من منزلها وتوجهتُ إلى منزل الشغالة نجوى، حين طرقتُ الباب فتحت ووقفتْ أمامي ترتدي بيجامتها الحمراء المخططة بالأبيض والنعاس قد اقتحم منصة عينيها، لكنها ابتسمتْ وقالت:

- أهلا سعيد، تفضل.
- شكرا لك، المدام سميرة تشعر بأنها ليست على ما يرام وطلبتْ مني أن آتي لأخذك معي إلى بيتها لتمكثي بجانبها الليلة.
- وهل حدث لها شيء؟
- لا هي تشعر بأنها ليست على ما يرام فقط.
- حسنا، تفضل اجلس حتى أقوم بتبديل ملابسي.
- لا، أفضّل انتظارك في السيارة لكي لا أسبب لكِ المشاكل في الحي، أنتِ امرأة مطلقة والناس لا جمارك على كلامهم، والوقت غير مناسب.
- لا لا، أنا لا يهمني كلام الناس، لأنهم سيتكلمون في النهاية ادخل، أمسكت بيدي وهي تسحبني إلى الداخل.

ذهبتْ إلى الغرفة الثانية وجلستُ أنا في الصالون، بعد قليلٍ نادتْ عليّ من الغرفة الثانية وهي تقول:

- ممكن أن تأتي إلى هنا لتساعدني.

بماذا سأساعدها؟ أنا لم أطلب منها أن تحضر حقيبة سفر أو أي شيء، كل ما في الأمر أنها ستمكث الليلة عند المدام سميرة.

وقفتُ أمام الباب؟ قالت:

- ادخل إلى الغرفة.

حين فتحتُ الباب لم أجدها في الغرفة حاولتُ أن أمدَّ رأسي إلى الداخل أكثر ربما كانت في مكانٍ ما لم أرَها فيه، وحين وصلتُ إلى منتصف الغرفة ولم أجد أحد خرجتْ من خلف الباب بلباسٍ داخلي أحمر اللون، أحسستُ بأنني أعمى لأنني لم أنتبه إلى جمالها في بيت المدام سميرة، نظرتُ أتأملها من الأعلى إلى الأسفل، بياضُ جسدها والشامات المنتشرة عليه بشكل عشوائي.. ماهذا؟ سألتها

اقتربت مني، وضعت يديها حول عنقي وقالت:

- حاولتُ أكثر من مرة أن ألفت انتباهك في بيت المدام سميرة، لكنك كنت منشغلاً دائماً عني، وفي إحدى المرات حين كانت المدام سميرة نائمة وأنت ترسم طلبتُ منك أن تأتي إلى الحمّام لتبحث معي عن سائل التنظيف، وحينها كنتُ بلا حمالة صدر وفتحتُ أزرار قميصي لتظهرَ أثدائي وأقوم بإثارتك، ولم تنتبه إلى ذلك، بعدها شعرتُ أنك لا تريدني فتوقفتُ عن ملاحقتك.

كانت تتكلم معي بشبق، وفمها قريبٌ من فمي لدرجة أنني شعرت بالهواءِ الساخن وهو يخرج من فمها، أثارتني كثيرا، لكن حين تذكرت علاقتي مع المدام سميرة شعرتُ بأنني يجب أن أتوقف عن العلاقات لأريح رأسي المنهمك، وقلتُ لها :

- لا أستطيع أن أقيم علاقة معك رغم أنكِ أثرتِني، ولم أتوقع أن تكوني بهذا الجمال، شعرتُ بأنني أراكِ للمرة الأولى، لكن اعذريني لا أستطيع. قالت:
- وهل أنت خائف من أن تعرف المدام سميرة إن حصل شيء بيننا؟
- ولماذا أخاف؟ قالت:

- لأنكما على علاقة معا، وأنا أعرف هذا جيدا، كل ألبستك الداخلية في خزانتها، وسمعتُها أكثر من مرة حين أكون في المنزل وهي تقبّلك وتتحدث عن الليلة الماضية وكيف كنت جميلاً فيها.
- اللعنة، وهل أحد غيرك يعرف هذا؟
- أغلب صديقاتها يعرفون ذلك، حين كانوا يأتون لزيارتها كنتُ أسمع بعض ما يقولونه عنكما.
- من بالتحديد؟ سألتها؟ قالت:
- أغلبهن.
- حسنا، دعينا نذهب الآن لأنني لا أريد أن أتأخر أكثر، عليَّ الاستيقاظ باكراً.
- وهل نصف ساعة ستجعلك تتأخر؟ أريد أن أبحر في جسدك لنصف ساعة فقط.

أشعلتْ بركاناً في داخلي، أمسكتُ بيديها ومددتها على السرير، أطفأتُ لهيب جسدها، ارتمت عليّ وقالت:

- اطلب مني ما تشاء لكن لا تتركني.
- أنتِ أيضا، أتمنى ألّا تطلبي مني شيئا بعد اليوم، وأنا لا أستطيع أن أعدك.

أوصلتها إلى بيت المدام سميرة وعدتُ إلى البيتِ لأنفضَ غبارَ الخداع عن نفسي وأطهرها بحديث أمي. ليتني أستطيعُ أن أروي لأحد ما بداخلي، وأزيح هذا الجبل الجاثم على صدري، انتهتْ حياةُ الذل ولم أشعرْ بالسعادة، لديَّ من المال ما يكفيني لأفتح مرسما خاصا بي ولم أشعر بالسعادة، كنتُ أظن أن المال يجلب السعادة، لكن الذي اكتشفته أنه كلما زاد رصيدك المالي زاد رصيد الهم عندك، أنا سعيد بأن أمي

وإخوتي يعيشون حياة كريمة الآن، وأنا وصلتُ إلى مكانة يصعب وصول أغلب الفقراء إليها، لكنني حزين.

دخلتُ إلى البيت فوجدتُ أمي الجميلة تجلس وحيدةً في الحوش، تشبه الملاك، شعرتُ أن هناك هالة بيضاء ارتسمتْ فوق رأسها، امتلأ وجهُها بالتجاعيد، ظهرها قد انحنى، الشيبُ يغطي شعرَها، كم كان شكلُها جميلًا، تمنيتُ أن أركضَ إليها وأقبّل يديها وقدميها وكل ما فيها، أنا فعلتُ المستحيل لأحميَها وأجعلَها تعيشُ بهناء لكنني أفتقدها، أشعرُ بأنني لم أرَها منذُ زمنٍ بعيد. جلستُ معها لنتحدث قليلا، وحدَها الأم من تسمعك بلا مقابل في هذه الحياة ووحدها من تعطي بلا مقابل، وتنصح بلا مقابل، ولا غاية في نصيحتها غير الخير لك، أخبرتها عن كريستين وكيف أنني أشعر بالغربة منذ أن عدتُ من بيروت وإلى اليوم ولم أستطع أن أشعر بالراحة رغم المرسم والذي أنا فيه، قالت:

- إن كانت تحبك سترضى بأن تتزوجك على أي دين، وأنا لا أطلب منك أن تنساها لكن الأفضل أن تكونوا أصدقاء فقط، وفي النهاية أنت من تقرر لأنك لم تعد صغيرا، وإن أصبحت زوجتك في يومٍ من الأيام، سأفرح إن أسعدتك، وأحزن إذا سمعتُ عن خلاف بينكما، فكر أكثر يا بُني، أنا لا أقول عن الفتاة بأنها ليست جيدة لكن انظر إلى الأمور من الأعلى بمنظور خاص، يعني أن تنظر إلى العلاقة وكأن أحد أصدقائك يروي لك قصة حبه عن علاقته مع فتاة ليست من محيطه الاجتماعي والثقافي والديني، وقرر بعدها، والقرار الذي ستأخذه حينها أنا سأوافقك عليه أياً كان.

قبّلت يدها واضعاً رأسي على صدرها وهي تمسح شعري وتدعي لي. كم أنتِ جميلة يا أمي.

- بالمناسبة كيف حال جدتي، هل ما زالت كما هي؟
- كما هي، وفي الفترة الأخيرة بدأتْ تفرض رأيها في لباس أختك جيهان وتطلب منها أن تخفي شعرها، وحين لا تناقشها أختك تبدأ بالشتم وتصرخ بأعلى صوتها وفي النهاية تذهبْ إلى غرفتها بعد أن ينتهي حديثها بعدم الرد من أحد، لكن أخافُ أن يأتي يومٌ ويقوم أخاك جوان بتصرفٍ جنوني معها، لأنه حاول ذلك لكنني منعته.

سأتحدث معها بأسلوبٍ مختلف هذه المرة، توقفتُ وتوجهتُ إلى غرفتها وطلبتُ من أمي ألّا تتدخل، فتحتُ الباب وأشعلتُ الضوء، استيقظتْ وقالت لي:

- ماذا تريد مني أيها العاق؟
- أريد التحدث معك لخمس دقائق فقط، ويجب عليكِ أن تسمعيني للنهاية وأن تنفذي ما أقوله لك أو سنترك البيت لكِ وحدك وتبقين فيه وحيدة تتصارعين مع الجدران، ولا أحد من أولادك سيأتي ليقيم معك في نفس البيت، وأنتِ تعرفين هذا، ويأتي يوم تموتين فيه ولا أحد يعلم حتى تنتشر رائحة جثتك في الحي كله، حينها لا القبر سيرضى بك ولا خارج القبر لكِ مكان، لذلك اسمعيني بدون مقاطعة ونفذي ما سأطلبه منك، أنتِ جدتي ولا أستطيع نكران هذا، الراتب الذي تحصلين عليه من الدولة يكفي لمصروفك الشخصي، ونحنُ لم نطلب منكِ أن تشتري أي شيء للبيت حتى أيام الحرمان، ولا دفع الفواتير حتى وإن كانت متراكمة، لذلك عليكِ

العيش معنا بصمت بدون أن توجهي أي ملاحظة لأي أحد من إخوتي أو أمي، لديكِ كلمة جميلة انطقيها، لا تملكين كلاما جميلا في قاموسك اصمتي فقط بدون أن تتكلمي بحرف وإلا تركنا البيت أو اذهبي إلى دار العجزة واتركينا أن نكمل حياتنا بسلام.

- ستطردني من بيتي الذي هو لي وأنا لم أطالبكم بيومٍ من الأيام بالأجرة، أنت وقح. قالتها وزمت شفتيها غاضبة.
- حسنا، جدتي سأدفع لكِ أجرة البيت من اليوم، لكن بشرط ممنوع أن تتكلمي بحرف مع أحد، وممنوع أن تقتربي من الطعام الذي نأكله، أو سأدفع لكِ الإيجار وأنتِ ادفعي ثمن كل وجبة تأكليها معنا، وبالإضافة إلى ذلك سنتقاسم كل المصاريف الأخرى لأن البيت ليس طعام فقط، ما رأيك؟

صمتت ولم تجاوبني لكنها تمتمت بكلامٍ غير مفهوم.

عدتُ إلى غرفتي والفراغ يحاصرني، كريستين ماذا تفعل يا ترى؟ هل هي نائمة أم ماذا؟ سرقني النوم وأنا أفكر فيها، استيقظتُ في الصباح على صوت أمي وهي تتكلم مع جدتي وتقول لها :

- سعيد لم يقل لكِ شيئا فيه قلة أدب، أنتِ تتدخلين في كل شيء، حتى الأمور التي لا تعنيكِ .

خرجتُ إلى الحوش وأنا في لباس النوم، ونظرتُ في عيون جدتي، أشرتُ بسبابتي إلى غرفتها أي أن تذهب إلى غرفتها، حدقت في عيني وهي مكفهرة وقالت لي:

- عليكم أن ترحلوا من البيت وإلا سأحضر الشرطة تخرجكم من هنا.
- وعلى أي أساس ستطردينا من المنزل؟

- على أساس البيت لي.
- لا الملكية هي للورثة، والورثة هم أعمامي وأبي وعمتي، وأنتِ لاحصة لكِ فيه اذهبي إلى غرفتك ونفذي الذي قلته لك بالأمس، لكن احذفي من الحديث قصة خروجنا من البيت، لأنني لن أخرج وسأبقى هنا، وكل يوم سأفتح لكِ محاضرة من العيار الثقيل.
- اليوم سأذهب إلى البريد لأحضر راتبي، حين أعود سأعطيك المال لكي تصرفهم إلى الليرة التركية لأنني أرغب في زيارة إخوتي في عنتاب، إلى أن أعود أتمنى أن تكون وجدتَ الحل في البيت، لأن كلامك لم يناسبني بالأمس ونحن لانستطيع الاستمرار سوياً في البيت نفسه، لذلك أقترح عليك أن تبني لي غرفة وحمّاما في السطح إلى أن أعود.
- فكرة جيدة ولمَ لا، والغرفة على نفقتي الخاصة سأبنيها لكِ.

ذهبتْ إلى غرفتها وجلستُ مع أمي وإخوتي في الحوش، قالت أختي جيهان:

- أريد أن أطرح عليكم شيئا كنتُ أحاول منذُ زمن أن أخبركم به.
- تفضلي أختي، ردَّ أخي فرهاد.
- هناك شاب تعرفتُ عليه في الجامعة منذُ سنة، والآن نفكر في الخطبة. قالت أمي:
- لمَ لا، إن كان شابا جيدا .لكن ما يهمني أن تفكري جيدا في قرارك هذا، وأنا وإخوتك معك في كل شيء.
- لديه مشكلة صغيرة فقط، إنه فقير.
- وهل الفقر عيب يا أختي؟ سألتها. قالت:

- لا وأعرف أننا كنا محرومين والآن الحمدلله على مايرام، لكن إن تزوجنا سنقيم في بيت والده، والبيت غرفتان فقط، والدتهُ ماتت منذُ سنتين ووالده متزوج من امرأة أخرى.
- أنا لا مانع لدي إن كنتِ تحبينه وتشعرين أنه الرجل الذي سيحميكِ في المستقبل. قلتُ لها.
- أخي فرهاد ما رأيك؟ سألت أختي.
- رأيي من رأي سعيد وأمك، طالما الشاب يحبك وتحبينه إذًا لا مانع لدينا من أن يأتي إلى هنا هو وعائلته.

ببراءة تامة وعينان تدمعان قبّلت يد أمي وقبّلتني أنا وأخي، وقالت:

- سوف أسأله اليوم متى يستطيعون الحضور.

افترقنا بعدها إلى عملنا أنا وأخي فرهاد والباقي إلى مدارسهم وأختي إلى جامعتها، كانت سعيدة جدا، كم تمنيتُ أن يكون أبي هنا لتكتمل الصورة في هذه المناسبة.

دخلتُ المرسم وشعور الفراغ لم يرحل مني، أحتاج كريستين، أشعر بالغربة هنا، سأذهب إلى بيروت حين أنتهي من لوحات المدام خولة، وأنا أقول هذا في نفسي دخلت المدام خولة بفستانٍ جديد فائقَ الروعة، وعيونها مليئة بالأسئلة تنتظرني أن أعطيها رأيي بالفستان والمظهر الجديد، لكن لم أتكلم، بقيتُ صامتاً وأنا أتأملها، لأزيد جرعة الإعجاب بالصدمة، وحين طال انتظارها قالت:

- لم تعطني رأيك مسيو سعيد؟ قلتُ لها:
- أحاول التركيز فقط هل أنتِ مدام متزوجة أم فتاة؟ هل أنتِ أم ولديكِ ولدين أم أنكِ أخت لولدين ولديكِ أم؟

أبحرتُ في كلامي لأضع النقاط على الحروف معها وأبدأ برحلة الاستفادة منها، لكن هذه لن تكون مثل المدام سميرة، هذه متزوجة ولا تستطيع أن تستقبلني في بيتها لأكثر من فنجان قهوة، حين انتهيت من الكلام قالت لي:

- نحن لم نلتقِ غير مراتٍ قليلة، لكن بصراحة لا أشعر أنني فتاة إلا حين ألتقي بك، أشعرُ بأنني في العشرين من عمري وأريد أن أبحث عن شاب أقيم معه علاقة مثل المراهقين، نسرق القبلات من خلف الجدار ونلعب ونركض، أنت فنان في الرسم والكلمات سعيد.
- لا لستُ كذلك، أنا كما قلتُ لكِ من قبل أحاول أن أجد كلمة تناسب الجمال الذي أمامي، أنتِ تجعلينني أفقد توازني، فقط حين ألتقي بكِ أشعرُ بأني ذاك الرجل الذي سيضع حبيبة أحلامه على حصانٍ أبيض ويسافر معها إلى مشارق الأرض ومغاربها، كم هو محظوظٌ زوجك مدام، قلتُ هذا لأجّسَ نبضها عن زوجها. قالت:
- ليتني أراه مثل ما أراك، يستيقظ في الصباح ليقرأ الجرائد وهو يتناول فطوره، وبعد الفطور مباشرةً يذهب في جولة تفقد بين المعامل، حين يعود يكون التعب والارهاق قد احتلا جسده، وقبل أن يصعد إلى غرفة النوم يعلو شخيره وهو جالس على الأريكة في الأسفل، وفي أغلب الأيام مسافر، حياتي معه مجرد روتين لأعتني له بثيابه والأشياء الخاصة التي تخص العمل.
- أشعرُ بالخيبة حين أسمع قصة مثل هذه من امرأة جميلة مثلك.

أعددتُ القهوة وبدأتُ أرتب الألوان والريش لننطلق في اللوحة:

- مدام هل أحضرتِ الفستان معك؟ سألتها.

- نعم هو معي، البسي الفستان إلى أن أجهز القهوة. قالت:
- عليك مساعدتي، لا أستطيع أن ألبسه لوحدي، من الخلف هناك بعض الأشرطة يجب ربطها..

حين قالت هذا قلتُ في نفسي سأبدأ اليوم برحلة السفر في جسدها، قلتُ لها:

- سوف أقفل باب المرسم وآتي اليكِ، اسبقيني أنتِ إلى الغرفة والبسي الفستان إلى أن آتي.

أقفلتُ الباب وذهبتُ إلى الغرفة، وجدتها جالسة على الأريكة بنفس الفستان الذي أتت به.

- مابكِ؟ سألتها مستغربا.
- لا شيء، لكن حتى الفستان هذا لا أستطيع أن أخلعه بمفردي، دائماً الخادمة تساعدني حين ألبس. هل تستطيع مساعدتي؟ قالتها ونبرة الشك تحت لسانها خوفاً من أن أرفض. قلتُ لها:
- بكل سرور، سيكون لي شرف اللقاء بجسد أجمل مدام في حلب.

بانَ الخجلُ عليها واحمرَّ خدَّاها، وبكل ثقة توجهت إلى خلفها لأفتح سحاب الفستان.

- قفي من فضلك، قلتُ لها.

حين وقفتْ أنزلتُ السحاب لنهايته، فوق مؤخرتها تماما، رائحة العطور والكريمات تستفزني أن ألقي بها على الأريكة وأمتص منها كل الروائح، قلتُ لها:

- بإمكانك أن تشلحيه لقد انتهيت من السحاب.

حين شلحت الفستان وبقيت بلباسها الداخلي الأحمر والمطرز وكأنها كانت مستعدة لحفلة خاصة غير الرسم، ضربتُ بكفي على جبيني وصرختُ بصوتٍ منخفض:

- ماهذا! أيعقلُ أن يكون هذا الجسد لامرأة متزوجة ولديها ولدَيْن! لا أصدق.
- ولماذا لا تصدق؟ سألتني بغنج.
- أنا فنّان وتدربتُ على تشريح الجسد الأنثوي جيدا، ووصلتُ إلى نتيجة أن الأنثى يبقى جسدُها على حاله حتى تتزوج، بعد الزواج تطرأ التغيرات على بعض أجزائه، وبعد الحمل والولادة يترهل الجسد بشكلٍ ملحوظ عند أغلب النساء، وجسدك يبدو عليه أنه لأنثى لم تنجب ولم تتزوج من الأساس.

تماديتُ في المبالغة لأصل إلى هدفي في إقامة علاقة معها والاستفادة منها قدر الامكان، المدام سميرة أرملة لا يوجد شيء تخسره وتخاف منه، أما المدام خولة متزوجة ومكانتها الاجتماعية تجعلها تفكر ألف مرة قبل الوقوع في الغلط، وكان يجب علي أن أقوم بعلاقة معها لأجني منها مايكفي لأفتح مرسما في بيروت وأشتري بيتا هناك لأصطحب أمي وإخوتي معي.

- شكرا لك على المجاملة، قالت لي.
- لا مدام خولة أنا لا أجامل، فقط أقول ما أراه، وكما قلتُ لكِ أنا فنان ولا أستطيع إخفاء اللوحة الجميلة في وصفها، وجسدك هذا لوحة فنية، ويصعبُ على أي فنّان رسم هذه اللوحة المتقنة. قالت:
- ساعدني في ارتداء الفستان كي نكسب الوقت قبل أن يأتي الزبون التالي، مُدَّ يدك وساعدني، هيا.

مددتُ يدي من الخلف إلى منطقة الخصر، انحناء خصرها وكأنه مرتبٌ بشكلٍ اختياري، لم أرفع يدي لأربط الأشرطة من الخلف، أبقيتُ يدي على خصرها وهي تنتظر مني أن أساعدها، لكنني اقتربتُ بشكلٍ أكثر، ألصقتُ فمي بعنقها من الخلف، وبدأتُ أنثر زفيري على عنقها، بدأت تلوي عنقها بهدوء في حالةٍ محيرة، تريد الهرب من أنفاسي، لكنها شعرتْ بالنشوة، أغمضتْ عينيها وقالتْ هذا يكفي، بطريقةٍ تريد مني أن أهجم كي لا تفقد عزة نفسها وأقول كم هي رخيصة، لا مانع من الهجوم، لكن يجب أن يكون الهجوم ملتفا من جميع النواحي بحيث أجعلها تكره الرجال وتتعلق بي، لامستُ بشفتيّ عنقها وأنا أزفرُ بعضَ أنفاسي على عنقها لأجعلها مرتخية مثل قطعة القماش، تلمستُ صدرها من فوق لباسها فتأوهتْ وقالت لا، لا أريد، كفاك. قلتُ:

- لا تتكلمي، لأنني في حضرة إعداد لوحة سأذكرها إلى آخر يومٍ في عمري، دعيني أضعُ ألواني على جسدك المخملي لأشبع منه، تذوقتُ نساءً كُثر وسأتذوق في المستقبل أكثر، لكن الذي أنا متأكدٌ منه أنني لن أجد جسدا ناعما مثل هذا الجسد، ولا رائحة أجمل من هذه الرائحة، أسندتها على الأريكة وبدأتُ ألتهمُ تفاصيل جسدها بهدوء إلى أن جعلتها تفقد توازنها وهي تطلب مني أن أريحها وأزيل الستارَ عن عضوي، وقفتُ عاريا أمامها وكانت مثل الأرملة التي فقدت زوجها ومرَّت أعوام وهي لم ترَ العضو الذكري، تمعَّنت فيه وكأنها ترى شيئا غريبا، وقالت لي كم هو ثخين، بدأت تلتهم عضوي وكأنه سيهرب بعد قليل وتفقد متعتها به، تلاهثنا وتعالتْ أصواتُ أنفاسنا، تمددتْ على الأريكة طالبة مني أن أُدخل عضوي، أردتُ أن ألبي

طلبها، لكن كان يجب أن أجعلها تتوسل إليّ حتى تصل لذروة المتعة، تمددتُ فوقها وأنا أقبّل كل مكان تطاله شفتاي، بدأتْ تتوسل وتقول أرجوك لم أعد أحتمل هيا أدخله، ولأنه لم يبق لديَّ من الصبر أكثر أدخلتُ عضوي معلناً الحرب، استجمعتُ قواي كي أجعلها تركع لي وهي تطلب مني، بدأت تتأوه وكأنها تريد البكاء من كثرة السعادة التي كانت فيها وسائلي المنوي في قيلولة لا يريد الاستيقاظ، أجهزتُ عليها وبدأت بالتوسل أكثر إلى أن بدأتْ تصرخ، ولأجعلها تتوقف عن الصراخ كي لا يسمع الجيران أفرغتُ سائلي في داخلها وهي تقول لا ليس في الداخل، ربما أحبل منك، تقول لا وهي تتلذذ به، تريد ولا تريد، شعورٌ لذيذ لكن فكرة الحمل ترعبها، فعلتُ ذلك لأجعل دمي يختلط بدمها، حين تختلط الدماء تتوطد العلاقة بين الشخصين أكثر، تصبح هناك شارات مخفية يسهل على أي كائنٍ الشعور بذلك حين يتعمق في النظر إلى الشخصين. انتهت حفلتنا وهي ممددة على الأريكة ولا قوة لديها أن تتكلم بشكلٍ مفهوم، كانت تهذي وهي تمدح رجولتي وعضوي، وتتغزل بي، لم أشعر من قبل ما شعرت به اليوم، لكن أريد منك شيئا سعيد قالت لي

- لا تقولي لي سعيد من اليوم حين نكون لوحدنا، قولي حبيبي سعيد، تفضلي واطلبي يا أميرتي.
- هذا الأمر سيبقى للأبد بيننا، أتمنى منك ذلك، أنا لم أفعلها مع أحدٍ من قبل، لكنك كُنتَ لذيذاً جدا.

- كيف تطلبين مني هذا الطلب؟ وأنا الذي كنتُ سأطلب منكِ هذا الشيء، إن كانت هذه المرة الأخيرة التي نلتقي فيها فأنا لن أقول لأحد ولن أنسى أجمل جسد في حياتي، أتمنى منكِ أن يبقى هذا الشيء بيننا، يجب أن تلبسي الآن على ما أظن لم يتبقَ لدينا الوقت للرسم اليوم، سنبدأ غدا إن أردتِ.

حينما انتهينا قمتُ بفتح باب المرسم، دخل الهواء عليلاً، ارتعش جسدي لأول مرة، كانت أيامي مع المدام سميرة وكأنها أشبه بالموظف الذي سيتقاعد قريباً، يشعر بالملل، والوقت لا يمضي ولا يستطيع التوقف من أجل الراتب، أما خولة كانت رائحتها تفوق رائحة أنثى جهزت نفسها لليلة عرسها.خرجت خولة وهي تسير ببطء وتقول لي كيف لي أن أقود سيارتي إلى المنزل بعد الذي فعلته معي؟

لم تكن قادرة على فتح عينيها بشكلٍ جيد، أمسكت بيدي وهي تنظر في عيني وقالت:

- موعدنا غدا .

خرجتْ وأعلنتُ النصر، وقريباً سأنقل المرسم إلى بيروت وأبقى بجانب كريستين.

أعددتُ قهوتي وجلستُ، شعورٌ غريب يتملَّكُني، سعادة يخيم عليها هالة حزن.

اعتدتُ على الطعنات دائماً بين الفترة والأخرى، لم يكن الصفاءُ يوما صديقَ أيامي، دائماً هناك شيء يعكر صفوَ حياتي ويقلب الموازيين رأساً على عقب، كانت القصة في البداية المال، بدأت بوفاة أبي، ومن بعدها دخول أمي السجن، كانت سعادتنا ألَّا تسوءَ أمورُنا أكثر، كنا نكتفي بخبزٍ يابسٍ وشوربة العدس، كنتُ أمشي من السكري إلى السليمانية وأمسحُ زجاج السيارات وأعود لمسح الأرض في الفندق وأجمع القمامة وأحمل الكراسي وأنظفُ الحمامات وأرمي أعقاب السجائر والمحارم من غرف العاهرات وفتيات الليل، لأكسبَ في شهر ما أكسبه الآن في لوحتين أو ثلاث، لكن

حينها كنتُ أسعدَ رغم التعب والقلة، حين كانت أمي تدعو لي كنتُ أشعرُ براحةٍ أكثر، رغم سعادتها الكبيرة الآن، بعد أن أصبح اسمي متداولا كثيرا بين الناس، ولم نعد نحتاجُ شيئا أو نخاف حين يُطرق الباب كما في الماضي، الآن. مرسمٌ كبير، سيارةٌ خاصة، أتناولُ الطعام في المطاعم والفنادق، أمجُ من غليوني وكأنني ابن آغا أو وزير، ألبسُ أجمل الألبسة، لديَّ حساب خاص في البنك ولا أشعر بالراحة التي كنتُ أشعر بها أيام الحرمان. لماذا؟

وأنا مسافرٌ في أفكاري وتقلبات الأسئلة في مخيلتي دخلتْ الفتاة على موعدها، صاحبة اللوحة العارية.

- أهلاً بكِ، تفضلي.

قلتُ وأنا أرسمُ ابتسامةٍ مصطنعة وأحدق إلى قزحية عينيها لأحاول فهم سر تلك الفتاة الخجولة . دخلت وجلست على الكرسي وسألتني:

- متى سنبدأ؟

- الآن بعد أن نشرب قهوتنا.

سكبتُ لها فنجان قهوة وأنا أحاول معرفة ما خلفها، كررتْ إعجابها بأعمالي بشكلٍ كبير. انتهت من شربِ قهوتها وقالت لي: " أنا جاهزة".

- تفضلي إلى الغرفة واستعدي إلى أن أغلق الباب، لا أريد إحراجك ربما أتى أحد وأراد أن يتنقل في المرسم.

أقفلتُ الباب وعدتُ إليها، وجدتها تجلسُ على الأريكة بلباسها، وليس كما اتفقنا.

- لماذا لم تجهزي نفسك؟ سألتها باستغراب.

- محرجة قليلًا وخائفة.

قالتها والدمعة ارتسمت في مقلتيها، مثل فتاة لاتريد أن تتزوج لكنها قبلت بالعرض لترضي والدها.

- اللوحة لن تنجح إن لم تكوني جريئة، فلماذا أنتِ خائفةٌ ومحرجةٌ إذًا؟

زفرت زفرة قوية مُخرجة الهواء بقوة من فمها وتوسعت فتحات أنفها وقالت:

- أنا لا أريد، لكن بصراحة أنا على علاقة مع شاب وهو يريد مني هذا.

- ولماذا توافقين إن لم تكوني مقتنعة باللوحة؟

- لأنه هددني أنه سيخبر والدي بعلاقتنا.

قالتها والدموع تنفجرُ رغما عنها.

- وما الدليل إن أخبر والدك؟

سألتها والحزن سيطر عليَّ، وشعرتُ بشيءٍ يخنقني.

- الدليل أنني كنتُ أستقبله في غرفتي حين يكون أبي في العمل وإخوتي في المدرسة، سيقول لأبي كل شيء عن تفاصيل البيت، ووالدي لايرحمنا حين نرتكب خطأً ما.

تذمرتُ في نفسي، وامتلكني شعورها، الحياة ظلمتني ولم أجد أحدا يقفُ بجانبي ويساعدني ويمسح دمعتي، أكره الظلم وأشعرُ بشعورٍ غريب حين ألتقي بشخصٍ ظالم، تتملكني رغبة في أن أمدَّ يدي إلى عنق الظالم وأخنقه إلى أن يموت لكي ترتاح الحياة من ظلمه.

- ولماذا استقبلتِه في غرفتك، هل تحبينه أم كانت مجرد نزوة؟

- أحببته جدا للدرجة التي كنتُ أحرم نفسي من كل شيء لأجله. قلتُ لها:

- لن أرسمك، ولن أدعه يخبر والدك بشيء، ولن يعترض طريقك، لكن إلى أن أتدخل أريد منك أن تقولي له أيام وتصبح اللوحة جاهزة، وأن تستمري كما كنتم من قبل.
- وماذا سوف تفعل؟ سألتني والخوف يرتسم بعينيها.
- لن أفعل أكثر من اللازم، أعطني عنوانه واسمه واتركي الباقي لي، بضعة أيام ويكون كل شيء على ما يرام.

نظرت إلي مستغربة وهي تحاول أن تكتشف لماذا سأقوم بهذا، الحيرة والاستغراب والخجل في نظراتها واضحة، ولكي أشبع فضولها لقيامي بهذا قلتُ لها أكره الظلم، ولا أحب أن أجد مظلوما أستطيع مساعدته ولا أقوم بذلك، ولا أريد منكِ شيئا، بالمناسبة ما اسمك؟

- نيروز، سأسجل لك اسمه وعنوانه وإن أردت سأعطيك صورته هي معي في البيت
- لا أظن أني سأحتاجها، اذهبي الآن وكما اتفقنا أن تقولي له بأنكِ ستعطيه اللوحة قريباً، وعودي إليّ بعد ثلاثة أيام.

ذهبت نيروز والخوف والطمأنينة يتصارعان في ملامح وجهها، الخوف منه والطمأنينة من الذي سأقوم به على أمل أن تنتهي من حالة الخضوع لأوامر حبيبها.

تربعتُ على كرسيّ أتأمل لوحة المدام خلود، يجب أن أنتهي من لوحاتها لأذهب إلى بيروت، اشتقتُ لكريستين، بدأتُ العمل، الألوان تزيح ستارة الحزن عني بعض الشيء، مع كل لون أسافر في رحلة، مع كل لون أكتب قصيدة حب، كنتُ عندما ألتقي بألواني وريشي في الصباح أقول لهم صباح الخير، كيف حالكم، اشتقت إليكم، كنتُ

أشعر بأنهم يسمعونني ويحبونني مثلما أحبهم، وأنا في رحلتي مع ألواني دخلت نجوى المرسم وهي تتلاهث، وقفتُ وركضتُ باتجاهها وأمسكت كتفيها:

- ما بك؟ لماذا كنتِ تركضين؟

سألتها وشعرتُ بأن هناك مصيبة وراءها. قالت لي:

- المدام سميرة في المشفى
- وماذا حصل معها؟ سألتها.
- ذهبتُ للتسوق اليوم وحين عدت كانت مستلقية على الأرض وهي ترتجف، كان بيدها علبة دواء.
- أي دواء تقصدين؟ سألتها.
- Lexotanil.
- وأين هي الآن؟
- في مشفى الدكتور سامح، وطلبتْ مني أن آتي وأخبرك أن تذهب إليها بسرعة.

المدام سميرة تحب نفسها كثيرا لدرجة الأنانية، هذا يعني من المستحيل أن تنتحر، على ما يبدو أنها تجرعت القليل من الكحول مع حبة دواء لكي يختل شكلها وتوازنها لتثبت للأطباء أنها ليست على مايرام، حينها أذهب إليها وأشفقُ عليها لكي تتلاعب بعواطفي وأبقى بجانبها، إذًا هذه تمثيلية لا أكثر، هذا الذي استنتجته بيني وبين نفسي، وإن ذهبتُ إليها الآن سأبقى بجانبها لفترة كي أضمن أنها تعافَتْ وبعدها تخرج لي بتمثيلية أخرى، يجب أن أنتهي من هذه المهزلة بأي شكلٍ من الأشكال، هي تمثل يجب أن أقوم أنا أيضا بذلك. أمسكت بكتفي نجوى وحدقتُ في عينيها وقلت :

- عودي إلى المشفى وقولي لها المرسم كان مغلقا وسعيد لم يكن هناك، انتظرتُ قليلًا، وحين تأخر طلبتُ ورقةً وقلما من المكتب العقاري الذي بجانبه وكتبتُ له أن يأتي إلى المشفى فورَ ما يصل، وتركتُ له عنوان المشفى ورقم الغرفة، واليوم مساءً سنسهر سويا أنا وأنتِ في بيت المدام سميرة، ونأخذُ حماماً في البانيو ونشرب الشامبانيا معا، تكلمتُ معها بهدوء لأمنعها من التفكير في أن تقول الحقيقة للمدام سميرة.
- كيف سنسهر في بيت المدام؟ سألتني نجوى.
- ما عليكِ الآن، اتركي الموضوع لي، اذهبي فقط وابقي بجانبها إلى أن آتي.

ذهبت نجوى وأنا عدتُ إلى لوحتي لأُكمِلها، المدام سميرة ترفض فكرة أن أبتعد عنها ولو وهبتني كل ثروتها، لا يهم، المهم أن أبقى بجانبها، لذلك يجب عليّ أن ألقنها درسا قويا من الحلقة الأولى في مسلسل الكذب الذي ستلعبه معي، بهدوءٍ تام أكملتُ لوحتي وتطاير دخانُ التبغِ من الغليون في الجو، وباخ يمضي في مقطوعته وأنا مسافرٌ بين ألواني، حتى أصبحت السابعة مساءً، قررتُ الذهاب إلى المشفى لأنهي الحلقة الأولى من مسلسل المدام سميرة.

دخلتُ غرفتها في المشفى، كانت مستلقيةً على السرير ونجوى بجانبها، لم أكن متلهفا كما كانت تريدُ أن تراني، بل كنتُ هادئاً وكأن شيئا لم يحدث.

- حمدا لله على السلامة. قلتُ لها، ما الذي حصل؟ سألتها ببرود.

أرخت شفتها السفلى ولوت عنقها باتجاه نجوى تطلب منها أن تتركنا لوحدنا بلغة الإشارة، خرجت نجوى من الغرفة وبقينا لوحدنا أنا وهي، لم أجلس على الكرسي حتى، أمسكت بيدي وقالت لي:

- لقد تأخرت.
- جاوبتها بتعجرف أنا لم أتأخر، في اللحظة التي آتي فيها تكون اللحظة المناسبة، ماذا حصل معك؟
- لا أستطيع أن أخرجك من نفسي، كيفما التفت أرى لمساتك في البيت، أشياؤك ورائحتك وكل شيءٍ فيك، لا يفارق مخيلتي، أنا أحبك يا سعيد أحبك.

قالت لي هذا وتحاول أن تجعلني أشفق عليها، ولكي أؤكد لها أنني لستُ سعيد القديم قلتُ لها:

- أنا لستُ لك، وأنتِ لستِ لي، كل ما في الأمر أنكِ تحبين نفسك وسعيد كان يسعدك، لهذا أطلبُ منكِ أن تذهبي إلى البيت غدا وتكملي حياتك بدون سعيد، والليلة ستبقين هنا لوحدك، نجوى يبدو عليها الإرهاق، سأوصلها إلى البيت لتستريح وغدا سوف تأتي لتخرجا معا من المشفى.

أمسكت يدي وقالت:

- ابقَ معي الليلة فقط.
- لا إن بقيت الليلة معك ستصبح حالتك أسوأ، لأنني لن أكون كما كنا سابقاً، حاولي أن تعتادي على حياتك الجديدة بدوني، وأنا أنصحك أن تجدي شخصا من عمرك تكملين معه ما تبقى من حياتك.

خرجتُ من الغرفة وهي لم تقل أي شيء بعدها، أمسكتُ بيدِ نجوى وذهبنا إلى منزل المدام سميرة لنكمل ليلتنا التي وعدتها .

في الصباح تمددتُ على سرير المدام سميرة ونجوى ما تزال نائمة، تذكرتُ تلك الأيام التي قضيتها في السرير مع المدام سميرة، كم تمنيتُ لو بقيتُ عامل نظافة وماسح زجاج السيارات، كان أفضل مما فعلت، حالة كسل كانت تتملكني وأنا أمشي إلى المطبخ لأعدّ القهوة وأتجه بعدها إلى البيت قبل الذهاب إلى المرسم.

جلستُ في حديقةِ المنزل أعيدُ ترتيب أموري، بأي اتجاهٍ يجب أن أمضي، كريستين على قائمة أعمالي بعد أن أنتهي من تغيير البيت، سأستقر في بيروت لأبقى بجانبها، أنا لا أستطيع أن أتخيل نفسي وأنا أكمل حياتي بدون كريستين، اشتقتُ إليها، إلى ضحكتها، عينيها، أنفها المبوز، شعرها المتماوج على الكتفين، اشتقتُ لكل ما فيها.

استيقظتْ نجوى وحالة الكسل تتملكها أكثر مني، كانت ليلة ساخنة، أكثر من ساعتين في الحمّام، وبعد الحمّام اشتدّ الحبُ بيننا إلى أن أصبحت الواحدة بعد منتصف الليل. طلبتُ منها أن تجهز نفسها لأوصلها إلى المشفى في طريقي. جاءت المدام خولة في موعدها، جلسنا نحتسي قهوتنا، ذهبنا إلى الغرفة لنبدأ لوحتها، لكن لم نبدأ لوحة الرسم، لأنني رسمتُ بألواني الخاصة لوحة على جسدها، كما حصل في الأمس.

في طريقي إلى البيت مساءً، ذهبتُ لزيارة أحد أصدقائي في الحي الذي نقيم فيه، اسمه علاء، علاء كان مدمنا على الكحول، فقيرا جدا، كان يحصل على المال ليشتري العرق مثل قطاع الطرق، يجلسُ في الحي مع أربع شباب مدمنين مثله، حين يمرُ غريبٌ يعترضون طريقه بالسكاكين والعصي يطالبوه بدفع ضريبة المرور، وحين يسأل الغريب لماذا هذه الضريبة، يقولون له نحنُ حراس الحي، وأنت مررت من حي باريس حلب، لذلك يجب عليك أن تدفع. قصدته لأطلب منه أن يذهب إلى منزل الشاب الذي يهدد

نيروز، لكي يتوقف عن مطالبته باللوحة، حين وصلتُ إليه كان كعادته، يجلس مع أصدقائه منتظرين مرور الغريبِ، لشراءِ حاجتهم من العرق للمساء، قال لي :

- لم يأتِ غريب اليوم من هنا يا سعيد، وأرجو منك أنت أن تساعدنا لنشتري العرق. قلتُ له:
- كم زجاجة تحتاجون؟ قال لي:
- زجاجتين، ثلاث، أربع، لا يهم، المهم أن نشرب. قلتُ له:
- وما رأيك في خمس زجاجات عرق، وخمسة زجاجات ويسكي لمدة ثلاثة أيام متواصلة؟
- ماذا تقصد؟

سألني مستغرباً وشفته السفلى ترتجف من نوبة الكحول التي حان موعدها ولم يجدها.

- أريدك بمهمة صعبة قليلًا، لكن إن نفذت ما سأطلبه منك سأشتري لكم العرق والويسكي لمدة ثلاثة أيام متواصلة، لكل واحدٍ منكم زجاجة عرق وزجاجة ويسكي في اليوم.

بصوتٍ واحد وعال وكأنهم كانوا متفقين من قبل قالوا: "جاااااااااااهزون"

- حسنا، هناك شاب يقيم في مساكن هنانو، اسمه ياسر يعمل في مجال الكهرباء، هذا الشاب يريد من فتاة لوحة عارية مقابل ألَّا يخبر والدها بعلاقتهما معا، لأنه دخل غرفتها، المطلوب منكم أن تلقنوه درساً لا ينساه وأن يتوقف عن تهديد الفتاة، ما رأيكم؟

سألتهم وأنا ألوح بيدي على زجاجة العرق الفارغة بجانب الطريق. قالوا:

- هذه مهمة أسهل مما تخيلنا، ظننا أنك تريد منا أن نقتل أحدا أو نسرق محلًا أو شيئا أكبر من هذا وذاك. متى التنفيذ؟ سألني علاء. قلتُ له:
- متى ما أردتم.
- نحن جاهزون الآن إن كنت جاهزا.
- أنا جاهز، اصعدوا لنذهب.

ركبوا معي بالسيارة وانطلقنا باتجاه مساكن هنانو، في الطريق قال علاء:

- لكي لانحدث ضجةً في الحي سأذهبُ لوحدي إلى بيته أطلبُ منه أن يرافقني إلى المنزل لأن هناك ماسٌ كهربائي في منزلي، سنتفقُ أن تنتظروني في مكانٍ غيرَ مأهول، وحين نصل إليكم سنقوم بالواجب.

وحصل كما اتفقنا، انتظرنا علاء أنا وأصدقاؤه في مكان بعيد عن الحي، وبعد عشر دقائق أتى علاء ومعه ياسر، ترجّل الشباب من السيارة وقالوا له:

- أهلا سيد ياسر، الرجل لا يهدد فتاة بإخبار والدها أنهما على علاقة يا واطي.

وهجموا عليه مثل الوحوش الضّالة يضربونه بالعصي، وهو يتوسل إليهم بذُلٍ، ويؤكد أنه لن يفعلها ولن يعترض طريق الفتاة مرة أخرى، حين بدأ الدم ينزف من أنفه ورأسه ترجلتُ من السيارة وقلتُ لهم هذا يكفي يا شباب، مشيتُ باتجاه ياسر ووضعتُ قدمي على عنقه، وقلتُ له اليوم سنكتفي بالضرب، لكن إن حاولتَ أن تعترض طريق نيروز مرةً أخرى أو إن وصل خبر لوالدها بأنها كانت على علاقة معك لن نكتفي بالضرب في المرة القادمة، بل سأقطع عنقك بحذائي.

- أقسم لك لن أفعل شيئا، ولن أقترب منها، قالها بخوف وهو يكرر القسم.
- هيا بنا.

انطلقنا أنا والشباب إلى بستان كل آب لأشتري لهم ما وعدتهم به، دخلنا إلى دكان لبيع المشروبات ، في الخارج طلب مني علاء أن نسهر في إحدى الكازينوهات التي في المنطقة، مقابل خدمة في المستقبل، وافقتُ لأنني كنتُ أفكر بأن أستخدمه لضرب شكري، وسأجعلهم يحلقون له شاربه المعقوف، دخلنا كازينو قريبا من الفندق السياحي الذي كنتُ أعمل فيه من قبل، جلسنا على طاولة وبدأنا الشرب والرقص مع الفتيات الروسيات، كانت هذه هي المرة الأولى لعلاء وأصدقائه التي يزورون فيها كازينو ويلتقون بفتيات روسيات، لم يتوقفوا عن الشرب طيلة المساء، في النهاية أوصلتُهم إلى الحي وهم مثل الأقمشة البالية، لا حول لهم ولا قوة. دخلتُ البيت فوجدتُ أمي تجلس مع أختي جيهان، لامتني أمي على عدم عودتي إلى البيت بالأمس وتأخري عن البيت.

- متى لديك وقت أخي لكي يأتي صديقي يونس مع أهله؟ سألتني جيهان.
- سأخبرك حين أعود من بيروت ، تصبحون على خير.

استيقظتُ صباحا وجسدي منهك من سهرة الأمس والشرب، قبّلتُ يدَ أمي ومضيتُ إلى المرسم قبل أن تأتي المدام خولة لنبدأ لوحتها الخاصة، وكأنها أصبحتْ تأتي لنمارس الجنس معا، أصبح اشتياقي لكريستين أكبر، أمسكُ بشالها وأستنشقه بقوةٍ وأعصرهُ بيدي وأضعه على صدري بالقرب من موضع قلبي، كريستين أي مستقبلٍ ينتظرنا؟ أنا المسلم الكُردي وأنتِ المسيحية المارونية اللبنانية، أنا في حلب وأنتِ في بيروت، أين سينتهي بنا المطاف؟ ليتني أستطيع أن أكلمها على الهاتف على الأقل، لم تصلني رسالة منها إن قاموا بتركيب هاتف في البيت أم لا، قالت سأرسل الرقم برسالة حين يصبحُ هناك هاتفٌ في المنزل. مسافرٌ بين ألواني واشتياقي، الزبائن تدخل بين الحين والآخر،

منهم من يشتري لوحة جاهزة وأغلبهم من يطلب لوحة بورتريه لحبيبة أو صديقة، الطلبات تكثر والمرسم أصبح بحاجة إلى أحدٍ يساعدني فيه، كل شيء في غير مكانه، قررتُ أن أتكلمَ مع نيروز عندما تأتي إن كانت تريدُ العملَ معي، على الأقل ساعتين أو ثلاث في اليوم لترتب الفوضى التي أخلقها في العمل طيلة اليوم، دخلت المدام سميرة إلى المرسم، رحبتُ بها بطريقة رسمية جدا، كشريكِ عملٍ لا أكثر، تحدثتُ معها بأمور المرسم وحاولتُ ألَّا أعطيها مجالًا للكلام معي بشيءٍ خاص، دخل بعضُ الزبائن إلى المرسم، بدأتُ التحدث معهم بشكلٍ مطول لتشعر مدام سميرة بالملل وترحل، وبالفعل هذا ما حصل، حين رأتني أتكلم مع أحد الزبائن عن لوحة بورتريه لابنته وأنا أدقق في تفاصيل صغيرة ومملة. شعرت بخيبة أمل من زيارتها، لا يهم، حتى لو قالت لي أريد أن أغلق المرسم، سأذهب إلى بيروت حينها بلا تردد، وأستقر هناك.

في اليوم التالي أتت نيروز وأخبرتُها بما حصل معي، قالت منذُ ذلك اليوم وهو لم يعترض طريقي، أخذتْ تشكرني وتقول لي:

- ليتني أستطيع أن أرد لك المعروف هذا.
- أنا لا أريد منكِ غير أن تكوني حريصة في المرة القادمة، ولكن أريد التحدث معك بخصوص عمل، إن كانت لكِ رغبة في العمل هنا فأنا أبحثُ عن فتاة تعمل معي.
- ما هي طبيعة العمل التي سأقوم بها إن وافق والدي؟ سألتني وكان واضحٌ من ابتسامتها أنها موافقة.
- ليس هناك الكثير، ساعتان أو ثلاث ساعات في اليوم كافية، ترتبي فيها الفوضى التي أُخلِّفها طيلة اليوم، وحين أسافر تبقين أطول وقت ممكن لأخذ

المواعيد والبيع، ولايهم في أي وقت تأتين المهم أن يكون في نفس التوقيت كلَّ يوم لكي أبقى هنا ولا أذهب إلى مكان آخر حينها.

- سأخبر والدي وأخبرك إن كان موافقا.

في اليوم التالي أتت ومن ابتسامتها كان واضحا أن والدها وافق، اتفقنا على الدوام والراتب وذهبت تاركةً قُبلةً على وجهي أثارت في داخلي شهوةً من نوعٍ غريب، بدأتُ أرتجفُ، رغم أنني لم أنقطع من ممارسة الجنس مع خولة، وبعض النساء والفتيات اللواتي يأتين وغايتهن رسم لوحة أو شراء أحدها، وأغلبهن في النهاية يتمددن على الأريكة في الغرفة الصغيرة يطلبن مني أن أحقنهن بإبرة لأزيح الواقع من حياتهن وأذهب بهن إلى عالمٍ آخر، وما أكثرهن اللواتي يطلبن مني الارتباط، وبالأخص المتزوجات، للحظة شعرتُ بأنني لو أكذب عليهن وأقول لهن بأنني موافق على فكرة الارتباط ليصبح عدد المطلقات في ذمتي أكثر من اللوحات التي رسمتها في حياتي، كنتُ أكتفي بتفريغ شهوتي والكلام الجميل النابع من فمي وليس من قلبي، أنا لم أكن أريد ذلك، لكن إرادتي كانت ضعيفة جدا، حين تلمسني إحداهن من يديّ ينتفضُ جسدي وأخرجُ عن الواقع ولا أجدُ نفسي إلا وأنا أقذفُ سائلي المنوي على جسدها. ولأتدارك الحالة هذه ذهبتُ إلى طبيبٍ نفسي ليساعدني في الخروج من هذه الحالة ولا مانع من الأدوية، وصفَ لي شرابا يساعد على الاسترخاء، لكن بعد تناول الأدوية انطبق مفعولها عليَّ بالعكس تماما، كان يكفي أن تمر بي رائحةُ عطرِ أنثى لأخرج عن الواقع وينتفض جسدي. حين أخبرتُ الطبيب بذلك قال لي هناك شخص من بين ألفيّ شخص يحصل معه العكس، وعلى ما يبدو أنت الواحد من الألفين، أرشدني إلى طرق وأشياء أُقوِّي بها إرادتي، وحدثني عن أشخاص من قبل استطاعوا مع الزمن

التحكم في شهواتهم، ولم ينصحني بدواء مهدئ أو ما شابه كي لا أفقد الممارسة بشكلٍ نهائي..

مضتْ أيامٌ وأسابيع وأنا مشغولٌ في الرسم وبناء إمبراطورية فنية تمكنني من دخول التاريخ من أوسع الأبواب، العمل يزدادُ يوما عن يوم. المدام سميرة اشترت موبايلا لها ولي لتتمكن من الاتصال بي في أي وقت، الأيامُ تمضي بسرعة، وكلما قررتُ أن أذهبَ إلى بيروت لزيارة كريستين، يقفُ أمامي ضغطُ العمل مترنحا يلوح لي من بعيد عن المستقبل، إلى أن جاء اليوم الذي انتهيتُ فيه من لوحاتِ المدام خولة، قمنا بتعليق اللوحات في الفيلا معا، وقررتُ الذهاب إلى بيروت، رتبتُ أموري وأعطيتُ مفاتيح المرسم لنيروز، وطلبتُ منها إن أتت المدام سميرة لتسأل عني أن تقول لها أنني ذهبتُ إلى دمشق، لحضور معرض لفنانٍ كبير، لأنني لم أرد على اتصالاتها منذ يومين. انطلقتُ صباحا بسيارتي إلى بيروت، دخلتُ الفندق الذي تعملُ فيه كريستين، لم أرسل لها رسالة بأنني سآتي، كما اتفقنا، دخلتُ بهو الفندق على أمل أن أراها هناك، تقفُ في الريسبشن كما التقينا في المرة الأولى، لكن للأسف لم تكن هناك، سأستريحُ قليلًا في غرفتي، بعدها سأذهب إلى بيتها إن لم أجدها في الفندق . تمددتُ على السرير بلباسي، الشمس تغرق الغرفة بلونها وحرارتها، الستائر البيضاء مسدلة، الملل يتربع كل زوايا الغرفة، سيطر عليّ شعورُ الغربة، أتتني رعشةٌ وكأنني سأمرض، تلحَّفتُ بالغطاء الموجود على السرير وخلدتُ للنوم، لم أكن أعرف كم الساعة حين استيقظتُ على صوتِ أحدهم يطرقُ باب الغرفة، جسدي منهكٌ من قيادة السيارة من حلب إلى بيروت، مشيتُ باتجاه الباب بكسل، فتحتُه وكانت كريستين واقفة، محنية رأسها الجميل وابتسامتها المشرقة ترتسم على وجهها،رأيتُ بريقاً في عينها، دمعة حائرة غَائِرَة

تريد أن تنتفض وتطلق أنينها في وجهي، رمتْ بنفسها على صدري وكأنها تريد أن تطفئ لهيب شوقها في تلك اللحظة، وهي تمسح بيدها ظهري:

- تأخرت كثيرا يا سعيد قالت لي، لم أذق طعم النوم منذ رحيلك، ومن حينها وأنا أنتظر منك مكالمة أو رسالة.
- وأنا أيضا، انتظرتُ كثيرا أن ترسلي لي رقم هاتفك لأتصل َبك، لكن لم ترسلي لي شيئاً، منذ شهر وأنا أحاول القدوم إلى هنا، لكن ظروف العمل في المرسم أخرتني، كم اشتقتُ إليكِ، أشعرُ بأن دمي عاد ليتدفق في جسدي، ادخلي أريد أن أرى وجهك أكثر، أريد ان أشبع نظري منك.

جلسنا على السرير، ونحنُ مسافران في التحديق في أعين بعضنا البعض، كفها على وجهي، وكفي على وجهها، نستنشقُ أنفاس بعضنا، مثل الذي كان في سجنٍ منفرد في هذا الكون الوسيع ونال الحرية.

- لم لم تتصل بي؟ سألتني مستغربة.
- كنا متفقين أن ترسلي لي رقم هاتفك حين تحصلون على هاتف في المنزل، لم ترسلي شيئاً.
- هذا غير صحيح، لأنني أرسلتُ رقم هاتفنا إلى عنوان المدام سميرة، كما طلبتْ أمي من المدام سميرة في رسالتها أن تعطيك الرقم لتتصل بنا، ألم تقل لك ؟

زممتُ شفتي والغضب سيطر عليّ وقلتُ لها:

- ربما نسيت ذلك، لأنها كانت مشغولة معي في المرسم.

- المهم أننا التقينا، ومن اليوم نستطيع التكلم في أي وقت، أنا الآن أملك موبايلا، وسأشتري لكِ أيضا.
- لا، الموبايل سعره غال جدا، والمكالمات مكلفة كثيرا، لا أريد منك سوى أن تتصل كل فترة على هاتف المنزل، هذا يكفي.
- الموبايل هدية مني، وبالنسبة للمكالمات أنا الذي سأتصل بك، العمل في المرسم يزدادُ يوما بعد يوم، والاتصال كل يومين أو ثلاثة لن يكلفني الكثير، نسيتُ أن أسألك هل انتهيتِ من العمل اليوم؟
- نعم، سأذهب لأبدل ملابسي، وجدتُ في سجل النزلاء وقت وصولك، وقلتُ سآتي إليك حين أنتهي من دوامي.

تمددتُ على السرير محاولاً أن ألتقط أنفاسي، لا أدري ما الذي حصل معي بالتحديد، شعرتُ بتسارعٍ في ضربات قلبي، وانتابتني رعشة خفيفة، اقشعرَّ بدني، كريستين أنتِ تسرين في عروقي، منذُ اللحظة الأولى وأنا أحاول أن أجد تفسيراً لما حصل معي حين رأيتُكِ، إلى متى سنبقى هكذا؟ سألتُها وتوقفتُ عن التنفس للحظات، مثل الذي أصابه مرض عضال.

- لا أدري، الذي أعلمه أنني لا أتخيل نفسي أكمل حياتي مع أحدٍ غيرك.

قالتها وأدارت وجهها باتجاه النافذة شاردة، وكأنها تبحث عن حلٍّ يزيح الألم منها.

- سأذهب لأبدل ملابسي، وأنتظرك في اللوبي، إلى حينها عليك أن تكون جاهزاً سيد سعيد.

غمزتْ بطرف عينِها ورسمت ابتسامة شقية، وذهبتْ.

خرجنا نتمشى في أحياء بيروت المزدحمة، الازدحام هنا يجعلك تظن أن العالم كله في بيروت، والمدن الأخرى فارغة، تشابكت أيدينا ومضينا في طريقنا إلى البحر. حين تقولين سعيد، أشعرُ بالسعادة تخرج مع الأحرف التي تنطقينها، إلى أين سينتهي المطاف بنا؟ سألتها وقررتُ في نفسي أن أرتب الأمور بيني وبينها بالزواج، لكن كان الهدف من سؤالي أن أعرف بماذا تفكر.

رفعت جبينها باتجاه السماء، انعكست أضواء الأبنية على وجهها قائلة: كل هذه الفترة وأنا أفكر في المحطة الأخيرة، سعيد أنا لا أريد أن أضغطَ عليك، لكن أنا لا أستطيع الانتظار كثيرا، خذني إلى حلب، دمشق، إلى اللاذقية، إلى أي مكان لا يهم، المهم أن أبقى بجانبك، تحت سقفٍ واحد، سألململُ أشيائي وأترك بيروت التي أعشقها، فقط ضعني في حضنك، أريد أن أنسى العالم، أنسى السنوات التي مضت، أريد أن يسكُن أحشائي طفلٌ منك، أرقص فرحا، أملأ وأطير، في السماء أطير في هذا الكون الشاسع، أريد أن أقابل الناس بكل ثقة وتفاؤل وأقولُ لهم هذا حبيبي، هذا خطيبي، زوجي، أبو أطفالي، زينةُ حياتي، خذني معك.

أطبقتُ على يدها، وشعرتُ بأنينٍ في حنجرتي، وجَّهتُ نظري إلى حدقةِ عينيها، وبصوتٍ مكسور سألتُها:

- ماذا عن والديكِ، هل تظنين أنهما سيقبلان بأن تتزوج ابنتهما من شابٍ مسلم؟ هل سيقبلان أن تسافري بعيدا عنهما؟

صمتت قليلًا ثم أردفتْ:

- سأفتح الموضوع معهما حين نقرر كل شيء، إن لم يوافقا سأستمر معك بدونهما، ومع الأيام سيقبلان بالأمر الواقع، في النهاية أنا ابنتهما الوحيدة، ومهما طال الزمان سيأتي يوم ويسامحاني.
- لا يا كريستين، يجب أن تقنعيهم بذلك، أنا لا أحبُ أن يكرهني أحد أو يقال عني شيئا أنا غنيٌّ عنه، حاولي، وسننتظر إلى أن يوافقا، أنا لا أريدُك أن تعيشي معي وأنتِ تفكرين بهما، أريد أن نكمل حياتنا بهناء، لكن لا أستطيع أن أعدَكِ بشيءٍ الآن قبل أن نتفق على كل شيء، أين سنقيم؟ سألتها بحدة لأنني لا أرغب بالإقامة في بيروت، كي لا أبتعد عن أمي وإخوتي، لكن إن أصرَّت على موقفها وأنها تريد البقاء في بيروت، حينها سأُحضر أمي وإخوتي إلى هنا ليعيشوا بالقرب مني.
- لا يهم يا سعيد، كما قلتُ لك من قبل، أنا أريد العيش معك. قالتها مثل الذي هو فاقدٌ للأمل من شيءٍ مستحيل.
- ما رأيك في دمشق؟ سألتها.
- لماذا في دمشق؟ سألتني مستغربة.
- هناك الكثير من أصدقائي في دمشق، والعمل هناك جيد، أستطيعُ البدء بمرسمٍ صغير في المدينة القديمة، غير ذلك، تستطيعين العمل في أفخم الفنادق هناك أن أردتِ، ودمشق بين حلب وبيروت، على ما أظن أمي سترفض الخروج من حلب، وإن قبلَ والداكِ بزواجنا أو لا سنبقى قريبين منهما في كل الأحوال.

- حسنا، أنا موافقة على دمشق، لكن متى ستتزوج؟ سألتني مبتسمة وارتسمت الدمعة في عينيها.
- قريباً، صدقيني، كل ما في الأمر أني أُريد إقناع المدام سميرة بنقل المرسم إلى دمشق، إن رفضتْ فسأحتاجُ لبعضِ الوقت كي أدخر المال لأنطلق، إن قبلت بنقل المرسم ستكون الأمور بلا تعقيد، وإن رفضتْ حينها ستطول فترة انتظارنا قليلا لأوفر بعض المال لأشتري بيتا وأبني مرسماً جديدا.

صمتت وبانَ عليها الحزنُ ، وقالت:

- أشعر بأن الأمور ستطول كثيرا بكل الأحوال في فترة زيارتك هذه يجب أن تأتي كلَّ يومٍ إلى بيتنا لتجلس مع والدي، لربما يلين حين أفتح الموضوع معه.
- اتفقنا، اذهبي إلى البيت الآن كي لا تتأخري أكثر من ذلك، وأنا سأذهبُ لأرتب نفسي وآتي.

عدتُ إلى الفندق لأرتب نفسي وأذهب إلى بيتهم، حزنٌ كبير يحتلُ مخيلتي، ماذا إن رفض والدها؟ والدها خوري، هذا يعني أنه متمسكٌ بالدين، الرفض أغلب الظن سيكون قراره.

حين وصلتُ إلى منزلهم، كانت كريستين بالبروتيل الذي اخترتُه لها حين كنتُ أرسمُها، جلستُ في الصالون وحيدا، سمعتُ صوت والدتها من المطبخ، لكن لم تأتِ لتُرحبَ بي، ربما تُعدُ العشاء، جلستُ أتأملُ الأيقوناتِ والكتبَ المرصوفةِ بانتظامٍ حاد في المكتبة، كانت أغلب الكُتب لـ"نيكوس كازانتزاكيس" و"أفلاطون" و"محمد الماغوط". وبعض الكتّاب الروس، يبدو أن والدها لديه ثقافة عميقة غير الدين، الذي لفتَ انتباهي في المكتبة، القرآن الكريم والأفستا للديانة الزرداشتية، رجل الدين هذا

يبدو عليه بأنه على اطّلاعٍ بالأديان الأخرى، وأنا أُدقّقُ في الكتب دخلت والدة كريستين وهي تُرحبُ بي، حضنتني مثلما تحضن الأم ابنها، ودَعَتْني للجلوس لأشرب القهوة إلى أن يتم تجهيز طاولة العشاء، قد يكون وقت حضور السيد ميشيل والد كريستين، سألتني عن المدام سميرة وكيف يسيرُ العمل في المرسم، بدأتُ بالتحدث معها محاولاً أن أجعلها تحبني كثيرا، لربما توافق حين نقرر الزواج أنا وكريستين، تعمقتُ في حديثي عن الحياة وتفاصيلها المتعبة، والرجلُ حين يتزوج كيف تنتهي حياته وتبدأ حياةً جديدة، محصورةً في العطاء لزوجته وأولاده، حاولتْ أكثر من مرة أن تفتح حديثا عن الديانات، لكن كانت تلقى تجنبا من ناحيتي، لا أحبذ الدخول في نقاشاتٍ كهذه، الإيمان في القلب كما تقول أمي، وأنا لستُ ضليعا في ديني لأبدأ النقاش معها، لكنها كانت سعيدة بالحديث عن الفن، وأبدتْ إعجابها بما توصلتُ إليه رغم أنَّ والدي ميتٌ والبيئةُ التي ترعرتُ فيها كانت قاسية.

بعد قليل دخل والد كريستين رحبنا ببعضنا ثم انطلقنا إلى طاولة العشاء، سمكٌ مقليٌّ وتبولة وبعض المازوات اللبنانية تزين الطاولة، وزجاجة نبيذٍ أبيض، تناولنا العشاء ونحنُ نتبادل الأحاديث، سألتُ السيد ميشيل عن القرآن والأفستا، قال لي أنه يملك فكرة عن جميع الأديان السماوية ، وأنه على اطلاع دائم بالأديان، وأضاف قائلاً :

- لا يعني لي إن كنتُ مسيحياً أنه يجب علي أن أقرأ كتب ديانتي فقط، أنا خوري، وأؤمن بالمسيح، ومطالعتي لباقي الأديان ليست إلا لزيادة العلم.

جلسنا بعد العشاء في الشرفة، سألتُ والد كريستين كيف التقى بزوجته لأول مرة؟

قال لي:

- كنتُ أقيم في قريةٍ تبعد عن بيروت قرابة الساعة، في يومٍ من الأيام ضربني والدي لأنني شتمتُ أحد أبناء الجيران لمشكلة بيني وبينه، غضبتُ من والدي وذهبتُ إلى بيروت، لأبحث عن عملٍ أعيش بعيدا عن أهلي، حين وصلتُ كان الطقسُ حارا جدا، دخلتُ إلى حديقة صغيرة في منطقة الدورة لأستريح قليلًا، وبينما كنتُ جالسا، أتفيأُ بظلِ شجرةٍ، رأيتُ ثلاثة فتيات يتحدثن باللغة الأرمينية، وكانت أنطوانيت بينهن، لفتت انتباهي بطولها الفارع، وعينيها وشعرها القاتم، بدأتُ أمشي خلفها كي أعرف عنوانها وأذهب إلى أبي لأقول له أني رأيتُ فتاة أحلامي، حين دخلتْ أنطوانيت مدخل بناء بجانب صيدلية في إحدى أحياء الدورة، وقفتُ أمام البناء لأتأكد إن كان هذا بيتها أم لا، بعد ساعتين تقريباً خرجتْ إلى الشرفة لتنشر الغسيل، حينها أدركتُ أنه بيتها، بدأتُ أتلتفتُ من حولي لأحفظ الشارع في مخيلتي بشكلٍ جيد، كي لا أنسى العنوان، وعدتُ فوراً إلى البيت وقلتُ لأبي ما حصل معي. قال لي سنذهب يوم الأحد لنشرب القهوة عندهم، ونرى والد الفتاة ونتكلم معه إن كان الوضع مناسبا. صباح يوم الأحد ذهبنا أنا وأبي وأمي إلى الدورة، حين وصلنا إلى حيٍ ظننتُ أنه الحي الذي تقيم فيه أنطوانيت التفتُ من حولي فلم أجد الصيدلية، ولم تسعفني الذاكرة بأن أتذكر اسم الصيدلية لأسأل عنها، طلبتُ من أبي وأمي أن يجلسا في مطعمٍ صغير، وذهبت أنا لأبحث عن البيت لوحدي، كي لا يتعبا، بدأتُ أجولُ شوارع الدورة شارعا شارعا، دون جدوى، لم أستطعْ أن أجدَ الصيدلية أو الحي، بعد بحثٍ دامَ لساعتين فقدتُ الأمل، عدتُ مكسور الجناحين ، قالت

أمي يبدو أنها ليست من نصيبك يا بني، هيا لنعد إلى البيت، عدنا وقد أحاط بي شعورٌ كئيب . قررتُ أن أعود لوحدي صباح اليوم التالي وأبحث عنها. في الصباح وضعتُ بعض الطعام في زوادتي ومضيتُ في طريقي إلى بيروت، وصلتُ إلى الدورة في التاسعة صباحا، بدأتُ رحلة البحث وفي داخلي إيمان أن هذه الفتاة لي، وسألتقي بها، لكن رحلتي الأولى باءت بالفشل، أصبحت الساعة السادسة مساءً وأنا أبحث، وكان يجب أن أعود إلى المنزل، عدتُ والخيبة مرسومة على جبهتي، لكن صورة أنطوانيت مطبوعة في مخيلتي، لم أشعر بالملل في كل الأيام التي كنتُ أبحث فيها، أصبحتُ أتردد بين الفترة والفترة للبحث، كلما وفرتُ بعض المال من مصروفي أذهب في رحلة البحث، هكذا إلى أن مضى عامان، قالتْ لي أمي هناك عائلة جديدة سكنت في حيِّنا ولديهم فتاة جميلة جدا، ووالدك تكلم معي بأن أسأل عن رأيك إن كنت تريد أن ترى الفتاة؟ فقلت لا يا أمي، لا أريد أن ألتقي بأحد لأنني متأكدٌ بأنني سأراها في يومٍ من الأيام، قلتُ هذا وشعرتُ بأنني أكذب على نفسي، عامان وأنا أبحث بين شوارع الدورة، بلا جدوى، ولا أستطيع نسيانها. مرت أشهر وأمي تحاول أن تقنعني بأن ألتقي بابنة جارنا الجديد. وفي إحدى الأيام الصيفية، نسيمٌ عليل مرَّ عليّ بينما كنتُ ممدداً على سطح الدار، قررتُ في نفسي أن أتوقف عن البحث ، وألبي طلبَ والدي بأن ألتقي بابنة جيراننا ..أخبرت أمي بذلك، ارتسمت ابتسامة مصطنعة على وجهها، لأنها تعلمُ جيدا كم كنتُ أتمنى أن ألتقي بفتاة الدورة . بنفسٍ مكسورة رافقتُ أبي وأمي إلى منزل جيراننا في اليوم التالي، وأنا كلي

إيمان بأن الفتاة لن تعجبني، لكنني ذاهب لأرضي أبي وأمي، لكن المفاجأة كانت حين وصلنا إلى منزلهم وفُتِحَ الباب، كانت نفس الفتاة التي التقيتُ بها في الدورة، حينَ رأيتُها شعرتُ بدوارٍ خفيف، وابتسامةٌ عارمةٌ ، كشفت أسارير وجهي، لاحظت أمي ذلك، حين دخلنا جلستُ بجانب أمي وقلتُ لها، هذه هي الفتاة التي كنتُ أبحثُ عنها في الدورة، شعرتُ بأنها ستبكي، وقالت لي الله يحبك يا بُني. انتهتْ سهرتنا بالقبول من الطرفين، ووفقَّ الله بيننا، وأصبحنا زوجين منذُ ثلاثين عاماً، نشكرُ الرب، وأتمنى أن تصادف كريستين رجلًا يحبها ويحترمها كما كنتُ أحترم أمها، لأنني على يقينٍ تام بأن من يعامل زوجته باحترام وصدق، سيأتي يوم وتعيد لَهُ الحياة المعاملة بالمثل مع ابنته، الحياة هي عبارة عن نوتة موسيقية، كلٌ منَّا يضع العلامات التي تناسب حياته، لذلك اجعلها مقطوعة جميلة، تروق لك حين تسمعها عندما تكبر. أنا فعلتُ هذا، وأنصحك أنت وابنتي كريستين وكل الشباب، أن يتمهلوا قليلًا قبل فعل الإثم، لاتجعل الضغينة في قاموس حياتك، احذفها، كلنا أبناء الله، ازرع تحصد. وكما قال يسوع، الحياة ليست لنا، هي نعمة وهبت لكل منا منذ الأزل. الأمانة تكون في المحافظة عليها وعدم هدرها أو تشويهها أو نحرها.

- أنت إنسان نادر سيد ميشيل، تتكلم عن الأمور ببساطة وسلام، وأنت تتكلم شعرتُ بالنقاء في كلماتك، لكن لديَّ سؤال
- تفضل. وضع ساقاً على ساق، وعدّلَ ظهره ليلتصق بالكرسي.

- إن أرادت كريستين يوما ما الزواج من شخص أصغر منها، ماذا سيكون رأيك؟

سألته هذا السؤال لأصل إلى داخله في السؤال التالي الذي كنتُ أحضر له.قال لي:

- أعود وأذكر كلام المسيح هنا، بما معناه، أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة، أنتم تستطيعون منح محبتكم لهم، لكن لا تستطيعون زرع أفكاركم فيهم، وأنا من ناحيتي أتمنى أن يأتي يوم وتقول لي اخترتُ شريكَ حياتي، سأسعدُ بذلك، والسعادة الكبرى ستكون حين يكون الشاب من طبقتها وأن يكون عمره مناسبا لها، لكن في النهاية هي تختار ونحن نتمنى لها السعادة.
- وماذا إن قررت الارتباط من شخص غير مسيحي؟ لا أقصد مسلم على وجه التحديد، بل أي ديانةٍ أخرى؟ سألته السؤال بهذا لألتمس رأيه وفي نفس الوقت لأبعد الشكوك عني حين قلتُ غير مسلم. قال لي:
- لم أفكر في الأمر نهائيا، ولا أتوقع ذلك، أنا لستُ ضد أحد إن كان من أي دين، لكن دعني أذكر لك مثل شعبي شائع (اللي ما بياخد من ملّتو بيموت بعلتو) ربما تحب رجلًا من ديانة أخرى وهو يحبها، وربما لن أمانع، لكن المجتمع له دور، الحياة لا تستمر دون العلاقات الاجتماعية، وكما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : من سرَّه أن يُبسَطَ له رزقُه، وأن يُنسَأَ له في أثرِه، فلْيَصِلْ رَحِمَه.

كانَ واضحا من الكلمات التي علقت تحت لسانه أنهُ غير موافق، حدقت إليَّ كريستين في نفس الوقت، وعلامات الاستغراب تملأ وجهها.

- وماذا عنك؟ ألا تفكر في الزواج، سألني والد كريستين وهو يصحح نظارته الموضوعة على رأس أنفه.
- لم أفكر في الموضوع بشكل جدّي حتى الآن، أنا الآن أحاول الصعود بفني لأعلى مستوى أحلم به، سأحاولُ كثيرا وجاهدا، لكن تمشي الرياح بما لا تشتهي السفن، رغم أنني بعثتُ سفينتي منذُ زمنٍ بعيد، حين كان الحظ يقفُ أمامي واضعاً يدهُ على خصره وهو يبتسم ويسخر مني ويقول لا مكان لك في الهناء يا سعيد، تُوفيَ والدي حين كنتُ في المدرسة الابتدائية، وترك لنا ديونا لا تنتهي، طردوا أمي من وظيفتها ، ورُزقنا بأخٍ جديد من غيرِ أمي – وشرحتُ له كيف كان ذلك – وحاولتُ أن ألجأ إلى أي أسلوب في طريقي لكي أستطيع أن أحمل أمي وإخوتي، فعلت أكثر من طاقتي، لذلك ضميري مرتاحٌ، تعثرتُ كثيرا، لكن في كل ضربة كنتُ أقفُ من جديد وأشعر أنني أكبر، والآن أريد أن أستأذن منكم، تأخر الوقت ويجب عليَّ أن أستيقظ باكراً لأذهب في جولتي وأشتري ألوانا وأقمشة للمرسم.

خرجتُ من بيته ومشيتُ في طريقي باتجاه البحر. هذه المرة الأولى التي أشعرُ فيها أن الحروف على النقاط في علاقتي مع كريستين، تغيرت نظرةُ والدتها حين كنتُ أتحدث مع زوجها عن الزواج، ورأيه إن تزوجت كريستين من شاب على دينٍ آخر.

دروب الحياة مرصوفة بالمتاعب، لكنني أشعرُ أن هذا الطريق مرصوفٌ بالخناجر، ستُدمى أقدامُنا أنا وكريستين، وربما تنغرزُ الخناجر في عمق أقدامِنا وتشلُّ حركتنا ولا نستطيع الاستمرار، كلٌ مع حبيبته، زوجته، أو خطيبته هنا على البحر في أنطلياس، إلا

أنا وحيدا كنت، أحبُ العزلة والانطوائية، لكن وجود كريستين معي لن يحسسني بأننا شخصين، أشعرُ أنها أنا، روحٌ واحدة في جسدين، ماذا أفعلُ يا إلهي؟

صححتُ ياقة قميصي ووضعتُ يديّ في جيوبي، وعدتُ إلى الفندق.

سهرتُ الليل بأكمله وأنا أشرب البيرة مع الملح والليمون، في كلِّ قدحٍ أحاول أن أجدَ حلاً للمعادلة، معادلة سعيد وكريستين، في القدح الخامس عشر قررت أن أتزوجها ولا مانع لدي من مواجهة طوفان المشاكل التي ستواجهني، سأقيمُ في دمشق، وأفتحُ هناك مرسما صغيرا، إن لم توافق المدام سميرة في نقل المرسم من حلب إلى دمشق، أفرغتُ القدح السادس عشر دفعةً واحدة وتمددتُ في سريري بلباسي وحذائي. استيقظتُ على صوت الباب يُقرع، نظرتُ إلى الساعة كانت الواحدة، إنها الواحدة ظهرا أكيد، لأنني في الواحدة والنصف منتصف الليل وصلتُ إلى الفندق، فتحتُ الباب كانت كريستين، دخلت وكان يبدو عليها الحزن بعض الشيء.

- هل أنت نائم حتى الآن؟ سألتني مستغربة.
- نعم، وصلت متأخراً إلى الفندق، بعد أن خرجتُ من بيتكم تمشيتُ قليلًا على الشاطئ، ثم أتيت وأكملتُ سهرتي هنا وحيدا حتى الصباح.
- وماذا كنتَ تفعل حتى الصباح؟ سألتني.
- أشربُ البيرة لتساعدني في الوصول إلى حل للمعادلة التي بيني وبينك، أجبتها ونظري متجه نحو الأرض كالذي يحمل جبلاً من الهموم.
- وهل وصلت إلى حل؟
- نعم.
- ما هو؟ سألتني وأبرقت عيناها.

- سنتزوج.
- أنا موافقة، لكن على ما يبدو أن أمي ستقاطعني، قالت هذا وبدأت بالبكاء.
- ولماذا سوف تقاطعك أمك؟ سألتها وزممتُ شفتي وبانَ عليَّ الغضب.
- أخبرتهما أني أحبك ونحنُ نفكر بالارتباط.
- ومن طلبَ منكِ أن تخبريهما الآن؟
- بعد ذهابك بالأمس، كانت أمي غاضبةً بعض الشيء من سؤالك لأبي عن رأيه إن تقدمَ لي شاب من دينٍ آخر يريد الزواج بي، وقالت لأبي أكيد لن نوافق، ونجعل الكل أعداءً لنا، إخوتي وكل عائلتك سيرفضون هذا، نحنُ لسنا ضد أحد، لكن العادات والتقاليد تفرضُ علينا ذلك. قطعتُ حديث أمي في تلك اللحظة وقلتُ لها على ما يبدو سيأتي يوم لتتدخلَ العاداتُ والتقاليدُ في أسرَّةِ المتزوجين وتفرضَ عليهم كيف لهم أن تكون عملية الجماع، غضبتْ أمي وقالت "ماذا تقصدين يا بنت؟". ثم سألتني وكان واضحا أنها على شك بعلاقتنا حين وجهت نظرها إلى صورتي التي رسمتها لي، فقلتُ لها أنا أحبُ سعيد وهو يحبني ونحن نفكر بالارتباط . قال والدي اذهبي إلى غرفتك ونامي الآن، ولا تفكري في أشياء أكبر منك، وماذا تقصد أكبر مني؟ سألتُ والدي والغضب سيطرَ عليَّ، قال لي نحنُ لا نريد أن نحارب أحدا أو أن نقطع علاقتنا بأحدٍ، وقرارك هذا سيكلفنا الكثير، اذهبي ونامي وفكري بمنطق، وتخيلي نفسك أنك تتزوجين زواجا تقليديا من شاب ضمن مجتمعك، كم سيكون هذا جميلاً. أدرتُ ظهري ومضيتُ إلى غرفتي ولم أتوقف عن البكاء حتى الصباح.

- تسرعتِ قليلا يا كريستين، قلتها وشعرتُ بدوامة المشاكل التي تنتظرني مع كريستين، كان يجب أن تنتظري إلى أن أرتبَ أموري قليلا، أنا لستُ ضدَّ إشهار علاقتنا، لكن كان يجب أن نقرر كل شيء بعدها.

في اليوم الخامس، اتفقنا أنا وكريستين على أن أرتب أموري في حلب ومن ثم الانتقال إلى دمشق، وبعدها الزواج، حزمتُ أمتعتي وانطلقتُ إلى حلب. وصلتُ منتصف الليل إلى البيت كان هناك أصواتٍ تأتي من بيتنا، وأناسٌ يقفون أمام البيت وكأن شيئا ما حدث، على الباب بدأ الجيران يقولون لي" العمر لك سعيد ويجعل مثواها الجنة"، أحسستُ بثقلٍ في جسدي، أمسكت بكتف جارنا عزيز لأتمكن من الوقوف وسألته، من الذي مات؟ فقال لي ماتت جدتك قبل ساعتين.

عدتُ لصحوتي لسماع ذلك، جدتي فاتها العمر، واقتربتْ من الخرَف، في الفترة الأخيرة أصبحت الأدوية ترافقها في كل مكان مثل زوادة، تمنيتُ لو كانت رحيمة لأسكنتها في قلبي قبل أن ترحل، في النهاية لا ينفع الندم، لروحك السلام جدتي.

*****

8

رحلت جدتي، لم تحضني يوما لكي أشعر بأنها جدة، ارقدي بسلام يا جدتي، أشعرُبالندم لأنني كنتُ أشتمُها أو أسبِّب لها المتاعب، لكن لم يعد هناك مجالٌ للعودة، الموت يُنهي كل شيء، الإنسان لا يدرك قيمة من حوله إلا حين يفقدهم، حين يرحلون نشعرُ بالخيبة، حصل ما حصل، مضى أسبوع على رحيلها، والكسلُ يقتحم وحدتي في غرفتي، لم أذهب إلى المرسم للاطمئنان كيف سارت الأمور في فترة غيابي، دخلت أمي الغرفة وبيدها فنجانين من القهوة، اعتدلتُ في جلستي، جلست بجانبي على السرير والنور يشعُ من وجهها. أمي جدتي ماتت، ولم يبقَ لدينا شيء في هذا البيت يمنعنا من الرحيل منه، يجب أن نرحل من هذا البيت المشؤوم، جدرانه بدأتْ تخنقني، لا أريد المكوث فيه أكثر، وبالأحرى لا أريد أن أبقى في هذه المدينة كلها، قلت هذا والندم يتغلغلُ في داخلي لموت جدتي.

شعرت أمي بالأنين الصادر مني وأنا أخبرها بقرار الرحيل.

- وأين سنذهب إن كنت لا تريد أن تبقى في هذه المدينة؟ سألتني أمي وهي تحدق في بؤبؤ عيني وتحاول أن تواسيني حين وضعت يدها على شعري وهي تمسح رأسي.
- سنذهب إلى دمشق يا أمي.
- دمشق؟ ومن لنا في دمشق حتى نذهب إلى هناك؟
- وهل أقاربنا هنا سألوا عن أحوالنا في يومٍ من الأيام ؟ حتى تكاليف العزاء لم يسألونا إن كنا بحاجةٍ لشيء أم لا، أليس من واجب أعمامي وعمتي تحمل مصاريف العزاء بموت أمهم؟ عمي الكبير على الباب في اليوم الأول قال لي

هل أنت بحاجة شيء يا سعيد، وهل يجب عليّ أن أقول له عليكم التكفل بمصاريف العزاء؟ أليست أمهم من ماتت؟ لا أستبعد أنهم سوف يطرقون الباب غدا ويقولون لنا نريد أن نبيع البيت ونتقاسم ثمنه.

- لا يا سعيد، نحنُ قمنا بواجبنا، وبكل بساطة البيت هذا حق الجميع.
- أمي أنا قررتُ أن أذهب إلى دمشق ولا عودة في قراري هذا، إذا كنتِ لا تريدين الذهاب فهذا لن يمنعني من الرحيل، وأتمنى منكِ أن توافقي.
- سيأتي اليوم الذي تنام فيه بعيدا عني حين تتزوج يا بُني، حينها زوجتك ستأخذك مني شئتُ هذا أم أبْيت.
- لا يا أمي أنا لا أريد الابتعاد عنكِ، لكن في الحقيقة أريد أن أكونَ عادلاً، لهذا السبب اخترتُ دمشق.
- عادلاً؟ أين العدالة في الأمر؟ أن نترك المدينة التي ترعرعنا فيها ونذهب إلى مكان لا نعرف عنه شيئا؟
- أمي أنا أحبُ فتاة من بيروت، ولأني لا أريدُ أن أقيمَ في بيروت بسبب غلاء المعيشة، قررنا أنا وهي أن نقيم في دمشق، بين حلب وبيروت، هكذا أصبح أنا قريبا منكم لأنني توقعتُ أنكِ سترفضين الانتقال إلى دمشق، وفي نفس الوقت تبقى هي قريبة من والديها.
- هذا خبرٌ جميل أن تفكر في الارتباط وأحضر ليلة عرسك التي كانت إحدى أمنياتي في الحياة لأفرح بك وبأولادك، لكن أنا لن أترك حلب لعدة أسباب، من بينها أن أختك جيهان سوف تتزوج هنا وأريد أن أبقى قريبة منها، وأنا معتادة على العيش هنا، اذهب أنت ونحن سنتدبر أمورنا هنا.

- لا يا أمي لن أترككم إن ذهبتُ إلى دمشق، سآتي لزيارتكم كل شهر مرة، وغير ذلك المصروف سيبقى على حاله، لن أقصر في شيء مهما ابتعدت.
- وماذا بشأن المرسم؟ سألتني والغرابة ارتسمت على وجهها وعقدت حاجبيها.
- سأتكلم مع المدام سميرة أن تشتري صالة في دمشق ونعمل هناك، وإن رفضت سأحاول أن أفتح مرسما صغيرا من حسابي الخاص.
- أنت أدرى يا بُني، سأدعو لك كل ساعة وكل دقيقة، رغم أنني لا أريدك أن تبتعد عني.
- أمي أنا أحب الفتاة، لكن هناك مشكلة بيني وبينها، وهذه المشكلة ليست صغيرة، الفتاة مسيحية ووالدها خوري من الطائفة المارونية.

صمتت أمي وقالت:

- لم تعد صغيرا لأشرح لك ما هو واضح، ولن أتكلم بشيء قبل أن ألتقي بالفتاة، لستُ عالمة نفس ولكن لدي نظرتي في الحياة وفي النساء، حين أقابلها سأقول لك رأيي، وفي النهاية أنت حر وأنت صاحب قرارك.

شعرتُ بأن الفكرة لم ترُق لها، حين قالت "قم الآن واذهب إلى عملك".

خرجتُ من البيت متوجهاً إلى المرسم، في الطريق قابلتُ مصطفى يقف أمام دكانه، فتحتُ نافذتي وقلتُ له:

- لنا لقاءٌ قريب، صرخَ بأعلى صوته:
- هل تريد الصعود إلى العلية مرة أخرى؟صرخت وأنا أقود سيارتي ببطء:
- لا بل سأرسلك إلى العلية التي في السماء قريباً.

ومضيتُ في طريقي. وصلتُ إلى المرسم كانت نيروز تمسح الأرض.

- مرحبا نيروز.
- أهلا سعيد، حمدلله على السلامة.
- الله يسلمك.
- متى عدت من بيروت؟
- عدتُ الأسبوع الماضي، لكن ماتت جدتي لهذا السبب لم آتي إلى هنا.
- "العمر إلك".
- شكرا، كيف هي الأحوال أخبريني ما الذي حصل في غيابي؟
- كل شيء على ما يرام، ستجد في الدفتر أمامك كل الطلبات، لكن جارك صاحب المكتب العقاري سمجٌ جدًا، كل صباح يأتي يريد أن يشرب القهوة معي لكنني كنت أرفض، نظراته قبيحة مثله، وفي كل يوم كنتُ أقول له سعيد أوصاني ألّا أستقبل أحدا إلا لعمل.

هززتُ رأسي وقلتُ في نفسي يجب أن أبدأ بالانتقام قبل أن أرحل إلى دمشق، وشكري أولًا، اليوم سأذهب إلى علاء لنرى كيف سأنتقم منه.

بدأتُ أقلب في الدفتر عن الطلبات وبماذا يجب أن أبدأ، في إحدى الصفحات كُتِبَ يرجى الاتصال بالآنسة ميساء على هذا الرقم، طلبتُ الرقم واتصلتُ بها في الحال، ميساء صاحبة نفوذٍ قوي وتستطيع مساعدتي أفضل من علاء.

- مرحباً سعيد معك.
- أهلاً سعيد، حمدلله على سلامتك، متى عدت من بيروت؟

- عدتُ منذ أسبوع، لكن اليوم هو يومي الأول في المرسم بعد عودتي، نيروز دونت في الدفتر رقم هاتفك، وأول شيء فعلتُه هو الاتصال بك، كيف حالك ومتى ستقومين بزيارتنا؟
- الآن إن لم تكن مشغولًا بشيء آخر.
- لا، أهلا بك، حتى لو كنتُ مشغولًا، سألغي كل شيء لأجلك، لن أشرب قهوتي، سأنتظرك لنشربها معا.
- حسنا، نصف ساعة وأكون في المرسم.
- نيروز تستطيعين الذهاب اليوم، كانت فترة متعبة في غيابي دون شك، اذهبي وتعالي غدا صباحا.

طلبتُ منها الذهاب لأبقى مع ميساء وحدي وأرى إن كانت تستطيع مساعدتي في الانتقام من شكري. بعد قليل دخلت ميساء، "أهلا بك تفضلي".

جلست وهي تتباهى بأنوثتها، ولا تستطيع أن تخفي العنوسة من ملامح وجهها، لكنها تحاول أن تتكلم وهي توحي بأن القطار لم يفتها، ومازالت صغيرة على الزواج، لكن ليس هناك مشكلة من رسم لوحة على جسدها بألواني الخاصة، فأنا بحاجة للمال لأتمكن من شراء بيت في دمشق، وميساء غنية.

- متى سترسمني كما اتفقنا؟ سألتني واعتدلت في جلستها لتبرز ثدييها بُنيّ اللون، في محاولةٍ لإغرائي بجسدها.
- الآن إن كنتِ جاهزة، قلت لها هذا وأنا على غيرِ استعدادٍ للرسم، الكآبة ما زالت في داخلي، لكن لا أريد منها أن تشعر بذلك، وتفهم الموضوع غير هذا
- أنا جاهزة إن كنت أنت جاهز.

- لا مانع لديَّ الآن، لكن القميص هذا لا يناسب الصورة، وأقترح أن تبدليه بقميصٍ من لونٍ آخر.
- وما هي الألوان التي تناسب اللوحة برأيك؟
- تعالي معي إلى الغرفة تلك، فيها أقمشة من جميع الألوان، سأحاول أن أختار لكِ لونا يناسب وجهك للوحة.

جلست على الأريكة وبدأتُ بوضع القماش على صدرها وأنا أغمض نصف عيني لأتخيل أي لونٍ يناسبها. أشعر بأن الأبيض أكثر الألوان تليقُ لبشرتك، قلتُ هذا لسببين، الأول لأن بشرتها غامقة والأبيض سيساعدني في التفاصيل أكثر والسبب الثاني لتذهب وتأتي في اليوم التالي، لربما تحسن مزاجي أكثر.

- حسنا، سألبس قميصا أبيضَ اللون وآتي إليك غدا، ما رأيك؟ سألتني وهي تضع يدها على خصرها بغنج
- اتفقنا، غدا في الواحدة ظهرا، هل يناسبك هذا؟
- يناسبني جدا، قالت هذا ولم تتحرك، ظلّت جالسةً .
- دعينا نكمل قهوتنا في المرسم ونتكلم في أمرٍ آخر، هل تذكري الرجل ذو الشاربين المعكوفين يوم الافتتاح؟ حين دخل قلتِ لي إن أردت سأرد لك الدين.
- نعم أذكره وأنا مازلتُ على وعدي، هل تريد مني أن أرسل له أحدا يحلق له شاربيه؟

- لا، ليس شاربيه، كل ما في الأمر هذا الرجل عملت عنده منذ عدة أعوام، واتهمني بسرقته لأنه كان يريد الضغط على أمي لأنها رفضت إقامة علاقة معه.
- وماذا تريد أن تفعل به؟
- أريده أن يركع أمامي ويطلب مني أن أسامحه، وهو يقبّل يدي.
- حسنا، هذه بسيطة، سأرسل لك اثنين من حراس الفيلا وهما سيتكفلان بكل شيء حين تريد.
- أرسليهما اليوم، لأنني سأذهب في القريب العاجل إلى بيروت، وفي فترة غيابي حاول أن يزعج نيروز التي تعمل هنا، ولا أريد أن أسافر ويكرر ما فعله في المرة الماضية.
- حسنا، ولا تخف إن اتصل بالشرطة، صديق والدي أصبح رئيس فرع الأمن الجنائي في حلب.
- هذه خدمة كبيرة ميساء، ولن أنسى في يومٍ من الأيام مساعدتك هذه.
- لا تقلق، ساعتان ويكون الحراس عندك، ادخل إلى مكتبه وأنت ترفس الباب بقدمك وافعل به ما شئت بدون خوفٍ من أحد.

ذهبت ميساء، وأنا دخلتُ إلى مكتب شكري قبل أن يأتي الحراس:

- مرحبا سيد شكري.
- أهلا سعيد، تفضل تفضل. جلستُ أمامه وقلتُ له:
- حين كنتُ أعمل عندك كنتُ صغيرا وفقيرا، والآن كبرت وأصبحتُ قويا، وأريد منك أن تجاوبني على بعض الأسئلة العالقة في حنجرتي.

- تفضل اسأل، قال لي وشعرتُ بأن الخوف تسلل إلى داخله.
- لماذا اتهمتني بالسرقة؟
- كما قلتُ لك حينها، ظننتُ أنني وضعتُ المال في الصندوق مثل العادة، لكن بعدها أدركتُ بأنني وضعته في الحقيبة وحصل سوء فهم، وحين اكتشفتُ ذلك ذهبت إلى الفرع لأسقط الشكوى عنك.
- هل أسقطتَ الشكوى لهذا السبب أم لأني أمي طلبت منك هذا لأنها ستسجن ولا فائدة منها بعد دخولها السجن؟
- ماذا تقصد؟ سألني وهو يحاول أن يرسم الغرابة على وجهه.
- أقصد لأنك طلبت من أمي أن تقيم علاقة معك، وحين رفضت اتهمتني بالسرقة لتضغط عليها وتوافق مقابل أن تسقط الشكوى.
- لا هذا غير صحيح، أنا متزوج وكيف لي أن أطلب علاقة من امراة أخرى؟
- مثل ما كنت تلمح لنيروز في فترة غيابي، وهي فتاة وأنت تجاوزت الخمسين من عمرك. ضربَ بكف يده على الطاولة غاضبا وقال بأعلى صوته:
- لن أسمح لك ولفتاة مثل نيروز أن تتهماني هذه الاتهامات الباطلة والعارية عن الحقيقة، أنت تريد تشويه سمعتي فقط.
- اجلس واخفض صوتك، ولا داعي لإنكار ما هو واضح، قلت له هذا رافعا سُبابتي ومشيرا بحواجبي إلى أن يجلس.

جلس بهدوء وقال:

- اسمعني يا سعيد، أنا لم أطلب من أمك إقامة علاقة معها، كل ما في الأمر طلبتُ منها الزواج بشكلٍ غير معلن، لكنني لم أتهمك بالسرقة كورقة ضغط عليها.
- لا، أنت طلبت منها إقامة علاقة، وإن كنت تريد الارتباط بها كما قلت كان لك أن تأتي حينها وتطرق الباب، لا أن تنتظرها في الحي وهي تذهب إلى وظيفتها، وأنا هنا الآن ليس لأصدقك، بل لأحاول أن أقنعك ألّا تقوم بحماقةٍ ما في غيابي مع نيروز أو أن تفكر في الاقتراب من المرسم في غيابي، هل فهمت؟
- أنا لا أسمح لك أو لنيروز بهكذا اتهامات باطلة تشوه سمعتي، حين تأتي أستطيع مواجهتها، كل ما في الأمر أني طلبتُ منها أن نشرب القهوة معا في الصباح حين كانت تأتي إلى المرسم.
- هي قالت لك أن سعيد طلب مني ألّا أستقبل أحد إلا لعمل، أليس كذلك؟
- نعم، لكن نحن جيران، وأنت عملت عندي، هذا يعني أنني لستُ غريبا، ولا تصدقها إن قالت لك بأنني قمتُ بمضايقتها.
- شكري، أنا لستُ هنا لأصدقك كما قلت لك، أتيت لكي أسمع منك شيئين فقط، وأطلبهما منك بلهجة الأمر وليست الترجي، الأول أن تعتذر لي عما فعلته معي ومع أمي، والثاني هو ألّا تأتي إلى المرسم نهائياً، في وجودي أو غيابي، وجهك يوحي بالاشمئزاز لي، هل فهمت؟ أم تريد مني أن أتصرف تصرفا آخر؟

- هل أعتبر هذا تهديدا؟ سألني وشدَّ صدره ووضع يديه على شاربيه مشيرا إلى رجولته الحمقاء.
- اعتبره كما شئت، أريد أن أسمع منك طلب السماح وأن تعدني ألا تخطو عتبة المرسم كي لا أقطع رجلك.
- اخرج من هنا، لن اسمح لصعلوكٍ مثلك أن يهددني، قال لي هذا رافعاً سبابته باتجاه الباب واحمّرَ وجهه غيظاً.
- سأخرج الآن يا شكري، لكن غيابي لن يطول، طلبتُ منك ما أريد بهدوء، لكنك رفضت، لذلك اعذرني في زيارتي القادمة لن أطلبها منك، بل سأجعلك تركع وأنت تطلب السماح.

خرج من وراء طاولته وأمسك بياقة قميصي وصرخَ في وجهي:

- اخرج حالاً أيها الصعلوك.
- أمسكت بيده ورميتها للأسفل وقلتُ له لن أطيل الغياب، سأعود قريباً.

عدتُ إلى المرسم والنار في داخلي، لستُ بقصير حربة ولا أريد لأحد أن يدافع عني، لكن أريد أن أجعله ذليلاً، يتوسل إليّ كي أسامحه، لذلك سأجعل حراس ميساء يبرحوه ضرباً. بعد ساعتين دخل رجلان ببدلات سوداء اللون، رأساهما حليقان، تلمعان، وكانا بحجم الباب الذي دخلا منه، قالا :

- نحن من طرف الآنسة ميساء، هل أنت سعيد؟
- نعم أنا سعيد، هل أخبرتكم ميساء بشيء؟ سألتهم.
- نعم، من هو هذا الشخص؟

- هو جاري صاحب المكتب العقاري، أريد منكم أن تذهبوا إليه وتطلبوا منه أن يصنع لي قهوةً، إن رفض ذلك، أجبروه بطريقتكما، وإن قَبِلَ بذلك، أخبراني حين تصبح القهوة جاهزة.

ذهبَ الحارسان وعيونهما مليئةٌ بالشر، بعد قليل جاء أحدهم وقال لي "القهوة جاهزة"،

دخلتُ المكتب ووجدتُه واقفا بجانب الطاولة وفنجان القهوة بجانبه، طلبتُ من أحد الحراس أن يقف أمام الباب ليمنعَ دخول أحد إلى أن ننتهي، وقفتُ بجانب شكري ونظرتُ في عينيه وكأنني أريدُ أن أقلعها له لكي لا يبصر النور مرة أخرى، قلتُ له اركع على ركبتيك مشيرا بعينيّ الى الأرض .بصوتٍ متهدج قال:

- سعيد كنت تعمل عندي وأنا صاحب فضل عليك في يومٍ من الأيام، ولا يجب أن تعاملني بهذه الطريقة.
- أسمع نبرة صوتٍ أليفة الآن، منذُ قليل حين كنتُ وحدي وطلبتُ منك أن تعتذر بهدوء، رفضت وطردتني، والآن أريدُ أن أسمع نبرة الذل من حنجرتك القذرة مثلك وأنت تتوسل لي وتطلب مني السماح، وأنت راكع، الأمر اختلف الآن، منذ قليل كان طلبي مجانا، الآن طلبي فيه رسوم أجرة الشباب، وغير ذلك سأقوم برسم شاربين لك بالمقص، كان المجان لك أفضل، صرختُ بأعلى صوتي وقلت له هيا اركع، لأعلمك ألَّا تقترب من أنثى فقيرة مرةً أخرى أيها الحقير، والآن أطلب منك أن تعتذر بنبرةٍ ذليلة، وأعدُك أن أكتفي بقصِّ أطراف شاربك، لكن إن سمعت أنك اقتربت من أنثى فقيرة سأجعلك تتوسل لتختار طريقة موتٍ رحيمة.

- سعيد اسمعني أرجوك، أنا لستُ كما تقول، ونيروز أساءت الفهم، دعنا نجلس ونتكلم بهدوء وأعدك بأني سأعتذر منك ولن أقترب من مرسمك.
- لا، اركع واعتذر وسأكتفي بأطراف شاربك، بعدها سنجلس ونتكلم بهدوء لنتفق متى سنكتب عقد بيع المكتب هذا لي.
- ومن قال لك أني أريد أن أبيع المكتب؟
- أنا لم أسأل إن كنت تريد البيع أم لا، لكن أنا أريد أن أوسع المرسم، لأنني أريد توسيع مجال عملي إلى مرسم لرسم الموديلات أيضا ، هيا اركع.
- سعيد اسمعني أرجوك..

وضعتُ إصبعي على فمه ليخرس، وأدرتُ برأسي إلى الحارس الذي يقف خلفي وقلتُ له:

- تستطيع أن تبدأ، يبدو أنه لا يفهم لغة الحوار.

اقترب الحارس منه محنياً رأسه إلى الأسفل ونظرَ إلى شكري بطرف عينه من الأعلى، أمسك بعنق شكري بيدٍ واحدة وقال له :

- لم أكن أريد التدخل، إن رئيسي في الفرع طلب مني ألَّا أستعمل يدي للضرب إلا للدفاع، لكن على ما يبدو سأخالف الأوامر، ما رأيك الآن؟ هل تريد مني أن أكمل وأرغمك على الركوع أم ماذا؟ سأل الحارس شكري وهو يعصر عنقه بيدٍ واحدة، وكان واضحا صعود الدم إلى أعلى رأسه حين تغير لون وجهه وأصبح قاتماً، وما كان من شكري إلا أن ركعَ على ركبتيه:
- أعتذر منك يا سعيد وأعدك بأنني لن أقترب من المرسم بعد اليوم.

صرختُ بأعلى صوتي وقلتُ له :

- اخفض رأسك مثل الذليل وأنت تقولها يا كلب.

أحنى رأسه باتجاه الأرض وكررَّ أعتذاره ووعده.

- ارفع رأسك الآن لأرتب لك شاربيك المعكوفين، وأجعلهما مطويين للداخل
- سعيد أرجوك يكفي هذا.
- صه، لا أريد سماع صوتك.

أمسكتُ المقص وقمتُ بقصِّ شاربه من طرفين، طرف أقصر من طرف حينها ابتسمتُ ساخرا وشعرتُ بارتياح نوعاً ما لإذلاله، قلتُ للحراس يمكنكما الانصراف الآن، شكرا لكما وتحياتي لمن أرسلكما.

جلستُ على الكرسي وقلتُ لشكري، لا داعي لأن يكون هناك أحدٌ ونحن نتفق على بازار المكتب، سأدفع لك نصف مليون ليرة، غدا صباحا سنوقع العقد، قلتُ له هذا بلهجة الأمر قاطعاً عليه الكلام حين توقفت ووضعت إصبعي على فمي بمعنى اصمت ، وعدتُ إلى المرسم.

في اليوم التالي صباحا قبل أن أدخل إلى المرسم توجهتُ إلى مكتب شكري، كان مغلقاً، سألت نيروز عنه قالت لم ترَه، جلستُ في المرسم وشعور الكآبة لم يرحل عني، البارحة لم أرسم، واليوم يبدو كذلك، أشعرُ بفراغٍ كبير، بُني اللون، كئيب، الكآبة تلوّح لي بخمولٍ ممل، الخريف يسعدني، لكن هذا الخريف لونه حزين.

لم أشعر هكذا من قبل، لكن انتقامي من شكري أسعدني بعض الشيء، رغم كل شيء. أخرجتُ هاتفي من جيبي واتصلتُ بكريستين، تحدثنا قليلًا، وأخبرتني أن أمها بدأت تتكلم معها بشكلٍ رسمي وبدون أن تفسح لها المجال للأحاديث الجانبية ، بل تكتفي بالحديث الضروري، ووالدها يكثر الحديث عن المسيح والإنجيل أكثر من قبل، غير

هذا كثرت زيارات أصدقائه لهم، على ما يبدو أنه يحاول تزويجي لأحد أبناء أصدقائه الذين يأتون لزيارتنا، لأن كل الذين أتوا في الفترة الأخيرة كانوا يحضرون مع أولادهم ولا يخفون إعجابهم بي والكلام عن العادات والتقاليد، يبدو أن والدي طلب منهم ذلك لأتوقف عن التفكير بك، أنا لا يهمني شيء يا سعيد، كل الذي أريده منك أن تسرع في ترتيب أمورك، أعرف جيدا أن الأمور ليست بهذه السهولة، لكنني أقول هذا لأنهي الحديث كي لا تتكلف كثيرا في الاتصال، يجب عليك أن تفكر أين تصرف مالك من اليوم، نريد أن نبني مستقبلاً خالٍ من الحرمان لأطفالنا، أنا لن أصرف شيئا من راتبي من اليوم غير المواصلات، لكي أدخرَ المال، وأنت أيضا، حاول أن تخفف من التدخين وتوقف عن الكحول لا داعي للمصاريف الإضافية، والآن أغلق السماعة وانتبه لنفسك قبل أن ندخل في الدقيقة السادسة، توت توت توووت أغلقت المكالمة قبل أن أتكلم معها لتريحني قليلًا.

لمستُ البخل فيها حين كنا نتمشى إحدى المرات في سوقٍ شعبي، حين بدأت تناقش البائع على سعر قميص من أجل تخفيض ألفي ليرة لبنانية أي ما يعادل دولارا واحدا، وحين ذهبتُ لزيارتها طلبتْ مني أن أذهب إلى فندقٍ آخر بسعرٍ أرخص من الفندق الذي تعمل فيه، لكن قلتُ حينها ربما أنها حريصة عليَّ، لكن الحرص لا يقول أن تفصل المكالمة في وجهي لكي لا أتجاوز الدقيقة السادسة وأدفع أكثر، يزعجني البخل، الله خلقَ المال لكي نصرفه ونحنُ نستمتع بملذات الحياة، وليس للادخار ووضعه في خزنات وتكديسها مثل المخلل، سوف تتأقلم على حالتي في المستقبل، لن أدعها تُحرم سعادتنا من أجل المال.

جاءت ميساء في موعدها، طلبتُ من نيروز البقاء إلى أن تذهب ميساء، كي لا يحدث شيءٌ بيننا، طلبتُ من ميساء الجلوس على الأريكة، وأخذتُ لها وضعية الجلوس، أمسكتُ بريشتي، لكن يدي خانتني، شعرتُ بأن الفرشاة ترتجف في يدي، حاولتُ جاهداً أن أتغلبَ على الرجفة، لكن بلا جدوى، مثل عجوزٍ يقفُ على حافة العمر ينتظر الموت وهو يرتجف، لاحظت ميساء ذلك، بقيتُ أحاول لأكثر من نصف ساعة، لكن للأسف بلا جدوى، حين توفت جدتي جاءتني رعشة قوية، أذكر ذلك وقت العزاء، لكن قلتُ في نفسي ربما حالة نفسية من الصدمة وقيادة السيارة بدون توقف من بيروت إلى حلب أدت إلى الرعشة، طلبتُ من ميساء أن نتوقف لأنني لا أستطيع المتابعة، وقلتُ لها سأتصل بكِ حين أشعر بالراحة، كان واضحا عليَّ التعب والإرهاق، لكن لماذا هذه الرعشة في اليدين؟

تجاهلتُ الموضوع، وطلبتُ من نيروز أن تغلق المرسم وتضع ورقة على الباب مكتوبٌ عليها المرسم مغلق للأسبوع القادم، سأذهب في رحلة صغيرة إلى جبال كسب، ربما الطبيعة والتكلم مع الأشجار يساعدني قليلًا على إزاحة ستار الكآبة مني.

طلبتُ من أمي أن ترافقني، لكنها رفضت، حزمتُ أمتعتي ومضيتُ إلى كسب بالباص في اليوم التالي صباحا. استأجرتُ بيتا صغيرا قابعا على الجبل، لا أحد من حولي، بيتا معزولًا. في اليوم الأول مشيت في الطبيعة أتكلم مع الأشجار لمدة خمس ساعات تقريبا، تناولتُ العشاء بعدها ومضيتُ إلى البيت، تمددتُ على السرير محاولاً الاسترخاء، استيقظتُ على رنين الموبايل، فتحت عيني بكسل ونظرت إلى الشاشة، كانت المدام سميرة من تتصل.

- مرحبا، جاء صوتها حزينا.

- أهلاً مدام، كيف حالك؟
- لا بأس، أنت كيف حالك؟ ولماذا لم تعد تسأل عني؟
- كنتُ في بيروت وحين عدت تفاجأت بموت جدتي، وانشغلتُ بأمور الدفن والعزاء، والآن أنا في كسب.
- البقية في حياتكم، ولروحها السلام، ولماذا لم تخبرني؟
- كنتُ مشغولاً، حين عودتي من كسب سنلتقي ونتكلم عن العمل ويجب ترتيب بعض الأمور.
- ما هي الأمور التي تحتاج للترتيب؟ سألتني .
- كنتُ أريد أن أقترح عليكِ نقل المرسم إلى دمشق، لأنني سأقيم هناك، فكري في الموضوع إلى أن أعود من كسب.
- أنا لا أريد نقل المرسم إلى دمشق، وإن كنت تريد الانتقال إلى هناك أذهب أنت وأنا سأجد رساماً آخر، أو أنت ساعدني في ذلك.
- حسنا، سنتكلم في الأمر حين عودتي، تصبحين على خير، أغلقت المكالمة كي لا أفسح لها المجال بحديثٍ آخر.

ارتميتُ على فراشي من جديد، أطلب اللجوء منه، ليمتص الكآبة مني ويريحني قليلًا. استرخيت ونمت، استيقظتُ صباحا على خيوط الشمس الذهبية وهي مقتحمة الفراغات بين الستائر، فتحتُ النافذة. صباحٌ خريفي جميل، الأشجار عارية، الشمس بلونها الذهبي، قمم الجبال خرجت من بين الغيوم، صوت فيروز يأتي من بعيد، شعرتُ بالراحة قليلًا، وضعتُ قهوتي وبدأتُ أسافر مع الطبيعة من النافذة وأحاول تثبيت يدي حين أمسك الفنجان، لكن الرعشة تزداد، الأمس كانت أخف ، أشعرُ

بأنني سأفقد الرسم والألوان، عادت الكآبة تقتحمني. ذهبتُ إلى طبيبٍ أرمني في كسب لأسأله عن الحالة هذه، وربما يساعدني في بعض الأدوية، رأسمالي هي هذه اليد، إن فقدتها سأفقد عملي. بعد الفحوصات قال لي الطبيب:

- هناك مشكلة في جهازك العصبي، والمشكلة تبدأ في اليدين وربما تنتقل إلى أجزاء أخرى من الجسم، مثل الرأس والصوت والقدمين، لا أستطيع أن أخمن إن كانت هذه طفرة جينية ورثتها عن أحد والديك، أو هناك شيء مسموم منتشر في البيئة التي أنت فيها، لكنها ستزداد حدّة مع تقدم الوقت، لذلك من المهم الابتعاد عن المحفزات من بينها: التوتر، التعب، تناول الكثير من الكافيين. من الصعب علاجه، بالرغم من وجود الأدوية التي تستهدف ذلك، وربما العمل الجراحي سيساعدك إن لم تنجح الأدوية.

دائماً هناك مصيبة تلوح لي من البعيد، تقول لي لا تبتسم كثيرا يا سعيد، على ما يبدو أن الشقاء سيعود من جديد، لكن هذه المرة سيعود وبقوة. خرجتُ من عند الطبيب وفي داخلي يقينٌ أن القادم أسوأ، ماذا سأفعل إن فقدتُ يدي؟ المال الذي معي لا يكفي لشراء بيت، فكيف لي أن أكمل بقية حياتي؟

بنفسٍ كئيبة مضيتُ إلى البيت، تمددتُ على السرير، بدأتُ أرتب أفكاري، وما هي الخطوة الأولى التي سأقوم بها حين عودتي. إن لم تتوقف الرعشة من يدي سألجأ إلى عملٍ آخر، أو أبدأ بمشروع بحجم المال الذي معي، وأستأجر منزلًا صغير.

مضت خمسةُ أيام في كسب، الرعشة تزداد، رغم الهدوء هنا والطبيعة الساحرة التي تريح الأعصاب، لملمتُ أحزمتي، وتوجهت إلى حلب. دخلتُ إلى البيت، كانت أمي

وأختي جيهان في البيت، جلستُ على الدرج المؤدي الى السطح، أستمتعُ بالحزن الذي في داخلي، دمعتي تقفُ حائرة في مقلتي، رغبةٌ في البكاء تمتلكني، لماذا يدي؟

لماذا يا رب؟

يحتاج الإنسان إلى أعوام لبناء مستقبله، لكن المصيبة حين تأتي تهدمُ كل شيء في لحظات، ماذا سأفعل؟

لم أكمل دراستي لأبحث عن وظيفة، وأشعر بأن الرعشة لن تفارقني للأبد، الآن لا أستطيع الرسم، كيف لو تقدمتُ في العمر قليلًا؟ حينها أحتاج لأحد كي يطعمني إن استمر الوضع كما قال الطبيب. قررتُ أن أستشير أكثر من طبيب، أخذتُ عناوينهم. باءت جولتي بالفشل، لكن للأسف اتفق الجميع أن هذه الحالة ستلازمني للأبد وتتطور مع التقدم في العمر، أحدهم وصف لي بعض الأدوية، قال ربما تساعدني قليلًا. عدتُ إلى البيت بنفسٍ محطمة، ترافقني الكآبة كظلي، حاولت أمي أن تفهم لمَ أبدو كئيباً لكني لم أخبرها بشيء، أخبرتها أنني سأنتقل إلى دمشق في القريب العاجل. اتصلتُ بكريستين لأشرح لها ما حصل معي، حين فتحت الخط قالت بشكلٍ سريع:

- أهلا سعيد، قل ما عندك حبيبي كي لا تتكلف كثيرا في المكالمة
- كريستين أنا بحاجة لك أكثر من المال، إن تكلمنا قليلًا على الهاتف لايعني دمار مستقبلنا، على كل حال اسمعيني حصلت معي مصيبة ولا أدري ماذا أفعل.
- مصيبة؟ ماهي المصيبة؟ بصوتٍ عال وخائف سألتني.

- حين عدتُ إلى العمل في المرسم لم أستطع الرسم، هناك مشكلة في جهازي العصبي، وتماسك في العضلات، وتحصل رعشة في يدي، مما يجعلني أفقد السيطرة على أي شيء أحاول الامساك به.
- يا حبيبي، وماذا قال لك الأطباء؟
- تشابهت أقوال كل الأطباء الذين فحصوني، والآن بدأتُ بالأدوية، لم يعطني الطبيب نسبة نجاح بالأدوية، إلا أنها محاولة فقط.
- تعال إلى بيروت، هنا الأطباء لديهم خبرة جيدة أيضا.
- حين أرتب كل أموري في دمشق سأتي إليكِ ونبحث عن طبيب شاطر ربما يساعدني.
- حسنا، أنا بانتظارك، واتصل بي حين تصبح في دمشق، اعتن بنفسك، أحبك، باي.

وأغلقت السماعة، كم هو قبيح البخل، أصبحت كريستين تزعجني حين أتصل بها وتنهي المكالمة بشكلٍ سريع خوفا من الإنفاق.

خرجتُ من البيت، واتجهت إلى منزل المدام سميرة، حين فتحت لي الباب ارتعشت وحضنتني، يا حبيبي سعيد، لم أحرك ساكناً، انتظرتُ حتى أنهت عناقها ودخلت، جلسنا في الصالون وأنا لا رغبة لي في الحديث، لكن كل ما في الأمر أريد أن أنهي شراكتي معها بشكلٍ نهائي.

- مدام أنا ذاهبٌ إلى دمشق، والمرسم لك، سآخذ لوحاتي وألواني وأذهبُ قريباً، وبالنسبة للحجوزات، سأعطيها إلى صديقي سلام ليرسمها بعد أن نسأل الزبون إن لم يكن لديه مانع.

اعتدلت في جلستها وارتسمت الجدّية على ملامح وجهها وقالت:

- لديَّ هذا البيت الذي كان بمثابة بيتك، والمرسم أصبح لك، ولم أسألك في يومٍ من الأيام عن المال الذي تأخذه مني، ولم أكن بخيلة معك نهائياً، غير هذا ماذا تريد حتى تبقى معي؟
- أنا لن أبقى معك، إن ذهبتُ إلى دمشق أم لا، لأنني لستُ لك.
- تزوج هنا وسأتكفل بكل مصاريف الزواج، وسأشتري لك بيتا في الحي هنا بالقرب مني، وابقَ في المرسم، ولا أريد منك أن تقاسمني الوارد من المرسم، وافعل ما شئت، لكن ابقَ في حلب.
- وما هو المقابل؟ سألتها.
- أن تبقى تتردد إلى هنا كل يومين على الأقل.
- وإن تزوجت أيضا؟
- نعم
- لا، سأرحل ولا أريد منكِ لا أبيض ولا أسود، ومن أجلِ المرسم سأتكلم مع صديقي سلام إن كانت له رغبة العمل فيه، ومن الغد سأبدأ بترتيب أموري للرحيل.

خرجتُ من عندها وهي تحاول أن تشدني، أو تغريني لأبقى معها، أشفقتُ عليها، وغضبتُ من نفسي، مضيتُ إلى المرسم وبدأتُ بتغليف اللوحات وترتيب العدة في الحقيبة، اتصلتُ بسلام ووافقَ على العرض، أرسلتُ له رقم هاتف المدام سميرة ليتصل بها ليتفقا على كل شيء، حين انتهيت مضيتُ إلى البيت وكلي حزن، أحاول البكاء لكن دمعتي تخنقني ولا تنزل، أنينٌ يصرخ كاتماً، عالقٌ في حنجرتي، إن صرخت

عالياً سأصرخُ دماً، إن بكيت سأبكي دماً، دخلت إلى غرفتي وبدأتُ بترتيب أشيائي الشخصية، في طريقي اشتريتُ هاتفا لأمي لأتمكن من الاتصال بها حين أريد.

في اليوم التالي مضيتُ إلى دمشق، بعض الأشياء أحضرتها معي في السيارة، وبعضها أرسلتها في البريد لحجمها الكبير. وصلتُ إلى فندق صغير في منطقة باب شرقي، بقيتُ جالسا في الغرفة طيلة اليوم، أريح نفسي وأسافر مع قهوتي ودخاني في الأفكار التي تتطاير هنا وهناك، تمددتُ على السرير مستسلماً للنوم.

9

في اليوم الأول في دمشق بدأتُ برحلة البحث عن بيتٍ صغير، إنها المرة الأولى التي يكون الحظ فيها صديقي، وجدتُ بيتاً للايجار بالقرب من الفندق الذي أقيم فيه، حين خرجتُ من الفندق رأيتُ مكتبا عقاريّا في طريقي على بعد عدة أمتار، دخلتُ إليه وشرحتُ له طلبي، اصطحبني إلى بيت عربي قديم مؤلف من غرفتين بجانب المكتب، فتحَ البابأ عشر درجات تصعد فيها للأعلى، في الطابق الأول مطبخ صغير وحمّام وغرفة واسعة وهناك نافذتان صغيرتان وسط الجدار، في الطرف اليساري من الغرفة بابٌ آخر، فتحتُ الباب كان هناك عشر درجاتٍ أخرى تصعد فيها إلى الغرفة الثانية، صعدتُ إلى الغرفة، كانت مساحتها كبيرةً جدا، وفي زاوية الغرفة من الطرف اليساري بابٌ آخر يؤدي إلى الشرفة، فتحتُ الباب كانت الشرفة أكبر من الصالون، مطلّة على جبل قاسيون، الشرفة لا جدران لها من الأطراف، كل المنازل من حولك مكشوفة على بعضها البعض، كأنهم يعيشون في بيتٍ واحد، في الشرفة التي بجانبي كان يجلس رجل مع امرأة تبدو أنها زوجته، هزَّا رأسيهما مبتسمين وهما يلقيان التحية. شعرتُ بالدفء في البيت، شعرتُ أنه أكبر من غرفتين، اتفقتُ مع صاحب المكتب على الايجار، كتبنا العقد في المكتب وأعطاني المفاتيح، واتفقنا على تثبيت العقد في مجلس البلدية في اليوم التالي.

بدأتُ جولتي بعد أن خرجتُ من المكتب لأشتري سريرا وحاجيات المطبخ في البداية، والباقي فيما بعد، يجب أن أفكر أن أدّخرَ المال قليلًا إلى أن أجدَ عملاً مناسبا، أو أعود للرسم إن استطعت، اشتريتُ سريرا مع غطاء ولوازم المطبخ الضرورية، رتبتُ أشيائي

وعدتُ إلى الفندق لأحضر أشيائي الخاصة، شعرتُ بالدفء في البيت الجديد، راحة نفسية رغم صدمتي بيدي التي خانتني، مضى يومي في الترتيب والتنظيف.

في اليوم التالي صباحا بعد خروجي من مجلس البلدية، بدأتُ جولتي في إتمام عملية حاجيات البيت، كل شيء كنتُ أشتريه، أقول في نفسي كريستين ستستعمله ويجب أن يكون من أجود الأنواع، أختار الألوان التي تحبها، رسمتُ في مخيلتي أنه سيصبح بيتي الأبدي، وبدأتُ العمل على ذلك. بعد عدة أيام أصبح البيت لا ينقصه إلا القليل ليكتمل. اتصلتُ بكريستين وأخبرتها عن ذلك، سعادتها كانت كبيرة، لا توصف وهي تطلب مني أن أشرح لها عن تفاصيل البيت، اتفقنا على أن تأتي في الأسبوع القادم، لترى البيت ولكي نذهب في زيارة إلى حلب لتتعرف على أمي وإخوتي.

بدأتُ في البحث عن عمل في الفنادق، موظف ريسبشن أو في قسم المحاسبة، دخلتُ إلى فندق أربع نجوم في شارع ميسلون، تكلمتُ مع الموظف الذي يقف خلف الطاولة في بهو الفندق وأعطيته سيرتي الذاتية، حين وصلت إلى المدخل الرئيسي سمعتُ أحدهم ينادي من الخلف:

- يا سيد؟ التفت، قال لي موظف في الفندق السيد عبد الرحمن يدعو حضرتك لشرب القهوة.
- ومن هو السيد عبد الرحمن؟ سألته مستغرباً.
- صاحب الفندق.
- أين هو؟
- هناك في الزاوية، أشارَ بسُبابته إلى رجلٍ جالسا على الطاولة.

عرفته، أنه السيد عبد الرحمن صديق المدام سميرة، التقيتُ به في افتتاح المرسم، كان مع المدام خولة، ذهبتُ إليه، فوقف لاستقبالي، رحبَ بي وطلب من الجرسون فنجان قهوة لي.

- أهلا بك سيد عبد الرحمن، فرصة سعيدة أن ألتقي بك هنا، لكن لم أعرف أن حضرتك صاحب هذا الفندق. قال لي:
- لديَّ خمسة فنادق وخمسُ بنات، لكل بنت فندق، أريد أن أموت مرتاح الضمير، اثنان في دمشق وواحد في حلب وفي اللاذقية وتدمر اثنان، وأغلب الأوقات أنا هنا، لأن باقي الفنادق من فئة الثلاث نجوم ولا تحتاج إلى إدارة كبيرة مثل هذا الفندق، لكن لم تقل لي ماذا تفعل هنا؟
- أنا أبحثُ عن عمل، هناك مشكلة في جهازي العصبي، والمشكلة هذه جعلتني أتوقف عن الرسم، لذلك أحاول أن أجدَ عملاً، أفضل من أن أقوم بمشروعٍ ما وأفشل، باعتبار أنني غريب عن دمشق.
- ولماذا اخترت دمشق ولم تبقَ في حلب؟
- أحاول أن أوسعَ دائرة معارفي، دمشق العاصمة، والمجالات فيها أوسع.
- حسنا، تستطيع بدأ العمل هنا إن أردت، لكن أي قسم تجد نفسك فيه أكثر؟
- الريسبشن أو المحاسبة.
- هل لديك خبرة من قبل؟ سألني.
- لا، أجبته بخوف.

- حسنا، سأتكلم مع مدير الموارد البشرية ليعينك في قسم المحاسبة، لأنني أريد ضبط هذا القسم، أشعرُ بهدرٍ كبير في الفندق، والدخل لا يُقارن مع حجم الفندق والمصروف، أعطني رقمك وسيتصل بك في أقرب وقت.
- شكرًا جزيلاً لك، هذه خدمة كبيرة لي، أنا قمتُ بتوزيع سيرتي الذاتية لعدة فنادق، إلى متى سأنتظر مدير الموارد البشرية هنا؟ سألته كي أتأكد من ضمان حصولي على الوظيفة.
- غدا سيخبرك عن تفاصيل الدوام والعمل والراتب ومتى تستطيع مباشرة العمل، لكن لديَّ عندك طلب واحد.
- تفضل سيد عبد الرحمن، ما هو؟
- أريد منك أن تخبرني عن كل مشكلة تحصل في الفندق هنا قد تضر بي كالسرقة والفواتير المشكوك في أمرها، والعمال الذين يتسكعون هنا وهناك.
- أنا لا أحب التجسس من طبيعتي، لكن سأخبرك بالأمور التي تضر بمصلحة العمل، هذا أكثر ما يمكنني أن أفعله.

شعرتُ بأنه اِمْتَعَضَ، لكن لم أبالِ، لأنني أبحث عن عملٍ محترم، لا لأصبح جاسوسا ناقلًا للأخبار.

- على كل حال لم أطلب منك أكثر من ذلك، هذا كان قصدي، قال لي.
- أنا بانتظار المكالمة، وشكرا على القهوة.

في الطريق اشتريتُ الجرائد والكتب لأملأ أوقات فراغي إلى أن تصل كريستين ونذهب إلى حلب.

في اليوم التالي اتصل بي شخص اسمه إلياس، قال لي أنا مدير الموارد البشرية في الفندق، وأخبرني السيد عبد الرحمن أنك تريد العمل في الفندق كمحاسب، أنا الآن في الفندق إن أردت تعال إلى هنا قبل الساعة الثالثة ظهرا.

ذهبتُ إلى الفندق، والتقيت به، وقعنا العقد واتفقنا على كل شيء بخصوص الدوام والراتب، وأن أبدأ العمل بعد أسبوعين .

في طريقي إلى المنزل حين دخلت الحي، تفاجأت بالمنظر الذي رأيته، أمام بعض البيوت جلسات مختلطة، نساء مع رجال، شباب مع فتيات، بعضهم يشربون العرق وبعضهم قهوة وهناك علب بيرة، مجموعة صغيرة على اليمين مكونة من ثلاثة شباب وفتاتين يغنون أغنية لفيروز بصوتٍ منخفض، كان المنظر صادماً بالنسبة لي، في حلب لم أجد مثل هذه التجمعات، التجمعات محصورة بين الشباب والرجال أو كبار السن، وأنا أمشي في الحي وألقي السلام عليهم وقف أحدهم ومشى باتجاهي ومدَّ يده ليصافحني، مددتُ يدي قال لي:

- أنا جوزيف، أهلا بك تشرفت.
- أنا سعيد كُردي من حلب، جاركم الجديد هنا.
- أهلا بك تفضل، وأشار بيده للجلوس معهم.

اجتمعوا بالقرب مني، وبدؤوا يعرفون بأنفسهم، واتفق الجميع في قول أنت أصبحت واحدا من هذا الحي الذي نعتبره بيتنا الكبير، وأي مساعدة لا أتردد في طلبها. بدأتُ أخبرهم عن عملي وعائلتي، وعن الذي حصل في يدي، لكن لم أخبرهم عن سبب إقامتي في دمشق، ولم أفصح لهم عن علاقتي بكريستين وأنني سأتزوج عمَّا قريب، أمضيتُ سهرة من أجمل السهرات في حياتي، شعرتُ بأنهم عائلة واحدة، رغم اختلاف

الأديان والطوائف، المسيحي مع المسلم، الشيعي مع الدرزي، المرشدي مع الأرمني. اعتذرت منهم بعد أن شربنا القهوة، وقلت لهم عليَّ الذهاب لأقوم بتحضير العشاء. دخلتُ إلى البيت وشعورٌ غريب يمتلكني، شعور تلفُّه الراحة، وأشعر أن الأمور ستصبح على ما يرام هنا، بدأتُ بتحضير البيض المقلي وبعض الخضروات وجبة العشاء، باعتبار أنني كنتُ فاشلاً في الطبخ، حتى قلي البيض لم أكن أعرف متى يصبح جاهزاً، كنتُ أنتظر إلى أن يتغير لونه فقط، وأنا أقطّع الخضروات طرق أحدهم الباب، فتحتُ الباب، امرأة وبيدها علبة طعام قالت لي:

- أنا زوجة جوزيف وتستطيع مناداتي أم جورج، أحببتُ أن أحضر لك بعضا من الطبخ الشامي.
- شكرا جزيلا.

تناولتُ العلبة منها وعدتُ لأرى إن تغير لون البيض أم لا، حين وصلت إلى المطبخ كان البيض جاهزاً وتغير لونه إلى الأحمر القاتم، فتحتُ علبة الطعام، أرز وملوخية، من الأكلات المفضلة لدي، تناولتُ البيض ووضعتُ علبة الطعام في البراد على قائمة الانتظار للوجبة التالية.

مضى الأسبوع سريعاً، في كل يوم كان يأتي أحد الجيران بعلبة طعام من الذي يطبخونه في المنزل، ولكي لا يحرجونني يقولون لي أردنا أن تشاركنا الطعام وتعطينا رأيك في الطبخ الشامي. مضى الأسبوع بين المشي في أحياء دمشق القديمة والمقاهي والمتاحف والأسواق، دمشق مدينة أكثر من رائعة، ليس بطبيعتها فقط، بل بقدمها التاريخي، القِدم ليس في الأحياء والمتاحف فقط، شعورك بالناس أنهم قطعٌ أثرية، يملكون من

الخبرة في الحياة ما يكفي ليكون وعيهم كبيرا، متجاوزين فيها خطوط العادات والتقاليد بالاحترام.

في اليوم المحدد لقدوم كريستين، بدأتُ بترتيب البيت ليكون جاهزاً، حين وصلت إلى المحطة اتصلت بي، ذهبتُ لأصطحبها معي إلى البيت، لحظة لقائنا احتضنتني وكادت أن تكسر أضلاعي وهي تحاول بأن تضمني إليها، كم هي دافئة وتشعرني بالراحة.

- حمدا لله على سلامتك حبيبتي، كيف حالك؟
- تمام، أنت كيف تجري معك الأمور هنا في دمشق؟
- تجري الأمور بشكلٍ رائع، أخبرتها في الطريق كيف يمضي يومي وماذا يحصل معي بأدق التفاصيل، وصلنا إلى المنزل ظهرا، كان الطقس بارداً، حين دخلنا كانت فرحتها عارمة وهي تبدي إعجابها بالبيت والمفروشات وطريقة ترتيبي للمنزل، أخرجتُ عود ثقاب لأشعل المدفأة قالت لي الجو معتدل هنا ولا داعي لذلك.
- لكنني أشعرُ بالبرد قلتُ لها، قالت:
- البس معطفك أو شيئا سميكا يدفئك أفضل من هدر المازوت في هذا الطقس المعتدل.
- حبيبتي أنا لا يهمني المازوت حين أبرد.
- لا يا سعيد يجب أن تفكر قليلًا بمستقبلنا، أنا لا أحب أن أعيش في بيتٍ بالإيجار، لكن من أجلك سأحتمل إلى أن تصبح أمورنا جيدة ونعمل سوياً، لذلك يجب عليكَ التفكير من الآن فصاعدا.

لم أناقشها كثيرا، اكتفيتُ بمعطفٍ لأُدفئ جسدي وأريح نفسي من حديثٍ لا طعمَ له الآن، باعتبار أنها وصلت من بيروت للتوّ ولم نتزوج بعد، في المستقبل سأجعلها تغير طريقة تفكيرها.

في المساء ركبنا السيارة ومضينا إلى حلب، وصلنا في الصباح إلى المنزل، كان وقت الفطور، رحبت أمي وإخوتي بكريستين، الدهشة كانت واضحةً عليهم من جمالها، سررتُ بأن أمي أحبتها من اللحظة الأولى، تناولنا الفطور سوياً ومضى كلُ واحدٍ من إخوتي إلى مدرسته، ذهبنا أنا وأخي فرهاد في جولةٍ صغيرة ضمن المدينة لأزور صديقي سلام في المرسم، وحين دخلتُ المرسم تفاجأت بأن سلام لم يكن هناك بل شخصٌ آخر، سألته عن سلام قال لي باع لوحة للقنصلية الإيطالية، وعُرِضَ عليه السفر إلى هناك ليقيم معرضاً فنياً في ميلانو، سررتُ لسماع الخبر.

عدنا بعد الظهر إلى البيت، وجدتُ أمي وكريستين تجلسان سوياً في الغرفة وابتسامة كبيرة مرسومة على وجه أمي، الحمدلله، قلتُ في نفسي، كان من المهم أن ترتاح أمي لكريستين، لا أريد أن ترفضها، كانت موافقة أمي واضحة حين غمزت لي بطرف عينها وهي تشير إلى كريستين، بينما كانت هي منشغلة في الحديث مع أخي فرهاد عن عالم التصوير، باعتبار أن أخي كان مصورا.

نامت كريستين في غرفة أختي جيهان، وجلستُ مع أمي أستفسرعن رأيها فيها؟

قالت أمي الفتاة جميلة جدا، لكنني لمستُ عنادها وبخلها أكثر من مرة، وهي تشرح لي بعض الأمور:

- أنا لن أقول لك غير كلمتين يا بُني، إن حصل بينكما شيء في يومٍ من الأيام لا تطرق بابي وتطلب المساعدة مني، لأن المرأة العنيدة والبخيلة تجعل حياة

الرجل أشبه بالعيش في صندوقٍ معلق، تريد أن تغلق الصندوق كي لا تضطر للصرف أو أن يشاركها أحد في آراء زوجها.

- أمي العناد شيء مقدور عليه، سنصل إلى حل في المستقبل، والبخل أيضا بسيط، وفي المستقبل ستغير نظرتها على ما أظن لأنها تحبني وأنا أحبها.
- لا أستطيع غير أن أتمنى لك كل الخير والسعادة في حياتك معها، هل قررتما موعد العرس؟
- لا ليس بعد، الآن سأبدأ العمل في دمشق، إلى أن أصبح جاهزاً، وبعدها سأذهب إلى منزلهم وأتكلم مع والدها بشكلٍ رسمي، وإن وافق سنذهب جميعاً إلى بيروت لنقيم حفلةً صغيرةً هناك، لأنني متأكدٌ من أن أقاربها لن يحضروا العرس كما قالت لي كريستين.

كان واضحا من تلافيف وجه أمي أنها لا ترغب بأن أقوم بهذه الخطوة، لكن حبي لكريستين منعها من الرفض.

في اليوم الخامس قررنا العودة إلى دمشق، بعد أن قضينا خمسة أيام في حلب بين التجوال في المدينة القديمة والقلعة والأسواق والمطاعم والمقاهي، كان واضحا أن بخل كريستين يفوق المنطق، حين أرادتْ أن تشتري معطفًا من إحدى المحلات في منطقة العزيزية، حيث جعلت البائع يبيعها المعطف بالسعر الذي أرادته فقط لكي يتخلص من ثرثرتها، رغم أنني حاولتُ مرتين التدخل لكنها رفضت وقالت لي سأشتريه من مالي الخاص.

عدنا إلى دمشق، جمال كريستين جعلني أنسى طريقة تصرفها مع أمي وأختي حين كانت تتكلم عن المال وكيف لنا ألَّا نستقبل الضيوف كثيرا في منزلنا بعد أن نتزوج

لكي نشتري بيتا، ونفتح مشروعاً خاصا بنا في المستقبل، باختصار لا نحبذ قدوم أحد كل فترة وفترة لأننا في مشروع لندخّر المال فقط وليس للسعادة.

رافقتُ كريستين إلى المحطة في اليوم التالي واتفقنا أن أذهب لزيارتها حين تصبح الأمور جاهزة من ناحية والديها لطرح الموضوع عليهم بشكلٍ جدّي.

عدتُ إلى بيتي محاولاً الرسم، لربما حصلت معجزة إلهية وتوقفت الرعشة، بدلاً من العمل في الفندق، لكن للأسف باءت المحاولة بالفشل، الرعشة تزداد حين أحاول أن ألتقط القلم.

بدأت العمل في الفندق، وأصبحتُ المسؤول عن استلام البضائع في الصباح، وجرد صناديق النقود في الأقسام ليلاً، كان ذلك بناءً على طلب السيد عبد الرحمن، كان يجب عليَّ أن أتواجد في الصباح لاستلام البضائع، إلى أن أنتهي من الاستلام والتسليم، أذهب إلى البيت لأستريح حتى المساء، وفي التاسعة مساءً أعود لأبدأ بجرد النقود ووضعها في الخزانة حين أنتهي في الليل، كان الدوام ممتعا، لا يشعرني بالتعب، كانت مشكلتي في الاستيقاظ صباحا، باعتبار كنتُ أنتظر إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل إلى أن يغلق مطعم الفندق، حينها كنتُ أعود إلى البيت، أجلس للقراءة حتى الساعة الخامسة صباحا. الحالة هذه جعلتني أشتري أربعة منبّهات، أضبطهم على الرنين بين السابعة والنصف والثامنة، كي أستيقظ، وفي أغلب الأوقات كنتُ أتأخر عن العمل.

في إحدى أيام عطلتي طرقَ أحدُهم الباب، حين فتحت كانت جارتي وزوجها اللذان يقيمان بجواري تماما:

- أهلا بكما، تفضلا. قالت جارتي:
- شكرا لك، لكن أريد أن أطلب منك مفتاح بيتك.

- مفتاح بيتي أنا؟ سألتها مستغرباً.قالت:
- نعم مفتاح بيتك أنت.
- لمَ؟ سألتها باستغرابٍ شديد..

قالت جدار غرفة نومك بجانب جدار غرفة نوم أطفالي، كل يوم من السابعة والنصف يستيقظُ أطفالي على أصوات المنبهات وأنت لا تستيقظ، لذلك أعطني المفتاح وقل لي متى تريد أن تستيقظ وكل يوم سآتي قبلها أصنع لك القهوة وأيقظك، لكن رجاءً لا تضبط المنبّهات بعد اليوم.

شعرتُ باللاشيء، هل هي تمزح أم ماذا؟

- أعدك سأحاول الاستيقاظ من رنّة المنبّه الأولى، وأعتذر عن الازعاج، لكن بصراحة ينتهي دوامي منتصف الليل وعليّ العودة صباحا.

كانت هذه الحادثة هي بمثابة درس أتعلمه من جارتي المسكينة، أن أدرب نفسي على الاستيقاظ من رنّة المنبّه الأولى، لكن انتهى التدريب حين تأكدتُ أني لا أستطيع الاستيقاظ بدون منبّه، فقررتُ أن أعطي المفاتيح لجاري الموظف ليساعدني في الاستيقاظ.

تمضي الأيام هنا سريعاً، والحياة بسيطة، أصبح لديَّ أصدقاء كثر، نلتقي في المركز الثقافي الروسي، نلعب البلياردو أو نشرب قهوتنا سويا ويمضي كل واحد فيما بعد إلى عمله أو بيته، كان أغلبهم فنانين ورسامين وشعراء وكتّاب، تجمعنا لغة الفن رغم فوارق السن والقوميات والأطياف.مرَّت أشهر وأنا على هذه الحالة في العمل صباحا ومساءً.

في يومٍ من الأيام اتصلت بي أمي وطلبتْ مني أن آتي إلى حلب، صديقُ أختي جيهان سوف يأتي مع عائلته ليتكلموا عن أمور الخطبة والزواج، في نفس اليوم اتصلتُ

بكريستين، طلبت مني أن آتي إلى بيروت لنضع النقاط على الحروف باعتبار أنها لمست الرفض من طرف والديها في الزواج، وقالت لي ستتكلم عن الموضوع حين تأتي ونرتب الأمور كما يحلو لنا، أنا لن أقف عند رفض والدي، أكثر ما يمكنهم أن يقولوه لي أنتِ لستِ ابنتنا، لكن بعد فترة أنا متاكدة أنهم سيغيرون موقفهم، كما حصل مع إحدى صديقاتي. توجهتُ في اليوم التالي إلى حلب بعد أن طلبتُ أجازة من العمل.

في اليوم المحدد لقدوم يونس صديق أختي مع عائلته شعرتُ بوعكة صحية، امتلكني شعورٌ غريب، حين دخلَ يونس مع عائلته إلى بيتنا شعرتُ بأنني أفقدُ توازني، تظاهرتُ بأني على ما يرام كي لا أفسدَ فرحة أختي، اتفقنا على موعد الخطبة، في حفلة عائلية صغيرة نقيمها في بيتنا باعتبار أن يونس كان من عائلة بسيطة، والده موظف في السكك الحديدية، وهو طالب في السنة الأخيرة من كلية الهندسة المدنية، والعرس في القريب العاجل قبل أن ينتهوا من الجامعة. باركتُ لأختي ولخطيبها. حينَ صافحتُ يونس لم أشعر بالراحة، كانت يده باردة تنذر بمصيبة، أو كارثة، طلبتُ منه أن نتمشى قليلًا في الخارج، لندخن سيجارة.

- يونس أنت شاب متعلم ومن عائلة محترمة، لكن هذا لا يعني ألَّا أطلب منك ما أريد، قلتُ له. قال لي بكل احترام:
- تفضل، أنا جاهز لأي طلب.
- لن أقول لكَ كم شقيت وتعبت لأحافظ على أمي وإخوتي، وبالتحديد أختي جيهان، باعتبار أنها أختي الوحيدة، والأنثى في مجتمعنا ينظر إليها المجتمع نظرةً متخلفةً في بعض الأمور، لكن كل ما أريده منك أن تسعدها فقط، السعادة ليست في المال صدقني، ولا في الثياب أو أي شيء آخر، السعادة

أساسُها الحب، والباقي يأتي تلقائياً، إن كان هناكَ حب، صحنُ زيتونٍ يصبح وليمةً، وإن لم يكن هناك حب حتى الملايين لن تجعلكما سعيدَيْن، يمكنك أن تعتبر كلامي رجاء أو توسلا ، أختي بسيطة جدا، ربما بمشوارٍ صغير في حيٍ بسيط تشعر أنها في رحلة إلى أجمل المدن.

- أنا أعرفها جيدا يا سعيد، وطلبك هذا سأعتبره أمراً وأعدك بقدر استطاعتي أن أجعلها سعيدة، وأتمنى أن أكونَ كما تطلب مني.

شعرتُ بالراحة بعض الشيء، لكن كان هناك خيط بيني وبينه ينذرُ بالشؤم، قلتُ في نفسي ربما إحساسي في غير مكانه هذه المرة.

انتهت سهرتنا، وجلستُ مع أمي، أخبرها بالذي يحصل معي في دمشق، وأخبرتها بأنني سأذهب إلى بيروت من هنا لنضع النقاط على الحروف أنا وكريستين، طلبت مني أن أحاول إقناع أهلها بالزواج كي يصبح الزواج بالشكل الطبيعي.

توجهتُ في اليوم التالي إلى بيروت، وصلتُ مساءً إلى فندقٍ صغير بالقرب من الفندق الذي تعمل فيه كريستين، لأتجنبَ الحديث معها عن المصاريف، وفي الحقيقة الفندق الذي تعمل فيه باهظ التكاليف نوعا ما، اتصلتُ بها وأخبرتها عن وصولي فطلبت مني أن نذهب إلى مكانٍ عام نتكلم فيه عن كل شيء قبل ذهابي إلى منزلهم.

ذهبنا إلى مطعم صغير بالقرب من منزلهم، جلسنا وبدأت حديثها أن والديها رفضا قدومي إلى المنزل، وأنهما سيخبران المطران للتدخل في موضوعنا، وربما المطران يحصل على موافقة من الأمن اللبناني لمنع خروجي من لبنان، ومنع دخولك إلى لبنان.

- هذه ليست مشكلة يا كريستين، سأدخل بهوية أحد أصدقائي لو منع اسمي من دخول لبنان.

- لا يا سعيد، أنا لم أقل لك أن تأتي لنبحث عن حل دخولك أو خروجي من لبنان، طلبتُ منك المجيء لنتفق ماذا سنفعل بالتحديد.
- كريستين، أنتِ تريدينني ولا يوجد عندي أي شك في هذا، وأنا أحبك، لكن أريد منكِ أن تفكري لبعض الوقت، ربما سيطلب والدك من المطران منع دخولك لبنان بطريقة ما، هذا يعني أنك لن تعودي إلى بلدك، وربما للأبد، ولن تلتقي بأقاربك وأصدقائك مرة أخرى إلى أن تتغير الظروف، وربما لن تتغير، أنا أحبك، وأنتِ تحبينني، لكن عليكِ أن تفكري في الموضوع أكثر، القرار قرارك وأنا عليَّ التنفيذ فقط، تريدين الذهاب معي، بيتي جاهز ونستطيع أن نذهب الآن، تريدين أن نبقى أصدقاء نزور بعضنا البعض كلما استطعنا لا مشكلة لدي، تريدين أن ننسى بعضنا، سألبي طلبك رغم أنه ليس بالأمر السهل علي.
- توقف هنا سعيد، أنا أريدك أنت، بأي شكل من الأشكال لايهم، لكن قل أنت ما رأيك بالتحديد؟
- رأيي أن تتمهلي بعض الوقت، ربما يغير والديكِ رأيهما بعد فترة، ابتعدي عنهما وأنتِ في البيت معهما، لا تجلسي معهما، تناولي الطعام وحدك، حاولي أن تظهري لهما أنكِ لستِ سعيدة بدوني، وحين يسألونكِ عن البعد هذا قولي لهما أريد أن نتزوج أنا وسعيد، ربما في المستقبل القريب غيرا رأيهما، حينها يصبح زواجنا أجمل. صمتت قليلا ثم قالت:
- حسنا، سأنتظر سنة واحدة فقط، لا أكثر، إن لم يغيرا رأيهما سأحزم حقائبي وآتي لوحدي إلى دمشق، اتفقنا؟

- حسنا، اتفقنا، هيا بنا لأوصلكِ إلى البيت، الوقت تأخر، متى موعدنا غدا؟
- سأنتهي في الواحدة ظهرا من العمل وآتي إلى الفندق الذي تقيم فيه ونذهب سوياً إلى أي مكان تريد.
- لكن تذكري، أجازتي ثلاثة أيام فقط.

في اليوم التالي اتصلت بي في الثانية عشرة وقالت:

- سعيد تعال إلى الفندق هنا في الساعة الواحدة تماما وأصعد إلى الغرفة رقم 622 سأكون هناك في انتظارك، اشتقتُ إليك.

توجهتُ إلى الفندق وصعدتُ إلى الغرفة 622، طرقتُ الباب، فتحت كريستين، وهي بلباسها الداخلي فقط.

أغلقتْ الباب، وأسندتني على باب الغرفة من الخلف وهي تحاصر بيديها عنقي، رمت بكل ألبستي على الأرض وهي تقبّلني وتخلع ملابسي ببطء إلى أن أصبحتُ عارياً، شفتاها لا تفارق شفتي، احتدّ الحب بيننا لدرجةٍ مجنونة، طلبت مني أن أفرغ سائلي المنوي داخل رحمها، وفعلتُ ذلك.

في يومٍ من الأيام، وبعد عودتي من بيروت بأكثر من شهر اتصلت بي كريستين على غير عادتها، كنتُ في العمل، الوقتُ ظهرا وبقي القليل إلى أن أعود إلى البيت، فتحتُ الخط لأخبرها أني سأتصل بها بعد ساعة حين أصل إلى البيت.

- ألو حبيبتي كريستين سأتصل بك بعد ساعة.
- لا سعيد فقط أريد أن أقول لك أنا حامل.
- حامل؟
- نعم حامل.

أغلقتُ المكالمة دون أن أقول أي شيء لها، ولم أستطع على الحِراك، لم أكن أعرف إن كانَ يجب عليَّ أن أفرح أم ماذا؟

هذا يعني أنّي سأصبح أبا، رميتُ كل الأوراق من يدي وطلبتُ من زميلي أن يكمل عني العمل.

ذهبتُ إلى البيت لأحاول أن أفكر ما الذي سيحصل، وماذا يجب أن أفعل!

اتصلت بكريستين لأفهم منها أكثر، قالت لي:

- كان يجب أن تأتيني الدوررة الشهرية منذُ أسبوعين، وحين تأخرتْ ذهبتُ إلى الطبيب لأتأكدَ من ذلك، والتحاليل أثبتت أني حامل.
- إذًا ما الحل في رأيك؟ سألتها مستغرباً، وشعورٌ غريب يمتلكني. قالت:
- أنا لا أريد أن أقوم بعملية إجهاض، أريد الطفل الذي هو منك.
- حسنا، وما هو الحل برأيك؟
- الحل أن نتزوج، والداي لن يوافقا، حاولتُ معهما كثيرا، لكن دون فائدة، لم يتغير شيء.
- حسنا، دعيني أرتب الأمور وسأخبرك قريباً ماذا سنفعل.

اتصلتُ بأمي وأخبرتها كلَّ شيء، قالت أحضرها وتعالوا إلى حلب، سنقيم لكما عرسا صغيرا، وقت الولادة نقول للناس أنها ولدت في الشهر السابع لنتجنب ألسنتهم.

قام أخي فرهاد بتجهيز كل شيء للعرس في حلب، وصلنا أنا وكريستين قبل موعد العرس بأربعة أيام، كانت كافية لتشتري فستانا وأن تجهز نفسها، تولَّتْ أختي جيهان كل شيء معها.

في يوم العرس كان وجه أمي غريباً بعض الشيء، لمستُ الحزن والفرح في نفس الوقت، قبّلتني واحتضنتني وبدأت تذرفُ دموعها، هي دموع فرح، خوف، حزن لا أدري، كنتُ سعيداً بعض الشيء، لكن أختي جيهان كانت حزينة، حزينة جدا وكأنه هناك مشكلة حدثت معها، لم يكن هناك مجال لأسألها عن السبب، إخوتي فرهاد وجوان وجميل كانوا سعداء جدا، ركبنا السيارة وانطلقنا إلى قاعة العرس في زفةٍ صغيرة، وصلنا إلى القاعة وكان هناك بعض الأصدقاء وبعض الأقارب وجيراننا في الحي، لم يتجاوز عدد المدعوين سبعين شخصا. كريستين كانت ترقص، لكن رقصتها كانت مصطنعة، لم ترقص كما كنا نرقص في بيروت، بكتْ مرتين في العرس، ربما لأنه في ليلة عرسها لم يكن والداها بجانبها، انتهت الحفلة في الواحدة ليلاً وكنتُ قد حجزتُ غرفة في فندق لأربع ليالٍ. قضينا الليالي الأربع في دوامة من البكاء، لم أقترب منها غير مرة واحدة، وكان هناك بعض الإصرار مني حتى قبلت في اليوم الثاني. كانت غير كريستين التي أعرفها، ابتسامة مزيفة، كلام يخرج من الفم وليس من القلب كما كانت، في الليلة الأولى استيقظتُ ثلاث مرات على صوتها وهي تحلم بكوابيس وتصرخ بصوتٍ مكموم، في الليلة الثانية طلبتْ مني أن أحضر النبيذ لها لكي تستطيع الاسترخاء والنوم، لكنني رفضتُ خوفاً على الطفل، وأصررتُ على ممارسة الجنس لربما يساعدها ذلك على الاسترخاء والنوم. لكن بلا جدوى، مضتْ الليالِ الأربع وكأننا في فيلم للرعب، تخاف من النوم لأنها تحلم بالكوابيس، وطيلة اليوم، صامتة لا تتكلم، وإن سألتُها سؤالا أو فتحتُ معها موضوعا ما كانت تكفي بالرد باختصار وتنهي الحديث.

في اليوم الخامس ذهبنا لزيارة أمي ولنمكثُ عندهم يومين وبعدها نذهب إلى دمشق، لنبدأ حياتنا الزوجية، هي وأختي جيهان لم تتحدثا كما قبل، طلبتُ من أختي أن

ترافقني إلى السوق لأفهم منها ما حصل، لكن أنكرت كل شيء وقالت لي كنتُ أتمنى لو كان والدك معنا ليلة العرس لذلك شعرتُ بالحزن.

بعد يومين حانَ موعد رحيلِنا إلى دمشق، لم أفهم شيئا عن سبب ذلك الجدار الذي بُنيَ بين أختي وأمي وكريستين، على الباب اكتفتْ بمصافحة الجميع دون أن تقبّلهم وقالت: "سنأتي لزيارتكم في أقرب وقت"، ولم تقل ننتظر زيارتكم لأمي أو إخوتي، شعرتُ بأن هناك شيءٌ ما حصل، لكن لم أفهم ما هو، ابتلعتُ الحالة هذه في داخلي وصمتٌّ، وقلتُ في نفسي سيأتي يوم وأفهم كلَّ شيء.

وصلنا إلى بيتنا في دمشق مساءً، كانت كريستين غير التي أعرفها، وضعنا الحقائب في الغرفة في الطابق الأول، قالت لي: "أشعر بالتعب وأريد أن أنام قليلًا". صعدتْ إلى الغرفة في الطابق الثاني، وتركتني في حيرةٍ من أمري، اتصلتُ بأمي لأستفسرَ إن حصل شيء معهم في حلب؟ لكن أمي قالت لا لم يحصل شيء، طلبتُ أن أتكلم مع أختي جيهان، كذلك الأمر لم تقل لي شيئا. لستُ غبيا كي لا أشعر بتغير الكل قبل موعد العرس بيومين، ظلَّتْ إشارات الاستفهام تحوم في رأسي.

بعد أسبوع من وصولنا إلى دمشق، لم يحدثْ أي تغيير في حالتها، صمتٌ، نومٌ، أحاديثٌ مختصرةٌ، تحاول أن تتهرب مني كي لا أطلب منها أي شيء، كنتُ أنا من يقوم بأعمال التنظيف والترتيب، نكتفي ببعض البيض أو المعلبات لتناول الطعام، ولأني كنتُ أحب الطبخ المنزلي لم أطلب منها أن تطبخ كنتُ أقول ربما الحمل أتعب جسدها ويجب عليَّ أن أراعي وضعها، ذهبتُ إلى مطبخ دمشقي يقدم الطبخ المنزلي الجاهز، وطلبتُ وجبة فريك مع اللبنية ورز مع الملوخية وبعض الكبب المشوية والسلطات.

حملتُ أكياس الطعام وعدتُ إلى البيت ظننتُ بأنني أقوم بشيءٍ عظيمٍ لزوجتي، وستسعد بالطبخ الشامي، لكن ليتني تناولتُ الطعام وحدي ولم أقم بفعلتي هذه، حين دخلت إلى الغرفة كانت ممدة على الصوفا، رأتْ الأكياس في يدي، ولكثرتهم صرخت:

- ما هذا؟ توسعت حدقة عينيها وزمت شفتيها وهي تسألني.
- لا شيء يا حبيبتي، كل ما في الأمر مللتُ من المعلبات والبيض وقلتُ في نفسي أن نتناول اليوم بعض الطبخ.
- ولمَ لم تقل لي أنك تريد مني أن أطبخ لك؟
- أنتِ مرهقة ولا أستطيع أن أطلب منكِ شيئا، لا يهم الآن دعينا نتناول الغداء قبل أن يبرد.

صمتت وقامت بجلب الماء والصحون والملاعق، حين رأتْ كمية الطعام وتعدد الأصناف انصدمت وسألتني:

- كم دفعت ثمن كل هذ الطعام؟
- لا يهم كم ثمنه، المهم أن يعجبك، غير هذا الطعام يكفي ليومين أو ثلاثة، يعني لن يكون هناك معلبات في اليومين القادمين وبعدها سنجد حلاً ما.

وضعت ملعقتها على طرف الصحن وقالت:

- لن أتناول أي شيء قبل أن تقول لي كم دفعت ثمن كل هذا.
- حبيبتي المال لا يهم، صحتك وراحتنا هي الأهم، المال يذهب ويأتي، أنا أعمل، وراتبي يكفي لنعيش بسعادة، غير هذا لديّ بعض المال في حسابي بالبنك.

- لا، لن أتناول قبل أن تقول لي، وباعتبار أنها عنيدة كما قالت أمي تأكدتُ من نبرة صوتها أنها لن تتناول قبل أن أقول لها كم دفعت ثمن الطعام، ولكي يمرَ الموضوع بسلام كذبتُ عليها وقلتُ لها دفعتُ 1200 ليرة فقط، وفي الحقيقة 1700، ظننتُ أنها لن تقول شيئا، لكن للأسف رمت الملعقة أمامي على الطاولة وصرخت بأعلى صوتها وقالت:
- متى ستفهم أن لدينا طفل قادم في الطريق ويجب أن نشتري بيتا قبل قدومه، أنا أحاول ألا أذهب إلى الطبيب كي لا ندفع له وأنت بكل برودة أعصاب تذهب لتحضر طعامًا بـ 1200 ليرة وتظن أنه مبلغٌ صغير، سعيد هذا الوضع يحتاج إلى ترتيب، بهذا الشكل بعد عامين سنبيع كل ما لدينا لنعيش.
- حبيبتي كريستين أنا لن أقبل بالوضع هذا، كل ما في الأمر أننا عرسان جدد، وظروف الحمل منعتنا من الخروج لنستمتع ببداية زواجنا، لذلك قلت في نفسي لا ضير من أن نتناول طعاما جاهزا في البيت، يوفر علينا مشقة الخروج باعتبار أنكِ متعبة وفي نفس الوقت الغذاء ضروري لك.
- الغذاء ضروري لي أعرف هذا جيدا، لكن ليس بهذا الشكل، أنت تبذر المال يا سعيد، ومن اليوم أنا سأستلم مصاريف البيت، ومن ناحية الطبخ سنطبخ كل يومين مرة.
- ولماذا كل يومين مرة؟ سألتها مستغرباً. قالت:
- الغاز والكهرباء ليسا بالمجان أليس كذلك؟ لذلك سنكتفي بتشغيل الغاز كل يومين مرة، والفرن في الأسبوع مرة. قلتُ لها:
- سنتكلم في الموضوع فيما بعد، دعينا نتناول طعامنا الآن.

- لا لن أتناول طعاما بـ 1200 ليرة.

صعدتْ إلى غرفة النوم في الطابق الثاني وتركتني وحيدا، شعرتُ بأنه يجب أن أسلح نفسي بكتب علم النفس لأواجه الإعصار الذي ستقوم به كريستين في الأيام القادمة، لأستطيع أن أحل المشاكل بشكلٍ هادئ.

صباح اليوم التالي بينما كنا نشرب قهوتنا قالت لي:

- أريد أن أبحث عن عمل.
- عمل؟ ولماذا العمل يا حبيبتي؟ لديَّ من المال ما يكفي لأشتري بيتا صغيرا، وغير ذلك أنا أكسبُ جيدا من عملي، ونستطيع أن ندّخر قسما منه.
- لا، يجب عليَّ أن أعمل وأن يكون لي حصةٌ في البيت الذي سنشتريه.
- حصة؟ ماذا تقصدين بحصة؟ سألتها غاضباً. قالت:
- أريد أن أضمن حصتي في البيت لكي لا تبيعه في المستقبل.
- وهل هناك فرقٌ بيننا لكي نتقاسم ثمن البيت؟
- لا ليس هناك فرقٌ، لكني أريد أن يكون بيتاً مناسبا.
- لا يا كريستين لن تدفعي شيئا من ثمن البيت حتى لو كان ينقصني بعض المال من ثمنه، وسأسجل البيت كله باســمك، كل الذي أطلبه منك أن تعودي كما عرفتك من قبل.
- وما الذي تغير فيّ عن قبل حتى تريد مني أن أعود كما كنتُ ؟ سألتني وكأنها لاتعرف ما الذي تغير.

- لا شيء، انسي أمر العمل الآن واستريحي في بيتك وكل شيء سيكون كما ترغبين، بعد يومين تنتهي إجازتي وسأعود إلى العمل، دعينا نكمل هذين اليومين بخيرٍ وسلام.
- لا سأبدأ بالبحث عن عمل، ولن تمنعني من ذلك.
- حسنا، كما تريدين، لكن بشرط، حين تشعرين بالتعب أريدكِ أن تتوقفي، وأنا أعدك بأن أشتري لكِ البيت الذي يعجبك.
- لا، لن أتعب، بل سأتعب حين أجلس في البيت.

قالت هذا وصعدت إلى الغرفة في الطابق الأعلى..

- بعد دقيقتين صرخت من فوق وقالت سعيد اصعد لتبدل ملابسك.

صعدتُ إلى الغرفة كانت جالسةً تضعُ المكياج.

- كريستين أنتِ موظفة ريسبشن ناجحة، وأنا أعملُ في فندق، انتظري إلى أن أعود إلى العمل وسأتكلم مع صاحب الفندق وأطلب منه ذلك.
- لا، لا أريد أن أعمل في نفس المكان الذي تعمل فيه.
- لماذا؟
- سعيد أنا الآن أصبحتُ مسلمة على عقد الزواج الذي تمَ بيننا، ولكن أنا من الداخل لم أقبل بهذا، وفكرة أن أقول للناس هذا زوجي والصليب في عنقي وأنت ترفض أن تتكلم وكأنك مسيحي تزعجني، إذًا كيف سأعمل في نفس المكان الذي تعمل فيه؟
- أنا لا أنكر المسيح.

- وأصدقاؤك في الفندق يعرفون جيدا بأنك مسلم، هل تستطيع أن تشرح لي ما هي ردة فعل المسيحي حين يراني متزوجةً من مسلم؟
- حبيبتي كريستين، أنا لم أقل لكِ يوما أن تنكري المسيح، ولن أسمح لنفسي بذلك في يومٍ من الأيام، وأنا كما أنا لا أستطيع أن أبدّل وجهي لأصنع وجها آخرا أمام الناس لإرضائِكِ، أنا مسلم لكن لم أُصلِّ في يومٍ من الأيام، الإيمان في القلب بالنسبة لي، وأنا أؤمن بالإله الواحد، والأنبياء والكتب السماوية.
- لكن هذا لا يعني أن أقبلَ بالعمل معك في نفس المكان، لا أريد أن أكذب، لكن إن كنتَ مُصراً على ذلك فلا مانع لدي لكن بشرط.
- ما هو؟
- سنقول أننا أصدقاء ولسنا متزوجين.
- وهل يعقل هذا؟ ولماذا تنكرين زوجك؟ اذهبي وابحثي عن عمل بمفردك، أنا لن أخرج معك.

عدتُ إلى الصالون لأرى ماذا ستفعل، هي لا تعرف دمشق جيدا وربما تتوه في الطرقات، والبخل سيمنعها من أن تركب التاكسي، لذلك ستعود إليّ.

كلامها ليس بكلام شخصٍ عاقل، هل هناك من تُقاتل من أجل الزواج وحين تتزوج تنكر زوجها؟

نزلتْ من غرفة النوم، حدَّقت في عينيّ وقالت:

- هل تريدني أن أذهب لوحدي؟
- أنتِ من أجبرتني على قول ذلك، أنا لم أفهم كيف تستطيعين أن تنكريني ونحن في بداية الطريق.

- حسنا، سأذهب بمفردي.

أنا لم أفهم كيف استطاعت أن تقول لي هذا، هي الآن تعيش حياةً جديدةً وبيئةً جديدةً، غير ذلك أن والديها وأصدقاءَها وجميعَ أقاربها قطعوا علاقتهم بها والكل اتفق حين قالوا لها: "إن تزوجتِ من سعيد لا أحد سيتكلم معك"، لذلك يجب عليَّ مراعاة هذا الشيء، ويجب أن أحاول تعويضها عن هذا. سمعتُ صوتَ هاتفي يرن، ذهبتُ لأرى من الذي يتصل، ربما كانت كريستين تاهت في الطريق وتريد مني أن أذهب إليها، أخرجتُ الهاتف كانت أمي.

- مرحبا بُني، كيف حالك أنت وكريستين؟
- أهلا أمي، بخير نحن، أنتِ كيف حالك، وكيف هم إخوتي؟
- نحن بخير، لا ينقصني سوى رؤيتك أنت وعروسك بقربي من جديد، على كل حال اتصلت لأطمئن عليكما ولأخبرك أننا حددنا موعد حفلة الخطبة.
- في أي يوم الحفلة أمي؟
- في السادس عشر من الشهر الجاري.
- حسنا، أمي، تأكدي بأني سأكون هناك قبل يومين على الأقل.
- لم تخبرني كيف حال كريستين، وأين هي الآن؟ أعطني إياها أريد التحدث مع عروستنا الجميلة قليلًا.
- خرجت منذُ قليل لتحضر بعض الخضروات يا أمي.
- لماذا لم تخرج معها؟ ألا تعرف أنها حامل ولا يجب أن تتركها تخرج بمفردها؟
- هي طلبت مني أن أبقى في البيت، لا يبعد الدكان عن البيت كثيرا، وأنا احترمتُ طلبها بأنها تريد أن تتمشى لوحدها.

- وهل صحيح ما تقوله، أم أن هناك شيئا آخر؟ حدسي يقول أن شيئا قد حصل، قل لي فأنا أمك.
- لا يا أمي، لا تشغلي بالك، كل ما في الأمر أنها تريد أن تبقى لوحدها قليلًا، تعرفين كيف تتغير نفسية المرأة وقت الحمل، وعلى ما يبدو أن الحمل يتعبها.
- حسنا، حين تعود اتصل بي، أريد أن أتكلم معها.

اتصلتُ بكريستين لأرى أين هي، لم ترد على المكالمة، أعدتُ الاتصال أكثر من ثلاث مرات.

هل حصل لها مكروه؟ إن حصل معها شيء فلن أسامح نفسي، وبدأتُ أتمشى في الغرفة منتظرا اتصالها، أو وصولها. وبعد نصف ساعة اتصلت بي، ألو أين أنتِ؟ سألتها وقلبي يكاد أن يقف من خوفي عليها. بحدة قالت لي:

- حينما تتصل ولا أجيب على المكالمة افهم أنني مشغولة، ولا تعاود الاتصال إلى أن أتصل أنا، هذا التصرف يزعجني.
- وبماذا مشغولة حتى لا تجيبي؟
- كنتُ في مقابلة عمل.
- وبهذه السرعة؟
- نعم وسأبدأ العمل من الغد.
- ماذا، من الغد؟
- نعم، وهل لديكَ مانعٌ؟ على كل حال أنا في طريقي إلى البيت وسأشرح لك ما حصل معي.

دخلتْ إلى الغرفة وقالت:

- غدًا سأكون موظفة الريسبشن في الفندق الذي تعمل فيه.
- وهل جُننتِ؟، وماذا سنقول للناس؟
- لهذا السبب ذهبتُ من هنا إلى الفندق الذي تعمل فيه، دخلتُ إلى قسم الموارد البشرية واتفقنا أنا والمدير هناك على كل شي، قلتُ لهم أنني لستُ متزوجة.
- كريستين هل حصل شيء لكِ؟ هل هناك إنسانة طبيعية في الكون تفعل ما تفعلينه؟
- وماذا فعلت؟ سألتني مستغربة.
- قلتِ انك لستِ متزوجة، وهذا الذي في بطنك حين يكبر ماذا ستقولين لهم؟ لديكِ نفخة في المعدة، أم أنه مجرد كرش يكبر من كثرة الأكل؟
- سعيد اسمعني، قبل أن ألتقي بك كنتُ أقول في نفسي لن أنجب أي طفل وأنا لا أملك شقة لي، ولكن حصل ما حصل بيننا ونحن الآن متزوجان، لكن سأبحث عن طبيب إجهاض وسأجهض الطفل.
- كريستين، أنا لن أذهب معك إلى أي طبيب، وأنا لستُ مسؤولاً عن قراركِ هذا، وأنا لي رأي في الطفل، وبرأيي أن يبقى، واجلسي في البيت إلى أن يكبر الطفل قليلًا، حينها تستطيعين بدء العمل .

ضربت بيدها على الطاولة وقالت:

- القرار قراري في الطفل، وسأقوم بعملية الإجهاض، شئت أم أبيت، أنا لا أريد الطفل ليس لأني لا أحب الأطفال أو من أجل شراء البيت فقط، لكن قبل العرس بيومين شعرتُ بأنني ارتكبتُ جريمة بحقي وحقك وبحق عائلتي وكل الناس في بيروت، وأنا الآن أحاول بأن أقتنع بالذي حصل،

وهذا يتطلب وقتا، ولذلك إلى أن أتعود يجب ألّا يكون هناك بيننا أطفال كي لا أتنازل عن أفكاري.

- كريستين، أنا طلبتُ منكِ أن تأخذي وقتك، وفي الفندق أنتِ من طلبَ مني أن أنهي الجماع بيننا بإفراغ سائلي في رحمك، ظننتُ أنكِ انتهيتِ من فترة التلقيح، لكن كل هذا لا يهم، المهم نحن الآن متزوجان يا حبيبتي، ونعيشُ تحت سقفٍ واحد، لذلك يجب أن أحترم رأيك وتحترمي رأيي، أنا لا أريد أن أضعك في قفص الزوجية وأغلق الباب عليكِ لا، بالعكس تماما أريد أن تكون زوجتي سيدة مجتمع، لها أصدقاؤها، أعمالها، تذهب إلى المقاهي مع صديقاتها مثل أي سيدة، وتفعل أي شيء يريحها، وبالنسبة للبيت أنا مستعد من اليوم أن نبدأ البحث عن بيت يعجبك، وسأكتبه باسمك أنتِ.
- لا، وقفت وقالت: لا أسمح لأحد أن يشفق عليَّ أو يمنحني شيئا ليس لي.
- أنا لم أقل شفقة يا حبيبتي، اعتبري البيت هدية مني لك بمناسبة الحمل هذا، واتركي الطفل، انسي الإجهاض، الطفل أصبح عمره أكثر من شهرين، وعلى ما أظن لن يقبل الأطباء بالإجهاض لسببين، الأول يريدون موافقة الزوج، والثاني عمر الطفل أكثر من شهرين، وسيعتبرون العملية جريمة وليست إجهاضا.
- ومن قال لك بأني سأقول لهم إني متزوجة؟ سأقول للطبيب بأنني مارست الجنس مع أحد أصدقائي، ويجب أن أجهض الطفل قبل أن يفتضح أمري ويقومون بقتلي.

ما كان مني إلا أن ركلتُ الطاولة التي أمامي ، صرخت بأعلى صوتي وقلت:

- اصعدي إلى الأعلى ولا أريد أن أسمع المزيد من الخرافات.

نظرت إليّ نظرة حادة وكأنها تريد أن تتحداني وتبقى واقفة، لكن لم أفسح لها المجال، أمسكت بيدها وفتحتُ الباب وقلتُ لها اصعدي ولا أريد أن أسمع صوتك، وأغلقتُ الباب خلفها. جلستُ على الصوفا أفكر في الحل معها، الأمور لا يجب أن تستمر هكذا، من البداية وهي تخلق المشاكل، ماذا ستفعل في المستقبل إذًا؟

خرجتُ من البيت لأتمشى قليلًا، لربما أجد فكرة أستطيع أن أجعلها تغير من أفكارها، لا مشكلةَ لدي في بقائها على دينها، ولا مشكلة لدي في العمل، المشكلة في عِنادها والإجهاض، يجب أن يكون هناك حل.

جلستُ في مقهى صغير بعد أن شعرتُ بالتعب من المشي، الأفكار تحوم برأسي، يجب أن أجدَ الحل، اتصلتُ بأمي لأسألها ما هو الحل باعتبار أن أمي التي قالت أنها عنيدة بشكلٍ مخيف. أخبرتُ أمي بكل شيء، وطلبتُ منها المساعدة.قالت أمي:

- أستطيع مساعدتك، رغم أني حذرتك وقلتُ لك لا تطرق بابي إن حصل شيء بينكما، لم يمضِ على زواجكما فترة قصيرة وأنت تشتكي لي، كنتُ أتوقع هذا اليوم لكن ليس بالسرعة هذه، على كل حال سأساعدك وأخلف بوعدي لأنك في النهاية ابني ولا أستطيع أن أقف وأبقى صامتة، كل ما عليك فعله معها الكلام الجميل، والمعاملة الحسنة، حاول دائماً أن تكون معها لطيفاً، وتذكر دائماً إن رزقتم بفتاة في المستقبل سيأتي يوم وتتزوج ابنتك، كيفما تريد أن يعامل صهرك ابنتك عليك أن تعامل زوجتك على هذا الأساس، اذهب الآن واعتذر منها لأنك ركلت الطاولة تجاهها، وهذا لا يجوز، واطلب منها أن تجلسا وتتحدثا بهدوء، والأفضل أن تأخذ معك طعاما جاهزا، اجلسا

وتحدثا مثل عاشقيْن تعرفا على بعضهما منذ قليل، إلى أن تهدأ وحاول قدر الامكان أن تراعي شعورها بأنها أصبحت بلا أهل، وهي تظن نفسها الآن ضعيفة.

عدتُ إلى البيت، صعدتُ إلى غرفة النوم وجدتها نائمة، تمدَّدتُ بجانبها وبدأت أمسح شعرها بيدي، شعرتُ بأنها استيقظت لأنها ابتعدت عني ولم تلتفت إليّ، اقتربتُ منها من جديد وهمستُ في أذنها:

- أعتذر منكِ لأني ركلتُ الطاولة. التفتت إلي وقالت بصوتٍ عالٍ:
- أنت قليل الأدب لأنك قمت بهذا.

لأول مرة في حياتي شعرتُ بأنني أريد أن أضرب امرأة، رغم أني كنتُ أقول دائماً تافهٌ من يضرب امرأة، عشتُ حياتي كلها ولم يقل لي أحدٌ في يومٍ من الأيام أنني قليلُ أدبٍ، فكرتُ في ضربها، شتمها، أي شيء لكن لم أستطع، تذكرتُ كلام أمي بأن أحاول معها، حسنا:

- أنا قليل أدب سيدة كريستين، وهذا يعني أنكِ أقل أدبا مني لأنكِ تزوجتِ من رجلٍ قليل أدب، كريستين أنا لا مشكلة لدي بأي شيء في الحياة، أنا مرن لأبعد الحدود، ولن أسمح لنفسي بإهانتكِ لي مرةً أخرى، وأتمنى ألا تكرري هذا الأمر مرة ثانية، لأنه إن تكرر لا أستطيع أن أخمن ما الذي سيحصل، أنهيتُ كلامي وخرجت من المنزل.

توجهتُ إلى بارٍ صغير، وطلبتُ زجاجة ويسكي، وبدأتُ أفرغ الويسكي في قاع معدتي وكأني كنتُ جائعاً وأريد أن أتناول الويسكي كوجبة سريعة، مرَّت ساعتان حتى أنهيتُ الزجاجة كلها، شعرتُ بأني لا أستطيع السير، رغبة في البكاء تجتاحني حزينا، أرقص

على خيبتي، على عمري الذي يمضي بخطواتٍ ثقيلة، وكلماتٍ غير مفهومة، مشيتُ باتجاه البيت، صعدتُ إلى غرفة النوم، كانت نائمة، تمددتُ على السرير بلباسي. الخمرُ أثقلَ حركتي، لم أستطع أن أفكَّ أزرار القميص، وبصوتٍ كئيب بدأتُ أغني، لم أكن أشعر بأن صوتي عال لدرجة أنني أيقظتُ كريستين من النوم، حدَّقت فيّ وقالت:

- هذا الذي ينقصنا، أن تبدأ بالسُكر وتعود مخموراً إلى البيت.
- أنا لا أحبذ السهر خارج بيتي لوحدي، ولكن باعتبار أني قليل أدب قلتُ في نفسي يجب أن أمارس قلة الأدب مع الخمر قليلًا، في كل الأحوال أنا أريد النوم، وأعتذر إن كان صوتي عالياً. قلتُ هذا ولم أشعر بشيء بعدها.

استيقظتُ من النوم ظهرا، لم أجدْ كريستين في البيت، اتصلتُ بها لم تجبني، ولكي أتجنب المشاكل لم أعاود الاتصال بها، على ما يبدو أنها بدأت العمل.

جاءت بعد الظهر وقد بدا عليها الإرهاق:

- أهلا حبيبتي، لمَ لم تتصلي بي؟
- كنتُ مشغولة في العمل وتعبتُ جدا، النظام في الفندق غير النظام الذي أعرفه، أخذ مني وقتاً إلى أن استطعتُ فهم الأمور الأساسية، متى استيقظت؟
- قبل قليل، ومن قابلتِ من الموظفين؟
- لا أذكرهم كلهم، لكن قابلت جورج شيف المطبخ في كافتريا الموظفين وقت الغداء، جلسنا على نفس الطاولة، وكان السيد إلياس موجودا معنا على نفس الطاولة.
- وهل أعجبك العمل؟

- لا بأس، إنه اليوم الأول، دائماً الأمور في البداية تكون صعبة، وخاصةً أني لم أعمل في دمشق من قبل، الأمر يحتاج بعض الوقت لا أكثر.
- أريد أن أسألك سؤالًا، هل تسمحين؟
- تفضل.
- نحن الآن متزوجان، ومن الطبيعي أن نخرج سويا، ماذا سيحصل حين نصادف أحدا من موظفي الفندق ونحن في الخارج؟
- سنقول أننا أصدقاء وفي نفس الوقت بأننا نسكن في نفس الحي، وهذا سيبعد الشبهات من حولنا إن ذهبنا مع بعض إلى العمل، أرجوك أن تفهمني يا سعيد، أنا أشعر بالخجل إن حصل يوم وقلتُ لأحد بأنني مسيحية ومتزوجة من مسلم، أعطني بعض الوقت فقط لكي ترتاح نفسيتي، ولكن أريد منك شيئا واحدًا فقط.
- ما هو؟
- أن تذهب معي إلى الطبيب لنقوم بعملية الإجهاض في أقرب وقت.
- اسمعيني يا كريستين، لحظة زواجنا قلتُ في نفسي لن أرفض لكِ طلبا، وسأكون زوجك وصديقك وحبيبك ووالدك وابنك وكل شيء لأجعلكِ سعيدة بالحياة معي، لكن هذا الطلب الوحيد الذي لا أستطيع أن أنفذه لك، أنا لا أريد منكِ أن تجهضي الحمل أرجوكِ اسمعيني، ستندمين في المستقبل.
- لا يا سعيد، أريدُ أن أُجهض الحمل وأنا أطلبُ منك أن تساعدني لأختصر الوقت والعذاب.

- أنا آسف لن أساعدك حتى في المال، لأنني أعتبر هذه الخطوة جريمة الآن. ما رأيك أن نتناول العشاء في الخارج؟
- لا أنا متعبة وأريد أن أرتاح.
- لم أقل الآن، قلتُ في العشاء.
- حسنا، سنتكلم حين أستيقظ، الآن أريد أن آخذ قيلولة.

نامتْ هي وبدأتُ أنا بأعمال التنظيف وغسل الأطباق والفناجين، لم تشعرني يوما من الأيام منذ زواجنا أنها صاحبة هذا البيت، مع الوقت سأعلمها كل شيء، قلتُ في نفسي. حين استيقظتْ قالت أشعر بالتعب، لذلك لا أستطيع الخروج، اخرج أنت لوحدك إن أردت، لكن تناول الطعام في البيت، لا داعي لهدر المال في المطاعم.

عدتُ إلى العمل بعد أن انتهت أجازتي، كريستين في الريسبشن، وأنا في المستودع لاستلام المواد صباحا، وفي المساء أجمعُ النقودَ من الأقسام. كنتُ أحاول ألا أصادفها في الفندق، لأني لا أستوعب فكرة أن تعاملني كصديق.

في احدى الأيام وأنا في المنزل ظهرا اتصلت بي وقالت لي:

- سعيد تعال إلى العنوان الذي سأرسله لك في رسالة بعد ساعتين.
- أين أنتِ؟ سألتها؟ قالت:
- في زيارة عند صديقة جديدة لي، تسّوقنا أنا وهي وأريدك أن تساعدني، معي أغراض كثيرة والأمر يحتاج إلى سيارة، سأجلس عندها إلى الساعة السابعة.
- حسنا، في السابعة سآتي لأخذك.

استغربتُ منها حين قالت لي تسوقنا وأريدك أن تساعدني في حمل الأغراض، لم يكن من عادتها ذلك، لكن لا بأس لربما صديقتها أثرت عليها وأرادت أن تشتري شيئا لها وللمنزل، هذا ما قلته في نفسي، وفي السابعة وصلتُ إلى العنوان واتصلت بها:

- أين أنتِ كريستين؟ أنا الآن أمام صيدلية بجانب محطة الباص.

بصوتٍ مختنق وكأنها مريضة قالت:

- ادخل المدخل المواجه للصيدلية، في الطابق الأول يوجد عيادة نسائية، أنا هناك، قل للمرضة أنك جئت لترافقني وهي سوف تحضرك إلي.
- ما الذي حصل معك حتى ذهبتِ إلى عيادة نسائية؟ سألتها ولم أستوعب فكرة الإجهاض حتى أقول أنها أجهضت الحمل. قالت:
- حين تأتي ستعرف.

ركضتُ بسرعة إلى العيادة، أدخلتني الممرضة إلى غرفة، كانت كريستين مستلقية على السرير وهي لا تستطيع الحِراك.

- ماذا حصل؟ سألتها بخوف. قالت:
- أجهضت الحمل.

شعرتُ بأن قلبي تحرك من مكانه بطريقة مؤلمة.

- هل قتلتيه؟ قلتُ لكِ سأشتري بيتًا لكِ وستكونين صاحبة البيت، وتوسلت إليك، لماذا يا كريستين لماذا؟

انفجرت دمعتي وخرج أنينٌ مني، شعرتُ بأنها مجرمة، وتستحق الموت كما قتلت الطفل

ساعدني لنذهب إلى البيت، الطبيب قال إن صحتي جيدة وأستطيع الخروج.

- وما همني إن كانت صحتك جيدة وقد ارتكبتِ جريمة قتل؟ افعلي ما شئتِ فأنتِ لستِ كما كنتِ في نظري، وسأساعدك الآن ليس لأني أريد مساعدتك، لكن سأبقى أعاملك كما أنا، رغم تصرفك الشنيع هذا.

عدنا إلى البيت وشعور المذنب امتلكني، كان يجب أن أترك المال معي كي لا تستطيع أن تفكر في هذه العملية، لم أذهب إلى العمل في ذاك اليوم، ولا طيلة الأسبوع، بقيتُ في المنزل أجلس منزوياً وأمجُ من سجائري. بقيت تحاول لتقنعني بأن ما فعلته كان الصواب في الوقت الحالي، ووعدتني أن أول شيء ستقوم به بعد شراء البيت أنها ستنجب لي أطفالاً حتى أقول لها يكفي. لكن ما الفائدة الآن؟

- قتلتِ طفلا بدأت ملامحه تتكون، لو لم تكوني زوجتي لأبلغتُ الشرطة عنكِ وعن الطبيب الذي قام بالعملية.على كل حال لا ينفع اللوم والكلام، حصل ما حصل..

- غدا مساءً سنذهب إلى حلب، وعدتُ أمي أن أكون هناك قبل يومين من حفلة خطوبة جيهان.

- حسنا، لكن سنذهب بالباص، قالت لي.

- لمَ بالباص وسيارتنا موجودة؟ سألتها مستغرباً. قالت:

- الباص أوفر بكثير، غير هذا ستشتري لأختك هدية، هذا يعني يجب علينا أن نستغل الأماكن التي نستطيع أن نوفر المال فيها.

- لا، لن أذهب بالباص، قلتها بشكلٍ قطعي لا مجال للنقاش فيه.قالت:

- هل تعلم كم سنوفر بين الباص والسيارة؟

- لا أريد أن أعرف، لكن إن أردتِ الذهاب بالباص هذا شأنك، أما أنا سأذهب بالسيارة إلى حلب. قالت:
- إذًا لن أذهب.
- أنتِ تحومين حول هذا، لا تريدين الذهاب لا بالباص ولا بالسيارة، ابقي في البيت، وسأخبرهم أنكِ مريضة لأعود على عجل، رغم أنني بعد قتلكِ للطفل أشعر أن الكآبة سترافقني كل العمر، ولن تروق لي الأماكن التي فيها فرح، لكنني مجبر لأنها أختي.

في اليوم التالي توجهتُ إلى حلب لوحدي، وصلتُ إلى البيت، توقعتْ أمي أن أكون لوحدي، حين سألني إخوتي عن كريستين أجابت أمي على الفور أنها مريضة ولم تستطع القدوم. يوم الحفلة كان وجهي أقرب إلى وجه شخصٍ يحضر ميتما، رسمتُ ابتسامةً مزيفةً على وجهي لتسعدَ أختي في النهاية، لكن قلبي لم يكن قلبي.

انتهت الحفلة، قبّلتُ إخوتي وأمي وعدتُ إلى دمشق مكسوراً، لم أفرح كما يجب في يوم فرح أختي الوحيدة.

وصلتُ منتصف الليل إلى البيت، كانت كريستين نائمة، جلستُ في سري أتكلم مع الله، وأسأله لماذا يحصل معي هذا؟ ما هي الجريمة التي ارتكبتها في حياتي.

أشعلت التلفاز لأسمع بعضا من الآيات القرآنية، كلمة الله أين سمعتها تريح نفسي مهما كانت مرهقة، هذه كانت إحدى عاداتي حين تضيق بي الدنيا، بقيتُ أستمع إلى القرآن حتى الصباح، استيقظتْ كريستين وهي مصدومة من صوت القرآن، لكن حين نظرت إلى شكلي البائس لم تتجرأ على سؤالي أي شيء، "حمدلله على السلامة" هي الجملة الوحيدة التي لفظتها. ذهبتُ للنوم لأستريح من الطريق والأفكار التي تزدحم

في مخيلتي، غير هذا يجب أن أعودَ إلى العمل غدا. نمتُ قرابة العشرين ساعة، لم أشعرَ بشيءٍ غير مرتين، تبّولت فيهما وعدتُ إلى سريري، شعرتُ بأن جسدي قارب على الانتهاء من الحزن.

ذهبتُ إلى عملي محاولاً الابتسامة في وجه زملائي، لكن الكل التمس الحزن في عيوني، أحدهم قال ماجناً:

- اذهب إلى الريسبشن هناك فتاةٌ جميلة، النظر إليها يريح الفؤاد.
- ومن هي؟ سألتُه لأتأكد مِن قَصْدِه، كثر هم فتيات الريسبشن، قال لي:
- اسمها كريستين، لا أدري لماذا لم أحتمل كلامه، حينها وجهتُ لكمةً إلى فمه جعلتُ الدم ينفر منه، وهبَّ عليَّ يحاول أن يضربني، منعته من ذلك وقلتُ له ماذا تظنني حتى أذهب لأراقب زميلاتي؟
- اذهب من هنا قبل أن أقضي عليك.

أرسل في طلبي السيد عبد الرحمن ليستفسر عن تصرفي مع الموظف ولماذا ضربته، قلت له أنا لستُ بقليل أدب حتى يأتي موظف ويقول لي اذهب إلى الريسبشن لتنظر إلى موظفة جميلة هناك تريح النفس.

التمس الحزن في عينيّ السيد عبد الرحمن، أنهى الحديث بالاطمئنان عن العمل، وأخبرني أن رئيس قسم المحاسبة يمدُح عملي.

وأنا في طريقي إلى المنزل اتصلتْ بي أمي وقالت:

- اتصلتُ بكريستين أكثر من مرة ولم تجبني، كيف تمضي الأمور بينك وبينها؟
- بخير يا أمي، هي الآن في العمل ، ستتصل بك حين تنتهي .

أتت كريستين من العمل حين كنتُ أحضّر الغداء لي ولها، سلطة وبيض مقلي.

- كيف كان العمل معك اليوم؟

سألتها بنبرة متهدجة، الرعشة بدأت تتسلل إلى حبالي الصوتي. قالت:

- كان ممتعاً جدا، بدأتُ أقوم بكل الواجبات، وصول، مغادرة، حجز تذاكر طيران. أنت كيف كان العمل معك؟ سألتني وهي تقف ورائي بلباس العمل.
- لم يكن بخير.
- لماذا؟
- ضربت أحد الموظفين، وأرسل في طلبي السيد عبد الرحمن.
- لماذا ضربته؟ سألتني بخوف.
- لأنه قال لي اذهب إلى الريسبشن هناك فتاة تريح القلب حين تنظر إليها، وحين سألته من تكون قال لي اسمها حضرتك، هل أنتِ سعيدة الآن؟ لو كان الموظفون يدركون أنك زوجتي لما قال هذا ذلك الموظف.
- لا تدقق في أمورٍ تافهة، قالت والتفتت لتخرج من المطبخ.
- أمور تافهة؟ شكرا للاستنتاج، شكرا سيدة كريستين، إذًا ربما يأتي موظف آخر يكون قليل أدب أكثر من ذاك الذي ضربته ويقول لي ستصبح هذه أجمل لو اصطحبتها معي إلى البيت، حينها أيضا يجب ألَّا أدقق؟
- سعيد أنا أنثى ونحن في مجتمع شرقي، ومن الطبيعي أن تسمعَ كلاما عن أي أنثى، لذلك يجب عليك ألَّا تقف عند ما يقولونه عن أي أنثى.

بصوتٍ عالٍ قلتُ لها:

- أنتِ زوجتي، ولستِ أنثى لا يهمني أمرها، هذا يعني ألّا أقبل بالوضع هذا، إما أن تذهبي وتعملي في مكان آخر أو أنا سأذهب، رغم أنني متأكد أن احتمالية حصولك على العمل أسرع مني، الأنثى تجد العمل بسهولة وخاصةً من أصحاب الخبرات مثلك، أما أنا تكفيني رعشة في يدي ليرفضني الناس.
- لا لن أذهب إلى مكان آخر، أنا سعيدة في العمل هناك، وأنتَ ابق إلى أن نجد حلاً بخصوص علاقتنا.
- لا ليس هناك حلولٌ كثيرةٌ، اختاري واحدا من ثلاثة، إما ترحلي وأبقى أنا هناك، أو أرحل أنا وتبقين أنتِ هناك، أو نعلن زواجنا بشكلٍ رسمي وهذا الذي يناسبني والمنطقي.
- لا لن أختار، لا تبالي بما يقولون عني، التفتتْ لتخرج من المطبخ، أمسكتُ يدها ونظرتُ إلى عينيها وقلت:
- اليوم وليس غدا، سأسمع قرارك قبل النوم.

في المساء بينما كنتُ جالسا أقرأ كتابا، قالت لي:

- تصبح على خير، سأذهب للنوم.
- لم أسمع قرارك بخصوص العمل؟ قالت:
- حين تعود ليلا أيقظني وسأقول لك قراري.
- ولِمَ لا تتكلمي الآن؟
- لأنني مرهقة، سأختار إحدى طلباتك وأنا نائمة، وأخبرك بها حين تعود منتصف الليل.

حين عدتُ منتصف الليل، صعدتُ إلى غرفة النوم وأيقظتها:

- كريستين، كريستين، استيقظي لقد عدت.
- وماذا تريد مني؟ سألتني وهي مغمضة عينيها.
- أنتِ قلتِ لي حين تعود من العمل سأخبرك عن قراري، وأنا الآن أنتظر.

بنبرةٍ ساخرةٍ قالت:

- وهل صدقت ذلك؟
- ماذا تقصدين؟ هل كنتِ تسخرين مني؟
- لا قلتُ هذا فقط محاولة استغلال الوقت لتنسى الموضوع.
- أنا لستُ طفلا تضحكين عليه، الآن وليس غدا أريدُ أن أسمعَ قرارك، هيا استيقظي، وأمسكت بكتفها أهزها لتستيقظ.

وحين استيقظت انفجرت كالبركان علي، وبأعلى صوتها قالت:

- يجب أن أنام لكي أستيقظ نشيطة في الصباح لأذهب إلى عملي بشكلٍ مريح، وليس لدي وقت للتفاهات، انس الموضوع واذهب للنوم.
- لا لن أنام إن لم تقرري الآن، ولن أدعكِ تنامين.
- أنت قلتها، لن تدعني أنام، إذًا سأبحثُ عن مكانٍ آخر أنامُ فيه.

نهضتْ من السرير غاضبة، وفتحتْ خزانة ألبستها، أخرجتْ حقيبةً وبدأتْ تضع فيها ألبستها، "ماذا تفعلين؟" سألتها.

- لا شيء سأذهب إلى مكان أستطيع النوم فيه، ولا تفاهات فيه.
- كريستين انتظري، أنتِ تقولين تفاهات، والتفاهات هذه تغيظني، لماذا لا تريحيني ونعلن بأننا متزوجين؟
- كما قلت لك ولن أعيد، هل فهمت؟

- حسنا، إذًا أنا سأترك العمل، عودي للنوم ومن الغد سأبحث عن مكان آخر.
- لا لن تبحث عن شيء، سأذهب الآن لأنام في مكانٍ آخر، وابقَ أنت في منزلك ونم كما تشاء.
- كريستين اسمعيني، الساعة الآن الثالثة منتصف الليل، المطر في الخارج يهطل بغزارة، وخروجك في هذا الوقت إهانة بالنسبة لي، نامي الآن وسنتكلم فيما بعد.
- لا لن نتكلم فيما بعد، أُخرج أنت إن كنت خائفاً عليَّ.
- وأين سأذهب؟ ولماذا أخرج أنا أو أنتِ؟
- لأنني لا أريد أن أسمع تفاهات كل يوم، ولذلك اذهب أنت الآن أو سأذهب أنا.
- كريستين تعرفين أننا وحيدين هنا، لا أقارب ولا أهل لنا في دمشق، إلى أين تريدين أن تذهبي أو أذهب انا؟
- إذا أردت أنت الذهاب لا يهمني، وإن قلت لي اذهبي فهذا ليس من شأنك أين سأذهب.
- وكيف ليس من شأني، وأنتِ زوجتي؟
- اخرج من البيت الآن أو أخرج أنا، قالتها بصوتٍ عال وتوسعت حدقة عينيها، لدرجةٍ شعرتُ أنها ليست كريستين التي أعرفها، ولكي أرى ماذا ستفعل قلتُ لها، لن أخرج.
- قالت إذًا أنا سأخرج، وأكملت وضع ملابسها في الحقيبة، لم أكن أصدق أنها ستخرج إلا حين رأيتها انتهتْ من ترتيب ملابسها وفتحتْ الباب لتخرج،

حينها أمسكتُ بيدها وقلتُ لها بما أنني ابن أصل لن أسمح لزوجتي بالخروج في هذا الوقت وهذا الطقس من البيت، لذلك أنا الذي سأخرج، وأبعدتها عن طريقي لكي أذهب.

- إلى أين أنت ذاهب؟ سألتني.
- سأنام في السيارة إلى أن تنخفض حرارتك أو أذهب إلى الفندق.
- لا أسألك عن المكان، بل أسألك لكي تأخذ أغراضك معك.
- لا أريد شيئا معي، سأتدبر أمري.
- لا لا، لا أقصد الخروج الآن والعودة غدا أو بعد غد، الخروج الآن أنا أو أنت مع كل أشيائنا الشخصية.
- هل تمزحين؟ سألتها والغرابة قد ارتسمت على وجهي.
- قالت لا، أغراضي الآن في الحقيبة ولن أعود إلى أجلٍ غير مسمى، أو تأخذ أغراضك وتذهب.

ولكي أتأكد من الذي أسمعه قلتُ لها، سأجلس في الصالون إلى أن ترتبي لي كل أغراضي.قالت حسنا، انتظر.

جلستُ في الصالون مثل الذي لا يفهم شيئا، هل أنا في حلم أم ماذا؟ هل من المعقول أن يكون هناك امرأة بهذا الشكل؟ إنها مريضة، لا شيء غير المرض النفسي، ابتعدتْ عن حياتها وأهلها وهي الآن نادمة، والندم ينعكس علينا بتصرفاتٍ جنونية، بعد نصف ساعة نادت عليَّ من غرفة النوم، صعدتُ، كانت تقف أمام أربعة حقائب كبيرة، قالت لي هذه هي كل أشيائك ماعدا الموجودة في الحمّام والأحذية، لم أصدق أنها فعلتها، أمسكتُ بشعرها وحدّقتُ في عينها وقلت:

- كريستين أنا سعيد الذي تحبينه ويحبك، هل هذه هي مكافأة حبي لكِ؟ تريدين مني الخروج في هذا الوقت وأنتِ تعرفين جيدا أنه لا أهل لي هنا ولا أحد، يعني سأذهب إلى فندق.
- لا يهمني أين ستذهب، وكما قلت لك إن كنت لا تريد الخروج فأنا لا مانع لديَّ سأخرج لكن لن أعود إن خرجت، أما إذا خرجت أنت فيمكنك أن تعود بعد أسبوع، حتى أرتاح قليلًا.

كانت غير طبيعية في تلك الليلة، شيءٌ لا يصدق، بعد علاقة حب تزوجنا وأصبح نصف البشر أعداؤنا، وهي الآن بعد وقتٍ قصير تريد الانفصال، حملتُ حقائبي ومضيتُ، ركبتُ سيارتي والحقائب قد ملأت الصندوق الخلفي والمقاعد حتى أخفت عني الرؤية من المرآة، بدأتُ امتصُ سيجارتي وأنا في حالةٍ لا يرثى لها.

إلى أين سأذهب؟ أدرتُ محرك السيارة، ومضيتُ إلى حلب، وصلتُ قبل الظهر إلى البيتِ، حين رأتني والحقائب في يدي جلست على الكرسي في أرض الحوش ووضعت كفيها على ركبتيها وبصوتٍ مكسور قالت:

- ماذا حصل بينك وبين كريستين؟
- لا شيء يا أمي، هي متعبة وخرجت من البيت لترتاح هي قليلًا وأرتاح أنا عندك قليلًا.

بدأت تبكي وقالت ليتني لم أُسمّك سعيدا، لو أسميتُك غير هذا الاسم كان من الممكن أن تكون سعيداً، بدأتْ تبكي وتقول:

- يا قرة عيني في زواجك أيضا لم تسعد، لماذا تفعل بك هذا وسمحت لك بالخروج من البيت؟

- أمي كما قلت لكِ هي مرهقة قليلًا وأنا كذلك، أرجوكِ يكفي بكاءً، أريد أن أنام، أنا متعب. قالت:
- ولن تعود إلى دمشق مرة أخرى؟ أرى حقائب كثيرة معك، يبدو أنها كل أغراضك.
- لا يا أمي سأعود قريباً، غير ذلك اتصلت بالعمل في الطريق لطلب أجازة، قالوا لي لا أستطيع الغياب أكثر من أسبوعٍ واحد، دعيني أنام الآن وسنتكلم فيما بعد.

كان الوقتُ متأخرا حين سمعتُ صوت بكاء أمي، نهضتُ من السرير لأرى أين هي، وقفتُ أمام باب غرفتها لأسمع ماذا تقول، كانت تتكلم مع أختي جيهان وهي تقول لها كم أشعرُ بالذنب تجاه سعيد، ليتني قلتُ له أن كريستين لا تناسبك، عرفتُ أنه لن يكون سعيداً معها، عِنادُها كان واضحا حين زارتنا قبل العرس، من وقتها أدركتُ أنها لن تُسعدَ سعيد، وأثبت لي ذلك قبل العرس بيومين حين كنا في السوق وأردنا أن نشتري لها تأجا تضعه على رأسها كهدية مني ومنك، حينها صرخت في منتصف السوق وقالت لنا أنتم تبذرون المال كثيرا ويجب على سعيد أن يتعلم غير عاداتكم هذه، وأنا لا أريد أن أضع تأجا على رأسي يوم العرس.

حين سمعتُ ذلك طرقتُ الباب ودخلت، كانت دموع أمي تنهمر، صمتت حين دخلت، قلتُ لها:

- لهذا تغير وجهك أنتِ وجيهان قبل العرس.
- انس يا سعيد، أنا فقط أبكي على حظك، ماذا فعلت حتى يكون نصيبك امرأة عنيدة وبخيلة!

احتضنتُ أمي ونظرتُ إلى أختي جيهان التي كانت تبكي أيضا، مسحت دموعها بيدي وقلتُ لها دعينا نشرب قهوة ونتكلم بهدوء، قالت أمي:

- هي على خلافٍ معك، لماذا لا تجيب على هاتفها؟ اتصلتُ بها كثيرا اليوم.
- ولماذا اتصلتِ يا أمي؟
- أريد أن أتكلم معها وأرى ماذا تريد لتتركك تأتي إلي حاملاً أغراضك معك.
- أمي انسي الأمر، أنا سأحل مشاكلي، لم آتِ لأخبرك ما الذي حصل، أنا هنا لأريح نفسي قليلًا.

لم تتوقف عن البكاء، في كل دمعة منها كان يزداد غضبي على كريستين، أنا الذي سهرتُ الليالي أمسحُ زجاج السيارات لأسعد أمي وأريحها، تأتي امرأة مثل كريستين لتبكيها، ضربتُ بيدي على الطاولة غاضباً وقلتُ لأمي:

- سأذهب الآن.
- إلى أين؟ سألتني.
- إلى دمشق.
- لا استرح يومين ثم اذهب بعدها.

لا يا أمي سأذهبُ الآن، وكان يجب ألَّا أخرج من المنزل حين طلبت مني ذلك.

حملتُ حقائبي ومضيتُ إلى دمشق في نفسِ اليوم الذي وصلتُ فيه، دخلتُ إلى البيت في الصباح، كانت نائمة على الصوفا في الصالون، أمسكتها من شعرها وأيقظتها، قلتُ لها اصعدي ونامي فوق في غرفة النوم، لأنني سأحتلُ أنا الصالون لي وغرفة النوم لكِ، إن لم يعجبك الأمر افعلي ما شئتِ، شعرتُ بنارٍ في عيوني وأنا أكلمها، لا أستطيع ضربها، ولا أعرف ماذا يجب أن أفعل معها.

بقينا على هذه الحالة أكثرَ من شهرين، تنامُ هي في غرفة النوم وأنا في الصالون، كل واحدٍ منا لا علاقةَ له بالآخر، أذهبُ بمفردي إلى العمل، وتذهب بمفردها، أتناول طعامي في الخارج، وهي تكتفي بالمعلبات، بعدَ مرورِ أكثر من شهرين، في يوم عطلتي من العمل بالتحديد، خرجتُ لألتقي بأصدقائي في المركز الثقافي الروسي، على الباب سألتني:

- متى ستعود؟
- هذا ليس من شأنك، خرجتُ من البيت وأغلقت البابَ بقوةٍ خلفي.

أنا لا أريدُ الاستمرار هكذا، ولا أريدُ الطلاق، المشاكل في الحياة الزوجية واردة، ولا يجب على الإنسان التفكير في الطلاق في كلِّ مشكلةٍ تواجهه، كل ما في الأمر أنها تشعر بالحرج من زواجها بمسلم، والإحراج هذا ولَّد مشكلةً نفسية، ويجب عليَّ معالجتها، إنها زوجتي في النهاية. في العاشرة مساءً عدتُ إلى البيت مُترنحاً، الخمر أثقلَ سيري، فتحتُ الباب كانت الأضواء مطفأة، صعدتُ إلى الصالون، فتحتُ باب الصالون وجدتُ قالب كاتو مع شمعة وزجاجة شامبانيا وهدية ملفوفة بشريط أحمر، وكريستين تجلس على الصوفا، حين دخلت توقفت وقالت لي:

- كل سنة وأنت سالم.

لا أستطيع أن أتذكر الشعور الذي امتلكني بالتحديد، لكن كانت هناك صبغةُ حزن بلونٍ كئيب، قبّلتني وأعطتني السكين لأقطّع القالب، قطعتُ قطعتين لي ولها، فتحت زجاجة الشامبانيا وبدأنا بالرقص، قالت:

- لا داعي أن نتذكر ما مضى، لكن أستطيع أن أقول لك فقط أعطني الوقت لكي أقول أنك زوجي وحبيبي أمام الجميع، مازال في داخلي الخوف والخجل، أتمنى لو تستطيع أن تتفهم هذا يا سعيد.
- اسمعيني يا كريستين، في البداية أريد أن أشكرك بأنكِ لم تنسَي أن اليوم عيد ميلادي رغم أني كنتُ قد نسيت، ثانياً أنا تزوجتك لأني أحبك، ولأني أحبك سأنتظر لكن ليس كثيرا، يجب علينا في البداية أن نرتب زيارة إلى حلب، منذ زواجنا وأنتِ لم تتكلمي مع إخوتي وأمي، وكأنهم ليسوا أهلي، لذلك سنذهب لزيارتهم في القريب العاجل.
- حسنا.

هزت رأسها وأكملنا ليلتنا مثل اليوم الأول حين التقينا، حرارة الحب، والشوق، أطفأنا نار الشموع، وأطفأتُ لهيب جسدها وجسدي وخلدنا للنوم بابتسامة.

بعد شهر من علاقة يسيطر عليها الهدوءُ بيني وبينها، استيقظتُ صباحا لأذهب إلى العمل، فتحتُ خزانتي لم أجدَ شيئا ألبسه، كانت فارغة، سألتُ كريستين أين لباسي، قالت:

- لم أغسل بعد، البس القميص الذي كنت تلبسه الأمس، واليوم سأقوم بغسل كل شيء.
- كريستين أكثر من أسبوعين وأنتِ تقولين اليوم سأغسل كل شيء.
- حسنا، اليوم اليوم سأنهي كل شيء حين أعود.

كنتُ أساعدها في كل شيء، إلا الطبخ والغسيل، لا خبرةَ لي فيهما. لبستُ قميصي الذي كنتُ ألبسه بالأمس ومضيت إلى عملي.

في اليوم التالي رأيت الخزانة فارغة أيضا:

- كريستين أين قمصاني؟
- لم أغسل البارحة يا سعيد، اليوم سأغسل كل شيء صدقني.
- ولماذا لم تغسلي؟
- لأن اليوم سأستحم، ولا داعي أن نقوم بتسخين الماء في يومين متتالين، أنا آخذُ وقتا طويلًا في الحمام، عكسك، أنت تكتفي بالقليل من الماء الحار وتستحم كل يوم على عجل، أما أنا فأستحم في الأسبوع مرتين كما تعرف، واليوم هو موعد استحمامي.
- كريستين! لكي لا تقومي بتسخين الماء مرتين في يومين تتركيني أذهب إلى عملي بقميصٍ متسخ؟
- كما تعرف آخر فاتورة كهرباء كانت باهظة، وقلت لك يجب أن ندّخر قليلًا.
- كريستين هذا لا يسمى ادخار، هذا يسمى بخل، الإنسان يعمل لكي يعيشَ ويتمتعَ بملذات الحياة، الأمس لم تغسلي لأنكِ تفكرين بفواتير الكهرباء، وفي الفترة الأخيرة توقفتُ عن مساعدتك في الجلي لأن الرعشة في يدي تزداد، أصبحتِ تجلين كل يومين مرة لكي توفري في فواتير المياه، على هذه الحال في المستقبل القريب ربما سنشعل الشموع ونأكل في أطباق ورقية لكي لا نقوم بصرف المياه، اسمعيني كريستين هذا لا يُحتمل، الآن سأذهب للسوق قبل العمل لأشتري قميصا جديدا لأذهب به، أما غدا فأتمنى أن تكوني قد انتهيت من كل شيء، وأريد أن أسألك، متى سنذهب إلى زيارة امي؟ دائماً تقولين في الأسبوع القادم.

- سنبحث الموضوع خلال الأيام القادمة.

كانت دائماً تتهرب من موضوع الذهاب إلى حلب، ولم أرغب في الضغط عليها كي لا تعود المشاكل، كنتُ على أملٍ أن يأتي يومٌ وترى تصرفاتي معها لتشعر بالذنب وتبادرني بالمثل، رغم أننا كنا متزوجين لكن لم أحاسبها في يومٍ من الأيام إن كان البيت يحتاج لتنظيف أو ترتيب، كنتُ أنا من يقوم بأغلب الأعمال، حين تبقى في البيت لوحدها تمضي أغلب الوقت في السرير نائمة، حتى في واجباتها تجاهي مقصرة، كانت تتهرب حين أقترب منها، تنام في العاشرة مساءً، وحينها أكون في العمل، وحين أطلب منها شيئا قبل العمل، تتهرب.

في يومٍ من الأيام اتصلت أمي بي وقالت سآتي إلى زيارتك غدا، على ما يبدو أنت، وكريستين لن تأتوا.

جاءت أمي في اليوم التالي، كانت عطلتنا من العمل أنا وكريستين، وصلتْ صباحا إلى البيت، أعددنا الفطور وجلسنا نتناول الفطور سوياً، قالت أمي لكريستين:

- لماذا لم تأتوا إلى زيارتنا حتى الآن؟
- ليس لدينا مالٌ يكفي يا خالتي، ردت كريستين.

ارتسمت ملامح الدهشة على وجهي ووجه أمي، وكيف ؟ سألتها أمي. قالت:

- نحن نفكر بشراء بيتٍ لنا، وعلينا بتوفير مبلغٍ محدد كل شهر، ولكن في القريب سنأتي لزيارتكم.

بان عليَّ الغضب.

- سعيد أنا وأنت نعمل لكي نشتري بيتا، ولذلك يجب أن نفكر أين نصرف أموالنا، والزيارة الآن ليست وقتها.

- بل وقتها، وأنا لم أكن أريد الضغط عليكِ لأنني لا أريد خلق المشاكل، وكنتُ أقول سيأتي يوم وتشعرين بأنكِ مقصرة تجاهي أنا وعائلتي. قاطعتني أمي:
- كريستين أريد أن أسألك سؤالًا.
- تفضلي، قالت بوجهٍ يحمل البغض لحظتها، شعرتُ بأنها تحاول استفزاز أمي.
- إذا اتصلتُ بكِ في يومٍ من الأيام وقلتُ لك يا كريستين أريد أن آتي لزيارتكم وليس لديَّ مال، هل سترسلين لي أجرة الطريق لآتي لزيارتكم؟ سألتها أمي. جاوبت كريستين وقالت
- بكل سرور يا خالتي، ومن الطبيعي أن أقوم بذلك.
- إذًا كان عليكِ الاتصال بي واخباري أنكِ ترغبين في زيارتنا لكن ليس لديكم مال.
- لا، أنا لا أطلب المال من أحد.

قلتُ لها:

- كريستين، أمي ليست أحدا. قاطعتني أمي وقالت:
- كيف أقبل أنا أن أطلب منكِ وأنتِ لا تقبلين. قالت:
- أنا أحادية الجانب، أعطي، ولكن لا آخذ من أحد. وقفتُ وقلتُ لها:
- كريستين على ما يبدو أن حرارتك بدأت ترتفع، قلتُ لأمي سنذهب الآن لنشتري بعض الأشياء.

طلبتُ من أمي ذلك لأنهي الحديث بينهما، لأنه من عادة كريستين كانت حين يتغير مزاجها نحو الأسوء يجب الابتعاد عنها، حين يتغير مزاجها يخرج الكلام من فمها دون

أن تشعر ماذا تقول. ذهبتُ أنا وأمي إلى مطعمٍ صغير قرب البيت لنكمل فطورنا، لكن أمي رفضت واكتفت بفجان قهوة.

مكثتْ أمي أسبوعا بأكمله عندي، شعرتُ أنها لم تكن سعيدة مع كريستين، ولم تقل لي أنه حصل شيء بينهما حين أكون في العمل، كانت حزينة، لكن رفضت أن تقول لي شيئا عن كريستين، رغم إيماني الكامل أن كريستين قامت بتصرفات غبية، لكن ربما لن تخبرني بشيء كي لا تعود المشاكل بيننا.

حالة البخل كانت غير محتملة. صباحا فتحتُ خزانة الملابس لألبس وأذهب إلى العمل، لم أجد شيئا نظيفا، كانت فارغة تماما، سألتها إن قامت بغسل الألبسة أم لا قالت لا، اليوم سأغسل كل شيء، بعد ثلاثة أيام تكرر الشيء ذاته . لم أعد أحتمل، قلتُ لها:

- حبيبتي كريستين أين هي الألبسة التي تحتاج إلى غسيل، هل هي في الغسالة أم في الحمّام؟
- لماذا تسأل؟
- لأنني أريد أن أعلمك طريقةً سريعة جدا في الغسيل، تستطيعين من خلالها ألّا تستخدمي الماء والكهرباء.
- كيف؟
- لا تسألي، فقط قولي لي أين تضعيهم وسأريكِ كيف، وبعدها ستستنشقين رائحة فواحة في كل الحي.
- قالت في الحمّام.

دخلتُ إلى الحمّام وحملتُ سلة الغسيل كلها وقلتُ لها الحقيني، صعدتُ إلى السطح في الأعلى، فتحتُ خزّان المازوت ووضعتُ في الخزّان قطعة لباس، بللتها جيدا وهي تنظر إلي ماذا سأفعل وتضع يديها الاثنتين على خصرها مندهشة، وضعتُ قطعة اللباس المبللة بالمازوت في سلة الألبسة وأضرمتُ النار فيها، قلتُ لها هذه أسرع وأنجح طريقة اكتشفها العلم لتوفير الماء والكهرباء، هكذا لن نفكر كثيرا، في كل مرة أشتري قطعة جديدة ألبسها إلى أن تصبح متسخة أرميها في القمامة.

خرجتُ من البيت ولم تتفوه بحرفٍ واحد، البخل لم يعد يطاق، لا تحترم أهلي، لا تكلمهم، لا حياة زوجية بيننا، يكفي، مضيتُ إلى عملي بعد أن اشتريتُ ألبسةً جديدة تكفيني لعدة أيام. في منتصف الليل حين أعود من العمل كنت أقرأ كتاباً قبل النوم. في يومٍ من الأيام كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، بينما كنتُ جالسا أقرأُ كتاباً شعرتُ بهزّة خفيفة أسفل الوسادة، مددتُ يدي لأرى ما الذي يهتز، كان موبايل كريستين، رسالة من لاكينو، الذي أعرفه أن صديقتها اسمها لاكين، وليس لاكينو، حرف الواو لم يعجبني، لم أسمح لنفسي في يومٍ من الأيام أن أراقب هاتفها، لكن حرف الواو ذاك لم يعجبني، لا أحد يتصل بكريستين، إن رنَّ هاتفها تكون لا كين من العمل، غير ذلك أنا الذي أتصل بها، لكن أذكر جيدا في أكثر من مرة حين كان يرّن هاتفها كنتُ أرى الاسم لاكين وليس لاكينو، فتحتُ الموبايل، لا أستطيع فتح الرسالة كي لا تكتشف ذلك في اليوم التالي، دخلتُ إلى قائمة الأسماء وجدتُ اسمين لاكين ولا كينو رقمين مختلفين، قمتُ بتسجيل الرقمين في هاتفي، وقلتُ في الصباح سأتصل من مكانٍ عام لأتأكد من الرقم هل الاثنين للاكين أم ماذا. في الصباح قبل الذهاب إلى العمل، قمتُ بذلك، اتصلتُ بالرقم الأول كانت لاكين أعرف صوتها جيدا، زميلتنا في

العمل، أما الرقم الثاني كان صوتُ رجل، وصوته لم يكن غريبا، كأنني سمعته من قبل، حاولتُ أن أطيلَ الحديث لربما اكتشفتُ من هو، لكن أنهى الحديث بسرعة وقال لي النمرة غلط وأغلق. من يكون يا ترى؟ جمرةُ نار في صدري، أريد أن أعرف من هو لاكينو، ليس أمامي غير أن أفتش في الرسائل لربما وصلتُ إلى شيء، عدتُ مساءً إلى البيت، دخلتُ غرفة النوم مثل اللصوص، بخطواتٍ حذرة كي لا تستيقظ كريستين، مددتُ يدي أسفل الوسادة وأخرجتُ هاتفها، مثلما دخلت خرجت ونزلت إلى الصالون لأستطيع أن أفتش بهدوء، دخلتُ إلى الرسائل لم تكن هناك رسائل من أحد غيري، كيف لي أن أعرف؟ كيف؟ بدأتُ أقلب بين الخيارات الموجودة في قائمة الرسائل وجدتُ خيارا مكتوبٌ عليه تقارير التسليم، ضغطتُ عليه وجدتُ تقارير تسليم كثيرة إلى لاكينو، ضغطتُ على التقرير الأول فتحت الرسالة وكان مكتوبٌ فيها، "يا حبيبي يا جورج كم كنت جميلاً اليوم!"

جعلتني أشعرُ وكأني خلقتُ من جديد، تم التسليم الساعة 12.23، أي قبل موعد قدومي من العمل وكريستين كانت في عطلةٍ اليوم. تصاعدتْ أنفاسي وبدأت يداي ترتجف لدرجةٍ لم أستطع أن أسيطر عليها، ضغطتُ على التقرير الثاني وجدتُ مكتوبا فيها "حبيبي جورج، نصف ساعة ويذهب أبي إلى العمل، حينها تعال أنا بانتظارك"، تم التسليم الساعة 7.42، حينها كنتُ أجهز نفسي للذهاب إلى العمل، شعرتُ بأنني أختنق لحظتها. فتحت رسالةً آخرى كان مكتوبٌ فيها "حبيبي جورج أنتظرك في الساعة التاسعة اليوم"، لم أعد أستطيع أن أكمل، يداي ترتجف وشعرتُ بأني سأصعد إلى الغرفة فوق وأخنقها، احتملتُ بخلها وأنا لا أقترب منها ظناً أنها مرهقة وأقول في نفسي سوف تتحسن في يومٍ ما، وهي تخونني.

ضاقتْ بي الدنيا لحظتها، لم أستطع الوقوف لأصعد إلى الغرفة فوق، شعرتُ بأن أطرافي تجمدّت من البرد وبدأتُ أبكي، لماذا يا إلهي؟. ما الذي فعلته؟، ماذا عليَّ أن أفعل معها؟ لن أستمر معها، الطلاق هنا حقٌّ شرعي، أنا الذي أُكابر على نفسي لكي لا أزعجها وهي تكافئني بالخيانة، ماذا سأقول لأمي؟ المشكلة ليست في ماذا سأقول لها، المشكلة ستبقى كل العمر تبكي على حظي. شعرتُ بشللٍ تام أصابني، لم أفعل شيئا غير البكاء حتى الصباح، استيقظتْ كريستين ونزلتْ إلى الصالون، وجدتني جالسا بلباسي، قالت:

- أين موبايلي؟
- هل هذا مهمٌ لكِ سيدة كريستين؟ الموبايل؟
- قولي صباح الخير، قولي لماذا أنت جالسٌ هكذا، قولي أي شيء، لكن كل هذا لا يهم، المهم أن تطمئني على حبيبك جورج، أليس كذلك؟

ارتخى بدنها و وكأن ماء باردا سُكِبَ فوقها وهي تنظر إلي، جلست أمامي وقالت:

- اسمع يا سعيد من حقي أن أعيش حياةً طبيعية، وأنا ندمتُ بالزواج منك، أو بالتحديد ليس منك فأنت شخصٌ أكثر من رائع، لكن أنا لا أستطيع الاستمرار مع شخص لا أستطيع أن أقول للناس هذا زوجي.
- ومن قال لكِ أنني سأستمر؟ حتى لو ركعتِ أمامي الآن لن أستمر مع إنسانة أعطيتها كل شيء بدون أن أسأل، أهنتِ أمي حين زارتنا ولم أتكلم، رائحة العفونة تأكلنا في البيت ولم أحاسبك يوما، لم نمارس الجنس منذُ زواجنا أكثر من أربع أو خمس مرات، عشرة أشهر وأنا أنتظر أن تعودي كما كنتِ قبل الزواج، في العشرة أشهر أيامٌ كثيرة كنتُ أنام فيها ودمعتي على وجهي، بماذا

قصرتُ تجاهك حتى تهديني هذه المكافأة؟ أو ما هو الذنب الذي فعلته معك؟ حتى لحظة قرار زواجنا كانت في يدك، أوهمتِني بأنه لن يحصل حمل، وجعلتِني أفرغ سائلي في رحمك وحصل الحمل، كي تستعجلين في الزواج وتضعينني تحت الأمر الواقع، وبكل وقاحة الآن تستقبلين رجلًا من خلفي في البيت وتمارسين الجنس معه! أنا وأنتِ لن نستمر، ولكي أبقى لآخر لحظة بيننا ابن أصل لن أرميكِ في الشارع، معكِ مهلة أسبوعين، اخرجي بملابسك أو قولي لي لن أخرج وسأخرج أنا بملابسي، هل فهمتِ؟و لا أريد أن أرى وجهك، حين تسمعين صوت الباب في الأسفل اصعدي للأعلى، وممنوع أن يأتي أحدٌ إلى البيت في غيابي، بأية لحظة سآتي، هل سمعتِ؟

رميتُ هاتفها في وجهها وخرجتُ من البيت، ذهبتُ إلى العمل بنفسٍ ممزقة، ليتني أستطيع أن أطفئ النار التي تأكلني، لكن في النهاية سأتصرف معها بأخلاقي ولن أرميها في الشارع لأنها وحيدة.

في الأسبوع الأول حين كنتُ آتي إلى البيت ظهرا، كنتُ أصعد إلى الأعلى كي لا أرى وجهها حين تأتي من العمل، أكتب على ورقة أنا في الأعلى حين موعد ذهابي إلى العمل اذهبي إلى المطبخ كي لا أراكِ وأنا أخرج، وفي الليل حين آتي تكون هي نائمة فوق، أنام في الصالون وأخرج قبلها في الصباح. في الأسبوع الثاني بينما حانَ موعد ذهابي إلى العمل في المساء، كنتُ أظن أنها في المطبخ لحظتها كي لا أراها كما اتفقنا وكما كنتُ أكتب لها على الورقة، لكن حين دخلتُ إلى الصالون وجدتها جالسة فصرخت فيها:

- لماذا أنتِ هنا؟ بنبرة حزينة قالت:
- أريد أن أطلب منكَ طلبا واحدا هل ممكن؟

أدرتُ ظهري :

- ماذا تريدين؟ أسرعي أريد الذهاب. قالت:
- أريدك أن تنظر إليّ نظرةً واحدةً فقط، وسأقول لك ماذا أريد.

التفتُ إليها وقلت:

- أسرعي قولي ما عندك أريد الذهاب.
- أريد أن أقبّلك.
- ماذا؟ هل جننتِ؟ أنا لا أحتمل النظر إليكِ والآن تريدين مني قبلة؟ اسمعي كريستين بقي خمسةُ أيام وينتهي كل شيء بيننا، وكان من المفترض أن أتصرف بالشكل الطبيعي وأرميكِ في الشارع، لكن كما قلت سأبقى لآخر لحظة أتعامل فيها معكِ بأخلاقي.

ركضت باتجاهي وأحاطتني بذراعيها وقالت:

- أرجوك، قُبلةً واحدةً .

كان شكلها يثيرُ الشفقة، كريستين مريضة أعرف جيدا، مرضها النفسي يجعلها لا تشعر ماذا تفعل، لكن كل شيء في الحياة الزوجية ممكن إصلاحه إلا الخيانة، الخيانة سكين يحدث جرحاً لا يرمم، نظرتُ إليها وشعرتُ بالشفقة عليها، قلتُ:

- قبّليني لكن أنا لا أستطيع.

قبّلتني وانفجرت بالبكاء، أدرتُ ظهري ومضيتُ إلى عملي. صورتُها وهي تبكي لم تفارق مخيلتي وأنا في العمل، شعرتُ أنها ستقوم بشيءٍ ما لذلك طلبتْ مني القبلة، هل معقول أنها ستنتحر؟ راودتني هذه الفكرة، أنها ستنتحر، بدأتُ الاتصال بها، لم تُجب، كانت الحادية عشرة ليلاً ولسوء الحظ صديقي في عطلة وهذا يعني لا أستطيع الذهاب

إلى البيت، بدأتُ أنتفض في كل مرة أتصلُ وهي لا تجيب، إلى أن أصبحت الساعة الواحدة ليلاً اتصلت بي هي.

- ألو كريستين أين أنتِ، هل نمتِ؟ سألتها بلهفة وأنا أقول الحمدلله أنها لم تنتحر.
- لا كان موبايلي صامتا ولم أشعر بشيء.
- أين أنتِ الآن، من المفروض أن تكوني نائمة الآن، وما هذه الأصوات الغريبة التي أسمعها؟ سألتها وشعرتُ بأنها ليست في البيت.. قالت:
- لا هذه الأصوات من الشارع، لا أعرف ما الذي حصل، لكن سأنام الآن، تصبح على خير وأنهت المكالمة.

لم أشعر بالراحة في صوتها وهي تكلمني، على أي حال، بقي القليل وأنتهي سأذهب وأرى. أنهيتُ كل شيء في العمل وانطلقتُ إلى البيت، فتحتُ الباب كان الدرج ملوثاً بالوحل، ربما إخوتي في زيارتي؟ هذا ما قلته وأنا أصعد العشر درجات، لكن كانت المفاجأة حين فتحتُ باب الصالون ووجدته فارغاً، لا شيء في الصالون، جدران فقط، صعدتُ إلى غرفة النوم كانت فارغة، في الزاوية فقط جرائد ممدودة على الأرض وفوقها ألبستي، كان المنزل فارغاً تماما، أخذتُ كل شيء وذهبت إذًا، لقد رحلتْ، شعرتُ بأني تنفست لأول مرة منذ عشرة أشهر، شعرتُ أن الرعشة من يدي اختفتْ، ابتسمت وجلستُ على الأرض لأتصل بها وأشكرها على رحيلها من حياتي. حين فتحت المكالمة قالت لي:

- أنا آسفة على ما قمت به لكن الأشياء كلها من حقي، اعتبرها تعويض لي.

- لا لا كريستين، أنا لم أتصل لكي أسألك عن أي شيء، اتصلتُ فقط لأقول لكِ شكرا لأنكِ خرجتِ من حياتي بسلام، قبل أن أُصابَ بداء، وهذه المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها أن اسمي يناسبُ حالتي تماما، اسمي سعيد وأنا سعيدٌ جدًا الآن، لكن كان من الأفضل لو تركتِ لي شيئا أجلسُ عليه إلى أن أشتري كل شيء، لكن لا يهم، وأنهيت المكالمة.

خرجتُ من البيت، ركبتُ سيارتي باتجاه بارٍ على طريق المطار، بدأتُ أمسيتي الأولى بعد الزواج في البار وحيدا، أشرب الويسكي وأرقص، وأنا أرقص بدأتْ ترقص معي فتاة يبدو عليها أجنبية، طويلة القامة، سمارها قريبٌ إلى فتاة زنجية، عينان سوداوتين، أكثر من نصف ساعة ونحنُ نرقص، شعرتُ بالتعب، دعوتها لنكمل الشرب معا، قالت لي أنا اسمي أفروديت أمريكية وأعمل في السفارة الأمريكية في دمشق، أكملنا سهرتنا أعطتني رقم هاتفها لنتكلم مع بعض باعتبار أنها كانت تعرفني من إحدى لوحاتي الموجودة في السفارة عندهم، اكتشفتُ ذلك حين قلتُ لها اسمي سعيد كنتُ في السابق فنّانا تشكيليا والآن أنا محاسب في فندق، قالت لي عندنا في السفارة لوحة موقعة باسم سعيد الكُردي، تشرفت بمعرفتك وأتمنى أن نلتقي مرةً أخرى، ومضى كلُ واحدٍ في اتجاه. كريستين أعطتني درس الابتعاد عن النساء، لذلك لم أفتح لها المجال بإكمال السهرة معا، رغم أنها حاولت ذلك بدعوتي إلى إكمال السهرة في بيتها، اعتذرتُ ووعدتها "في القريب العاجل". مضيتُ إلى الفندق نفسه الذي أقمتُ فيه أول يومٍ لي في دمشق، استلقيتُ على السرير ولأول مرة بعد زواجي شعرتُ بإحساسٍ جميل، يحملُ بين طياته شعورا أجمل للأيام القادمة. في اليوم التالي صباحا بدأتُ بإعادة شراء كل ما يلزمني في البيت، لكن هذه المرة كانت القياسات لشخصٍ واحد فقط، بمفردي

سأعيش لأكمل حياتي. في الزواج لا خيار ثالث، تنجح أو تفشل في اختيارك، إن نجحت تكمل الحياة بسعادة وسرور، وإن فشلت عليكَ الاستمرار وحيدا لتعيد نكهة السعادة لأيامك.

****

10

كان الانفصالُ عن كريستين مفتاح بابٍ جديدٍ لي، في أول يوم بعد عودتي إلى العمل تفاجأتُ باستقالة مدير قسم المحاسبة، طلبَ مني السيد عبد الرحمن أن أقوم أنا بالمهمة لفترة تجريبية، إن نجحتُ بعدها سأكون أنا المدير. بذلتُ جهداً كبيرا لأثبت جدارتي بالمنصب هذا، رغم مسؤوليته الكبيرة بالنسبة لي، والضغوطات التي واجهتني. بعد شهرين أصبحتُ مدير قسم المحاسبة في الفندق، كانت كل الأمور تحت سيطرتي، هذا ما قاله لي السيد عبد الرحمن، رغم سعادتي الكبيرة به، لكن كنتُ خائفاً، الحياة علمتني أنه لا شيء يدوم، إلى أن أصبحتُ رساماً دفعتُ الثمن أعواما في سرير امرأة كبيرة في السن وأنا أطفئ لهيب جسدها، وتفاجأتُ بعدها بالمشكلة التي أصابتني في الجهاز العصبي ومنعتني من الرسم، أخافُ هذه المرة أن تصيبني مشكلة في النظر، حينها لن ينفع وجودي في الحياة كلها، ليس فقط في الفندق.

اتصلت بي أمي وأخبرتني عن ضرورة حضوري إلى حلب، أختي جيهان وخطيبها اتفقا على موعد الزواج. توجهتُ إلى حلب قبل موعد العرس بأيام، تزوجت جيهان، كم كان يوما قاسيا، شعرتُ بأنها لم تعد قريبة مني، الشيء الوحيد الذي كنتُ أستغرب منه في الحياة بشكلٍ جنوني أنه كيف يستطيع الأب بعد تربية ورعاية ابنته أن يزوجها، وأن تذهب للنوم في بيتٍ آخر، بيت رجلٍ غريب، كنتُ أقول لكريستين إن رزقنا الله بفتاة سأقول لها حين تكبر إن أردتِ الزواج يا ابنتي فهذا حقك، لكن من حقي أن تبقي بقربي، لذلك على الرجل الذي يريد الارتباط بك أن تخبريه أن شرط والدي الوحيد أن نعيش معه في البيت، لا أقول أن الفكرة سهلة، أن يقبل رجل في المجتمع الشرقي العيش في بيت والد زوجته، لكن لم أكن أستطيع أن أتخيل أن أرعى ابنتي وأراها تكبر

أمامي، وفي النهاية يأتي رجل يأخذها من حضني. هكذا شعرتُ في ليلة عرس جيهان، شعرتُ بأنها ستبرد في الليل، وتبقى جائعة، وهي في أحضان رجلٍ آخر، لم أكن بجانبها، لكن لم أقصر معها في يوم من الأيام في مصروفها، كل شهر كنتُ أعطيها أكثر مما أعطيه لإخوتي الشباب. ذهبت جيهان إلى منزل زوجها، وعدتُ أنا إلى دمشق على الفور، لم أحتمل بكاء أمي وهي تندب حظي مع كريستين، وأن أدخل البيت وغرفة جيهان فارغة. وصلتُ إلى دمشق صباحا، قبل أن أدخل إلى البيت وقعتْ عينيّ على كريستين في شباك بيتٍ من الشارع الخلفي لبيتي، لم أكن متأكداً من ذلك، ربما فتاة تشبهها، صورة أمي لم تفارقني منذ خروجي من حلب، كيف كانت تبكي وهي تندبُ حظي، ربما لأني مرهق حتى توهمتُ أنها كريستين. في المساء استيقظتُ على صوت هاتفي، أفروديت كانت تتصل بي، "مرحبا سعيد، كيف حالك؟"، كانت لغتها العربية ركيكة جدا، تنطق حرف الخاء بدل الحاء، الألف بدل العين، والمؤنث مذكر، والمذكر مؤنث، المفرد جمع، والجمع مفرد، كان عليَّ أن أحترم محاولتها في التكلم رغم صعوبة المهمة:

- أهلا أفروديت، أنا بخير، كيف حالك؟
- أنا مش كويسة.
- لماذا؟
- أشعر بالملل، ما رأيك في تناول العشاء أو أي شيء آخر في مكان ما؟ سألتني وفي نبرة صوتها أمل على الموافقة.
- لم أرغب في الرفض، رغم الحالة التي أنا فيها.

في الطريق إلى منزل أفروديت لأصطحبها ونخرج اتصلت بي أمي، تطمئنُ علي، انتهت المكالمة وهي تبكي، ليست جيهان من كانت السبب، بل أنا، تطلب مني أن أعود لأقيم معهم في حلب، لم أكن أرغب في ذلك، أحبُ سماء دمشق، وقاسيون، الخليط المتواجد في دمشق يعطي للعيش فيها نكهة أجمل، حلب مدينة لها خصوصيات معقدة بالنسبة لي ويصعب عليَّ العيش فيها من جديد بعد العيش في دمشق. لكن وعدتها بأني سأبحث عن فتاة وسأتزوج قريباً ليطمئن قلبها ألَّا أبقى وحيدا. وصلتُ إلى منزل أفروديت، كانت تنتظرني في الخارج، دعتني إلى فندق الشام، هناك بار جميل ويقدم الوجبات الخفيفة فيه، أمضينا ليلتنا بين شرب الفودكا مع عصير الرمان والأحاديث عن أميركا والعيش فيها. اقتربتْ الساعة من الخامسة صباحا، لم يعد هناك أحدٌ في البار غيرنا، أوصلتُها في طريقي إلى البيت ورفضتُ دعوتها لشرب قهوة الصباح عندها في البيت. بعد ذلك اللقاء اتصلتْ بي أكثر من مرة لدعوتي إلى مكانٍ ما أو إلى بيتها، لكن دائماً كنتُ أرفض. مرَّ شهران لم تتصل بي بعد أن طلبتْ مني إقامة علاقة جنسية وأنا رفضت. لم أكن أريد رفضَ طلبها على أمل أن أحصل على فيزا إلى أميركا وأرحل بعيدا، كنتُ أهرب من فكرة الجنس لسببين، الأول لأني لم أعد أستطيع معاشرة النساء كما كنتُ سابقاً، والثاني اتصال أمي بي بشكلٍ يومي وصوتها الحزين حين تطمئنُ علي. بقيتُ كما أنا عليه لأكثر من عامين. في يومٍ من الأيام اتصلت بي أختي جيهان، وقالت ذهبتُ اليوم إلى الطبيب لأتأكد من نتائج التحليل، وكانت النتيجة إيجابية، أنا حامل يا سعيد، كان الخبر مغلفاً بالحزن، هكذا شعرت، الخوف من كل شيء لا يفارقني، كم جميلٌ أن أسمع هذا الخبر يا أختي، صدقيني أشعرُ بسعادةٍ لا توصف، أن أصبح خالًا وتصبحين أما. قالت:

- لكن الأجمل من نتيجة التحاليل أنني التقيتُ بممرضة جديدة هناك، وأعجبنا بها كثيرا أنا وأمك، وفي الحقيقة اتصلتُ لسببين، الأول لأزف لكَ خبر الحمل، والثاني أخذت أمي من الممرضة رقمها وتريدك أن تتعرف عليها، صدقني يا سعيد انها جميلة جدا ويبدو عليها أنها من عائلة جيدة.
- لا يا أختي أنا لا أفكر في الزواج، لكن لا تقولي هذا لأمك لأني وعدتها بأن أتزوج.

أصبحت أمي كل يوم تتصل بي لآتي إلى حلب وأقابل الممرضة، وأختي كانت تتصل بين الحين والآخر، بعد أشهر قررت الذهاب لمقابلتها. جلسنا في مطعمٍ صغير في العزيزية أنا وهي، شعرت بخيط هش حين التقيتُ بها، لا أحب الزواج التقليدي، ولا أريد أن أجرح رغبة أمي في الزواج، كانت تريد أن تزوجني لخوفها عليّ ألَّا أتزوج للأبد من صدمتي بكريستين، ولأن أخي فرهاد كان مُصراً على البقاء بدون زواج بعد أن تزوجت حبيبته شريهان من رجلٍ غني، وبقي أخي فرهاد يحتفظ بصورها ورسائلها في خزانة مقفلة ويضع المفاتيح في حفرة صغيرة، حفرها في أرض الحوش بجانب شتلة قرب باب المطبخ خوفاً من الضياع، كان يسقي الشتلة بماءٍ معطر كل يوم صباحا في الصيف، ويقول ربما أثمرت في يومٍ من الأيام زهرة غريبة لأُسّميها شريهان، أخبرني عن المفاتيح كوصية إن ماتَ يوما أن أفتح الخزانة، وأدفن جميع صور ورسائل شريهان في القبر معه. اسم الممرضة ياسمين، معتدلة القوام لا نقص فيها ولا زيادة، أنفها دقيق صغير، شعرها الذهبي ينسدل فوق كتفيها، عيناها لوزيتان فيهما كل الألوان، صوتها عذب، جلسنا قرابة الساعتين في المطعم، أخبرتها أختي أنها تبحث عن عروس لأخيها، هي أيضا كانت ترفض فكرة الزواج التقليدي قبل أن نلتقي، لكن بعد اللقاء لم تقل

شيئا، اكتفينا بالأحاديث العادية، خرجنا من المطعم ولم أطلب رقمها وهي لم تطلب مني ذلك، دعوتها إلى وجبة إفطارٍ في اليوم التالي. شعرتُ بالراحة معها بعض الشيء، لكن الخوف يكادُ يفزُّ من عيني، لا أريد الزواج، ولكن أريد أن أرضي أمي، قررتُ الزواج من ياسمين. أقمنا حفلة خطوبة صغيرة في منزلهم، أعددنا كل شيء على عجل. حينَ عدتُ إلى دمشق، صادفتُ كريستين بالقرب من الحي الذي أقيم فيه، لم أكلمها، ولم تكلمني، لكن وقعَ عينها على المحبس في إصبعي، شعرتُ بأنها انصدمت، لم ترفع عينها عن المحبس حتى ابتعدنا عن بعض. في المساء جاءني اتصال من رقم غريب، كانت كريستين:

- كيف حالك سعيد؟
- أنا بخير بعيدا عنكِ، قلتُ لها. قالت:
- هل أستطيع أن ألتقي بك، في أي مكان تختاره أنت؟
- لا داعي للقاء كريستين، ليسَ هناك شيء بيننا لنلتقي.
- أرجوك، لمرة واحدة فقط، قالت لي.
- تستطيعين التكلم على الهاتف هذه المرة فقط، غير هذا أرجو منكِ ألَّا تتصلي بي مرةً أخرى وإلا سأقوم بتغيير رقم هاتفي.
- سعيد لمرة واحدة فقط، أرجوك.
- آسف، قولي ماعندك هنا، أو سأنهي المكالمة. قالت:
- رأيتُ محبساً في إصبعك، هل ارتبطت؟
- وماذا يفيدك إن ارتبطت أم لا؟ دعيني وشأني كريستين.
- لا يفيدني بشيء، لكن كنتُ أريد أن أباركَ لك.

- شكرا لك، وصلت المباركة، غير هذا هل تريدين شيئا آخرَ مني؟ أنا مرهق وأريد النوم، وأتمنى ألّا تتصلي بي مرة أخرى.
- سعيد أريد منك أن تسامحني، لهذا اتصلت.
- كريستين لا يوجد في داخلي شيء تجاهك، فقط دعيني وشأني، لا أريد أن أشغل الخط أكثر، إذا اتصلتْ خطيبتي بي وسألتني لماذا كان هاتفي مشغولاً حينها لا أستطيعُ الكذب، وإن قلتُ لها كنتُ أتكلم معك ربما تغضب وتبدأ المشاكل بيننا، لذلك أرجوكِ ابتعدي عني، واتركيني أن أعيش بسلام، تصبحين على خير.

صباح اليوم التالي تفاجأتُ بكريستين تقفُ أمام البيت حين كنتُ خارجاً إلى العمل:

- ماذا تريدين مني كريستين؟ سألتها.
- أريد أن أتكلم معك قليلًا.
- تعرفين جيدا أنني ذاهبٌ إلى العمل الآن، ولا وقت لدي لشيء.
- امنحني عشر دقائق فقط، أرجوك.
- حسنا، حين أنتهي من العمل سأتصل بك.

نسيتُ أن أتصل بها حين انتهيت من العمل. في المساء طُرِقَ الباب، فتحت كانت كريستين، لم تنتظر أن أقول لها شيئاً، دفعت الباب ودخلت، وضعت يدها على كتفي وقالت:

- أرجوك يا سعيد دعنا نتكلم لعشر دقائق فقط. جلسنا في الصالون، تفاجأتْ بشكل البيت حين وجدت كل شيءٍ مرتبا ونظيفا، ولا ينقصني شيء.
- أنا أسمعك كريستين، قولي ماعندك.

- أنا أريد فقط أن تسامحني.
- سامحتك، غير هذا ما هو المطلوب؟
- أريدك أن تسامحني من قلبك، أشعرُ بالذنب تجاهك ولا أستطيع النوم.
- لا لا يا كريستين، نامي وأنتِ مرتاحة الضمير، لا شيء في قلبي تجاهك، لا من حب ولا من حقد، فقط اتركيني وشأني، هذا هو طلبي الوحيد، حينها فقط أسامحك من قلبي.

أكثر من نصف ساعة حاولتُ فيها جاهدا أن أتكلم معها بأسلوبٍ آخر، لكن لم أستطع، كان وجودها يحرك الجرح الذي في قلبي، ويجعلني أتوتر، لكن لم أكن أريد أن أراها وهي تتوسل إلي، لا أحب أن أنظر إلى وجوه الضعفاء، أحب أن أساعدهم، حتى لو كانت كريستين. في النهاية قالت لي:

- أريد أن أمارس الجنس معك حتى تتزوج.
- هل جننتِ كريستين؟ حينَ كنا متزوجين لم نمارس الجنس، الآن أنا مرتبط بأنثى أخرى وحضرتك على علاقة مع الشيف جورج في المطبخ وتريدين مني أن أمارس الجنس معك؟
- لا، أنا وجورج انفصلنا بعد أن عرف أني مطلقة، وهو يبحث عن فتاة.
- لهذا السبب أنتِ هنا، لم يعد هناكَ علاقة بينك وبين جورج حتى عدتِ إلى سعيد.
- لا صدقني انفصلنا منذُ العام الماضي، لكن حين صادفتك في الحي ورأيت المحبس في إصبعك، شعرتُ بأشياء متناقضة، شعرتُ بالسعادة لأنكَ تستمر

في الحياة بشكلٍ طبيعي وارتبطت، وفي نفس الوقت شعرتُ بأنني ظلمتك كثيرا، وفي النهاية شعرتُ بالغيرة.

- كريستين أريد منك هدية واحدة.
- ما هي؟ سألتني مبتسمة.

ابتعدي عني، اخرجي من حياتي، اتركيني لأعيشَ بسلام، أنا سعيد حينَ تكونين بعيدةً عني، حينها فقط سأسامحك من قلبي.

خرجتْ من البيت وشكلُها بائسٌ، لكن لم أبالِ، لا يهمني، المهم أن أعيش مع ياسمين بسلام.

لكن القصة بدأت تكبر أكثر وأكثر، حين اتصلت بي لا كين صديقة كريستين في الساعة الثالثة مساءً من المشفى، قالت لي أن كريستين أصيبت بانهيار عصبي، وطلبت مني أن أتصل بك لأنها تريد مقابلتك، قلتُ لها لا أستطيع، يجب أن تنهض بمفردها بدوني، إن أتيت الآن ستتكرر القصة مرة ثانية وثالثة وألف، لذلك لن آتي، لكي تفهم أنه لا يهمني ما يحصل بها، يجب أن تفهم هذا، كنتُ أقول هذا لأني كنتُ متأكداً أن كريستين تسمع المكالمة. لم تنتهِ الحكاية مع كريستين هنا، كنتُ أتفاجأ بها حين أدخلُ إلى الحي وهي جالسة أمام البيت تنتظرني، نتكلم قليلًا ثم تذهب، أصبحت تزعجني بشكلٍ كبير، أدخلتها مرة إلى البيت وتوسلتُ إليها، لكن لم تقتنع وأصرت أن نبقى سوياً إلى أن أتزوج. قلتُ لها عرسي بعد شهر ، ولا ينفع أن نبقى هذا الشهر سوياً، قالت ليلة واحدة فقط دعنا نسهر سوياً،قلتُ لها إن أردتِ اعزميني على فنجان قهوة في منزلك، لا أريدها أن تدخل بيتي لربما ألحقت بي مكروها ما، دعتني إلى بيتها، قالت لي أسكن في الحي الثاني، حينها تأكدتُ بالفعل أن هناك شخصا ما كان يراقبني، نافذة غرفتها

يطلُ على بيتي، جلسنا في الصالون لنتحدث قليلًا، وأخبرها عن رغبتي في إنهاء كل شيء بيننا بسلام، بينما كنا جالسين طرق الباب بشكلٍ قوي، اقتحم رجال الأمن البيت، رموا بكريستين على الأرض ووقفَ أحدهم فوق رأسها موجهاً المسدس عليها، قال لها من هذا مشيرا إلي، قالت له:

- شريكي؟
- شريك ماذا؟ قلتُ لها. قال لي الضابط:
- اخرس.

وأمرَ عناصر بتفتيش البيت، وجدَ أحدهم كيسا فيه بودرة وقال له:

- سيدي كانت في المطبخ فوقَ البراد.

مخدرات؟؟؟ هل كريستين تتعاطى المخدرات؟ كنتُ أشعر بأنها ليست طبيعية، لكن لم أتوقع ذلك. ورطتني معها في العملية ، قالت لهم أنني شريكها، تظنُ أنها بهذه الطريقة تنتقم مني لأني رفضتُ إقامة علاقة معها، هكذا قالت لي حين جمعني المحامي معها في غرفة في قسم مكافحة المخدرات، إلى أن تأكدوا من التحاليل أنه لا علاقة لي بالمخدرات أشبعوا جسدي ضرباً، وزلزلوه .خلال عامٍ ونصف، انتقلتُ فيها من سجنٍ إلى سجن.. اتصلت بخطيبتي ياسمين حين خرجت، كانت تزورني كل شهرين مرة في السجن، شرحتُ لها ما حصل معي وتفهمت ذلك، وأغلب الأوقات تكون أمي معها تأتي من حلب لتزورني، أخبرتها في رغبتي بالزواج واتفقنا على موعد العرس بعد شهر . أعددنا كل شيءٍ على عجل، وتزوجنا. رزقنا بفتاة صغيرة تشبه الملائكة، أسميتها فيروز. لكن قدري جعلني أخلعُ حذائي وأضرب به نفسي في الشارع وأنا جالسٌ على الأرض بجانب جثة ياسمين، ماتت ياسمين بانفجار جانب فرع

المخابرات الجوية في القصاع، بينما كانت تذهب إلى العمل في المشفى الفرنسي بجانب الفرع. ولأنه لم يبقَ لي شيء في دمشق قررتُ العودة إلى حلب، لا أستطيعُ أن أعيش وحيدا، وذكراها في البيت سيخنقني أكثر وأكثر، لذلك يجب عليَ أن أبتعد. عدتُ إلى حلب مع فيروز لأكمل حياتي مع أمي، لكن لم يكن لديَّ أي رغبة في أي شيء، صورة ياسمين وجثتها المشوهة كانت صدمة كبيرة بالنسبة لي، جعلتني كائناً ليلياً، انطوائيا، كئيبا، أستيقظُ في العصر من النوم، وأبقى جالسا في غرفتي حتى الصباح، لا أجيد فعل شيء غير البكاء، لأني كنتُ أريد إرضاء أمي تزوجت، لو لم أكن أريد ذلك ربما كانت ياسمين الآن على قيد الحياة، ماذنب ابنتي أن تكبر بلا أم؟

حين دخلتْ أمي سنتين إلى الزنزانة شعرتُ باليتم، وأنا لم أستطع أن أعود كما كنت، أو أقل مستوى، الشعور بالذنب تجاه ياسمين يخنقني، ولا أستطيع التكلم مع أحد، كنتُ أكتفي فقط بالإيماء برأسي بالنفي حين تسألني أمي عن شيء. حاولت أمي كثيرا بأن أخرج من المنزل كل يوم ولو نصف ساعة لأتمشى قليلا، ولكي أهرب من طلبها، نفذتُ طلبها مرغما. في المرة الأولى حين خرجتُ من البيت صادفتُ خلود، صديقتي في المدرسة والتي كنتُ أحبها، تحملُ طفلاً في يدها وطفلا آخر كان يمشي بجانبها، حين رأتني أنزلت الطفل من حضنها، وبدأت تدقق النظر إلي، لحيتي طويلة، مرَّ أكثر من عام لم أحلقها، شعري مجعد، لم أمشطه منذُ موت ياسمين، أكتفي بالحمام كل يوم قبل النوم لأسترخي قليلًا، اقتربت مني وعيونها حب وعتاب، تنظر إليَ بحرقة، وغضب:

- سعيد؟ هل هذا أنت؟ كنتُ أسمع أخبارك السيئة عن طريق جارتنا التي تزور والدتك، لكن لم أتصور أن تصبح بهذا الشكل، هل تعلم ما الذي

يزعجني في الحياة؟ سألتني وهي تكظم غيظها ومطبقّة أسنانها على بعض، التمعَت عيناها بدمعة ستنفجر، لا تسألني بل أنا سأقول لك ما الذي يزعجني، أياماً كثيرة جعلتني أبكي بحرقة، كنتُ أحبك يا سعيد، أحبك، آلاف المرات كنتُ أحاول أن أقولها لك، لكن كنتَ دائماً تهرب، آلاف المرات حاولتُ أن أوضح لك عن إعجابي الشديد بك، لكن لم تنتبه، انتظرتك كثيرا، إلى أن فقدتُ الأمل حين تزوجت من كريستين، حينها فقط قررتُ الارتباط برجلٍ آخر.

قالت هذا ومضت وهي تنظر إليّ بحرقة، كلماتها كانت تخرجُ مع أنينٍ يصدرُ من صدرها، أدارت ظهرها ومضت، لم تر البكاء في عيني، ولم تسمع أنيني وأنا أبكي. ليتني بقيتُ ماسحَ زجاج سيارات وتزوجتُ خلود، على الأقل كان طريقي أقصر، وربما أجمل، "لكن لا يصلح العطار ما أفسده الزمن[4]"

عدتُ إلى البيت بعد أن سمعتُ أصوات انفجارات وقصف للطائرات على منطقة الإذاعة في حلب، خفتُ من الموت، خفتُ أن تبقى ابنتي وحيدة.

اتصلتْ بي أختي جيهان تقول لي أنها نسيت مفتاح البيت عندنا وهي تنتظرني أمام بيتها لأجلب لها المفتاح:

- لماذا عدتِ لبيتك؟ قالت:
- لا أريد أن يأتي يونس من العمل مساءً ويبقى لوحده، أشعرُ بالتقصير معه.
- حسنا.

وصلتُ إلى بيت أختي وقلتُ لها:

---

[4] من مسلسل بنت العطار

- هذه فرصة أن نشرب القهوة سوياً بمفردنا، ربما استطعتُ الخروج من حالتي.

لكن للأسف. حين دخلتُ البيت أنا وهي مع ابنها وجدنا يونس عارياً مع رجلٍ آخر، يمارسان اللواط، سقط الطفل من حضن أختي، وارتعش جسدي من المنظر الذي رأيته، تذكرتُ مصطفى حين اغتصبني، أمسكتُ بيد أختي وأخرجتها من البيت وهي تصرخ.....

لم أنم ليلتين بأكملها وأنا أرتعش، أختي في الغرفة الثانية تبكي ولا تنام، لم تتوقع ما رأته، كانت صدمةً كبيرةً لنا كلنا. بعد ليلتين من التفكير والارتعاش قلتُ في نفسي حانَ وقت الانتقام من مصطفى والآنسة فهيمة، بكل الأحوال الوضع في البلد أصبح على كفِّ عفريت، والقذائف تتطاير هنا وهناك، في كل مرة يمرُ الموت من جانبنا، ويجب أن أزيح هذه الغيمة من صدري، سأنتقمُ وأمسك بيد عائلتي وأرحل من هنا، الجثث أصبحت مرمية هنا وهناك، انتهت صلاحية الحياة من هذا الوطن ومن هذا البيت. قمتُ بايصال أمي وإخوتي وابنتي إلى بيتٍ صغير في قريتنا القريبة من الحدود التركية، سأنتهي من الانتقام وأبيع المنزل وكل الأشياء في حلب وأعود لنتوجه إلى تركيا بعدها إلى إحدى الدول الأوربية. قصدتُ منزل الآنسة فهيمة في اليوم التالي، طرقتُ الباب فتحت لي، أعرف أنها تسكن لوحدها عن طريق أحد أصدقائي الذي يقيم في حيها، ومن حسن حظي كان بيتها منفرداً لا أحد بقربها، آخرُ بيتٍ في الحي، ركلتُ الباب بقدمي ودخلت، أريد أن أسألك بضعة أسئلة وأمضي، هذا كل ما في الأمر، ولا تقولي لي أنكِ لا تذكريني، أنا سعيد الخضرجي الكُردي، وأرجو منكِ أن

تبقي صامتة إلى أن ننتهي من الاستجواب، أي شيء غلط يثير الانتباه لن أتردد في أن أضربك.قالت:

- أذكرك جيدا، وأنا كنتُ أحبك.
- لا تكذبي، ولم آتِ لأسألك إن كنتِ تحبيني أم لا، لكن أريد أن أعرف لماذا كنتِ تكرهيني أنا وأختي؟ لماذا كنتِ تعاقبيها دائماً وتقولي لها أنتِ كافرة؟ هل لأنها لا تضع الحجاب على رأسها؟ بسببك هجرتُ المدرسة رغم أنني نادمٌ إلى اليوم أني لم أكمل تعليمي، لكنكِ أشعلتِ فكرة الفشل في داخلي.

قالت:

- لا أكره أحدا منكم، لكن الدين يفرض عليَّ كمعلمة أن أنصحكم.

وبدأت تروي لي قصصا وأساطيرا لكي لا أضربها. قلتُ لها:

- على كل حال أنا هنا لأنتقم، والطريقة التي تختاريها أنتِ سأنفذها لكِ إن أعجبتني، لكن لن أرحل بدون انتقام، وأتمنى ألّا تحاولي فعل أي شيء لأني لا أملك شيئا لأخسره الآن، والبلد يسير فيه قانون الغاب.

بدأت تتوسل مني أن أسامحها، لكني رفضت، ولكي أشفي غليلي قلتُ لها سأكون معكِ رحيماً، سأكتفي بحرق ملابسك وكل شيء يسترك، حتى أغطية الأسّرة والستائر، سأسجنكِ في البيت عارية، لكي لا تخرجي خارج المنزل، ربطتُ يدها بحبلٍ كان معلقا على شجرة في فِنَاء الدار، وبدأتُ أجمع كل شيء في البيت من ألبسة داخلية وخارجية وأغطية وستائر وأقمشة، لم أترك أي شيء له علاقة بالقماش، حتى القطع الصغيرة التي تستخدمها للتنظيف جمعتها، وضعتُ كل شيء في منتصف الدار وذهبتُ إليها وبيدي مقص، بدأتُ أعرّيها وهي تبكي وتتوسل إليّ أن أتركها وأسامحها، لكن

النار في قلبي لن تنطفئ قبل أن أنتهي، وقفتُ أمامها وهي عارية تماما، حتى سروالها الداخلي قطعته بالمقص.

لكن الحق أقول لكِ منظركِ الآن يشفي غليلي قليلًا، تعالي معي، أوقفتها بجانب اللباس المكوّم وقلتُ لها سأجعلكِ تجربين رائحة النار الآن، لكن إن حاولتِ فعل شيء حين أخرج سأجعلكِ تخرجين عارية من منزلك، وأضرمتُ النار بالألبسة، وقفتُ أتأمل النار التي تعلو وتعلو إلى السماء حتى أصبحتْ رماداً، سحبتها معي إلى باب البيت، أوقفتها خلف الباب، وقلتُ لها سأقف في الخارج وأمدُ يدي إلى الداخل لأفتح لكِ عقدة الحبل من يدك لأكون رحيماً قليلًا معك، وأنا متأكد لن تخرجي بهذا المنظر المقزز أمام الناس وأنتِ عارية، كانت تنظر إليّ وكأنها تريد أن تشرب من دمي، وقفتُ أمام البيت مددتُ يدي حللتُ العُقدَ لها ومضيت إلى البيت لأرتب نهاية لمصطفى.

حين وصلتُ إلى الحي كان الناس مجتمعين أمام بيتنا، والدخان يتصاعد، كما أن البيت احترق، وصلتُ إلى البيت رأيت كل شيء مدمّرا، حطاما، ركاما، قذيفة أصابت البيت ، ألبوم الصور احترق، لعبة ابنتي أيضا، حاولتُ أن أزيل الركام قليلًا كي ألتقط أي ذكرى، لكن لا شيء، كل شيء كان رمادا. الظلام دامس في هذه الليلة الباردة لا كهرباء في المنطقة، جلستُ فوق الأنقاض، أمجُ من سيجارتي بمرارة، وشريط ذكرياتي يمرُ من أمامي، كنتُ فقيراً، أصبحتُ غنياً، عدتُ من جديد إلى الفقر، لكن الآن ليس الفقر وحده المشكلة، أصبح لفقرنا هذه المرة لونٌ آخر، جيهان لديها طفل، وابنتي بلا أم.

أذكرُ كيف كانت تعاقبني الآنسة فهيمة في المدرسة، كيف كنتُ أقف حصة كاملة على قدمٍ واحدة، رافعاً يدي للأعلى، والسبب ربما سألتُ أحدا عن شيء، أو همستُ لأحد، مجرد حجة لا أكثر، وأتذكر كيف قامَ مصطفى باغتصابي، ومزقَ شرجي، وجعلني

أبكي أياما بحرقة من الألم، مصطفى حان الوقت لأنتهي منه، وقفت وقلتُ في نفسي الآن، توجهتُ إلى دكانه، دخلتُ إلى الدكان وفي يدي زجاجة كاز وعصا صغيرة، سأمزق شرجه بالعصا كما اغتصبني لكن بالعصا، كان جالسا خلف طاولته، وبجانبه لمبة كاز وعلبة فيها شموع، الهرم بدا واضحا عليه، أطبقَ عينيه محاولاً معرفة من الذي دخل وقال لي:

- أهلا تفضل، ماذا تريد؟ ظن أنني زبون جاء ليشتري شيئا. قلتُ له:
- أريد كيلو سكر وكيلو رز.

طلبت الرز والسكر لأن مكانهم خلف الباب ويصعب عليه أن يرى في هذا الظلام، إلى أن يملأ السكر والرز لي سأكون انتهيت من سكب الكاز في أرجاء الدكان، وبالفعل إلى أن انتهى كنتُ قد أفرغتُ زجاجة الكاز كلها في أرجاء الدكان وأنا أتكلم معه مغيراً في نبرة صوتي كي لا يعرفني وأنا أتنقل في زوايا الدكان، وقفتُ خلفه وأدخلتُ العصا في شرجه محاولاً تمزيقه، صرخَ بأعلى صوته وهجم علي، أبعدته عني وقلتُ له:

- أنا سعيد يا مصطفى، كل هذه الأعوام لم أنس فعلتك، والآن جئت كي أعيد ما فعلته بي لكن بطريقتي، وأجعلك تندم على تلك اللحظة التي أمتعت فيها نفسك.

أشعلتُ عودَ ثقابٍ ورميته على كيس الطحين الذي امتلأ بالكاز، لحظة وصول العود إلى الكيس اشتعلت النار، وبدأت تلتهم كل شيء، خرجتُ من الدكان، ووقفتُ من بعيد أتأمل النار التي تأكل كل شيء في الدكان والبيت وهو يصرخ ويطلب المساعدة، كان وحيدا، بعد وفاة زوجته وسفر ابنه رياض إلى الأردن هرباً من الخدمة الالزامية.

شعرتُ بأن النار التي في داخلي خمدت قليلًا، لم أنتقم من مصطفى والآنسة فهيمة لأن الحقد يقتلني، لكن الجرح الذي سبباه لي لم يلتئم في كل سنوات عمري.

مضيتُ بعدها إلى القرية لنغادر البلد قبل أن تحل مصيبة بنا، القذائف تتطاير هنا وهناك، في طريقي إلى القرية اتصل بي أحد أصدقائي اسمه أحمد، حين كنتُ عسكريا في كلية التسليح التي لم أداوم فيها غير أيام معدودة لواسطتي الثقيلة من طرف المدام سميرة، قال لي رأيتُ اسمك في قائمة المطلوبين للخدمة الاحتياطية، وقاموا بتعميم اسمك اليوم، انتبه من الحواجز. هذه هي المصيبة أن أتنقل بخوف، وصلتُ إلى حاجزٍ للنظام في دوّار الليرمون، دققوا في اسمي لم يعلقوا بشيء، مضيتُ في طريقي إلى القرية، وقبل دخولي الى مدينة عفرين أنزلوني من السيارة على الحاجز مجموعة شبان مسلحة يبدوا أنهم لجان شعبية من عفرين، سألتهم عن سبب توقيفي، قال لي أحدهم:

عليك الالتحاق بنا لأنك كوردي، و قاموا بتسليمي بدلةً وسلاحا، أخذوا هويتي مني وبدؤوا بتسجيل اسمي وعنواني لأصبح تابعاً لهم بشكلٍ رسمي. بعد أن استلمت البدلة والسلاح نادى عليَّ أحد العناصر وقال لي بعد ساعتين نوبة حرسك على الجسر بجانب النهر، سنزودك بقائمة أسماء المطلوبين، وكل شخص عمره بين الثامنة عشرة والأربعون أعتقله وأرسله إلى أقرب نقطة أليكم. في أول نوبة حرس لي هربتُ منهم، بحجة قضاء الحاجة خلف الأشجار هناك، مشيتُ بين الأشجار حتى تأكدتُ أنه لن يراني أحد، وجهتُ بارودتي إلى السماء وأطلقتُ رصاصتين في الهواء، عملية توهيم أن أحدهم قتلني وأختفيت، وبدأتُ بالركض، أريد أن أصلَ إلى القرية وأرحل بسلام من هذه الحرب اللعينة فأنا لا أحبذ الرصاص، بعد ساعتين من المشي قررتُ النزول إلى الشارع العام لأحاول أن أجد وسيلة مواصلات تنقلني إلى القرية، انتظرتُ خلف بيتٍ

في مفرق طريق، جاء بيك أب نيسان لونه أحمر، لوحتُ له من بعيد وطلبتُ منه الوقوف، توقف وقال لي ماذا تفعل في هذا الوقت المتأخر في الليل، قلتُ له أريد أن أذهب إلى قرية (ش) قال لي الطريق طويل ولا قدرة له أن يصطحبني إلى هناك، قلتُ خذني إلى أي مكان تستطيع أن تحميني، أنا هارب من مجموعة مسلحة، ومن حسن حظي كان الرجل مثلي كرديا من عفرين، قال لي:

- اصعد، وأنا سأوصلك إلى قريتك، ولا تخف من الحواجز لأني أعرف الجميع وسأتدبر الأمر، وأقول لهم أنك فقدت هويتك في حلب.

وبالفعل قام الرجل بإيصالي إلى القرية بدون مقابل. وصلتُ إلى أمي وابنتي وإخوتي في الصباح، طلبتُ منهم أن يجهزوا كل شيء إلى أن أقوم بصرف بعض الدولارات التي أعطتني إياها أمي، مال أخي جميل الذي كان يرسله له جده عبد العزيز من ليبيا قبل أن يموت وحصته من الإرث، أربعون ألف دولارا. التقيتُ بمهرّب في القرية ليوصلنا إلى تركيا عن طريق الحدود.

قمنا أنا وأمي وإخوتي وابنتي وابن أختي بالسير في العاشرة ليلاً، في الساعة الواحدة منتصف الليل كنا على قمة جبل عال جدا، ثمانية أشخاص نحن مع المهرب كنا تسعة، ابنتي في حضني نائمة، كنتُ أرتب الأفكار في رأسي للخطوة التالية ما بعد تركيا وأنا أسير، وفي لحظة لم أنتبه فيها على الطريق وضعتُ قدمي اليسرى خارج المسار وسقطتُ، الظلام دامسٌ، وبدأتُ بالسقوط وابنتي في حضني، في سقوطي كنتُ أحاول أن أستند إلى شيءٍ ما يجعلني أحمي ابنتي، مرةً أنا فوقها ومرة هي فوقي، هكذا إلى أن اصطدم كعب قدمي بشيءٍ يشبه جثة إنسان، لم أكن أبالي لصراخ أمي وأختي من فوق، بل كان ما يشغلني ابنتي، أحاول أن أخبئها في صدري كي لا تتأذى، وفي النهاية

اهتديتُ لصخرة كبيرة، حين ارتطمتُ بها صرختُ بأعلى صوتي وقلتُ لأمي أنا بخير، ولأن سفح الجبل كان منحدراً بشكلٍ مخيف سألني أخي فرهاد أن أشعل لهم شيئا كي يعرفوا مكاني وينزلوا لإحضاري، لكن المهرّب رفض أن أشعل أي شيء خوفاً من القناصين، قلتُ له سأصعد لوحدي حين أحتاج للمساعدة سأخبركم، وأنا أحاول الوقوف شعرتُ بشيء يلدغني في ساقي، فأر أو شيء يشبهه، شعرتُ بالألم، المهم أن أصل للأعلى، في طريقي وأنا أسقط كنتُ أشعر أني ألامس أشياءً مألوفةً، لكن لم أتوقع أن تكون هذه الأشياء هي أعضاء بشرية، حين كنتُ أحاول الصعود دستُ بقدمي على يد بني آدم، قطعت ورميت، وفي طريق صعودي كانت هناك أشلاء لأكثر من عشرين شخصا، أياد بُترت من المرفق، وأخرى من الكتف، أقدام، رؤوس، جثث مشوهة وكأنهم مروا من بين أياد تجار أعضاء بشرية، عيون مفقوءة، خاصرة ممزقة، كما أن الذي قام بفعلته هذه لا ينتمي إلى فصيلة الإنسان، كان واضحا كمية الضغينة. وصلتُ للأعلى أخذت أمي ابنتي مني كان جسدها ملطخا بالدم من كل جانب، وأنا كذلك، رأيت الدم على جسدي كما أن الجثث التي ارتطمتُ بها مزقت منذ قليل، لكن منظر الأشياء التي رأيتها جعلتني أشعر بدوارٍ غير طبيعي، سقطتُ على الأرض ولم أشعر بشيء، حين استيقظت وجدتُ إخوتي بجانبي وأمي تبكي، يمسحون رأسي بقطعة قماشٍ مبللة، حرارتي مرتفعة بشكلٍ مخيف، وبدأت أسعل بشكلٍ قوي، وأشعر بصعوبة في التنفس، كان المهرّب غائباً . سألت أخي عنه قال لي ذهب ليجد مكانا يستطيع أن يجري منه اتصالًا، يريد أن يتصل بأحد ليطمئن على الطريق. عادَ بعد ساعة وقال لا نستطيع المتابعة الليلة، الجيش التركي لا يسمح لأحدٍ بالعبور، ويطلقون النار على كل شيء يتحرك من بعيد، لهذا السبب يتوجب علينا أن نبقى هنا حتى الغد. في

الليلة التالية قال المهرّب يجب علينا الانتظار إلى أن يرسل لي رسالةً أصدقائي، سأجلس على التلة تلك أشارَ بسبابته على تلة صغيرة في قربنا حتى أتلقى الرسالة، التلة هي المكان الوحيد الذي أستطيع أن أتلقى فيها المكالمات، بعد أربع ساعات أبلغنا المهرّب عن وصول الرسالة التي تطلب منا التحرك بشكلٍ سريع، كنتُ في حالةٍ يرثى لها، الحرارة لا تفارق جسدي، سُعال وصعوبة في التنفس، غثيان، صداع، ألم في صدري، كأن الشيء الذي لدغني بساقي حين سقطت كان مسموماً، كنتُ أكابر على نفسي كي لا تشعر أمي بشيء، كنتُ أغسل رأسي بالماء كل فترة محاولاً تخفيف الحرارة، أكملنا المسير باتجاه تركيا، بعد تسع ساعات من المسير وصلنا إلى قرية صغيرة، وضعنا المهرّب في الباص وقال لنا سيأخذكم الباص إلى المحطة الرئيسية في مدينة أنطاكية، بعدها أنتم تقررون وجهتكم. قررنا الذهاب إلى إسطنبول الأقرب للحدود اليونانية البرّية. رغمَ حظي السيء في كل شيء في الحياة إلا أن رحلتنا إلى أوروبا كانت على عكس كل شيء، بعد رحلة قصيرة دخلنا الأراضي اليونانية بعد وصولنا إلى إسطنبول بيومين، بقينا في اليونان أربعة أيام إلى أن استطعنا تأمينَ جوازات سفرٍ مزورة واتجهنا نحو النرويج، كما نصحنا المهرّب في أثينا.

لحظةُ وصولنا إلى أوسلو بدأتُ بسعالٍ حاد مرفقٍ بقطرات دم تخرج من فمي، أدركتُ حينها أنني مصابٌ بفيروس خطير، توجهت إلى الشرطة الموجودة في المطار وأظهرتُ لهم المنديل الذي كان في يدي وعليه بقع الدم، ذعر الجميع من الدم ومن شكلي المرهق، أخذوني إلى غرفة في الطابق السفلي، وبيني وبينهم مسافة، جلست وحيدا قرابة العشر دقائق، بعدها دخل طبيبان وعلى وجهيهما كمامات طبية، وفي أيديهما قفازات، تكلما معي بالانكليزية وقالا إنه يجب نقلي إلى المشفى بسرعة، سألني الطبيبُ في المشفى متى

شعرت بالحرارة في المرة الأولى، ذكرتُ له ما حصل معي لحظة سقوطي وكيف ارتطمت بالجثث، وحين أوقفتني الصخرة لدغني شيء في ساقي. سألني عن اللغات التي أتكلمها، قلتُ له العربية والكردية والقليل من الانكليزية. طلب مني عدم مغادرة الغرفة إلى أن يأتي المترجم. بعد ساعتين أتى المترجم وأخبرني أنني مصاب بالطاعون، ويجب أن أحجَز في مكانٍ خاص، أنتظر موتي إلى أن يحين الوقت، لأن الطاعون انتشر في جسدي ولا فائدة من المضادات الحيوية.

...

وها أنا الآن بعد مرور أربعين عاماً أجلسُ هنا على طاولتي منزوياً لوحدي، أكتب ما تيسر لي من سنوات عمري التي مضت، بعيدا عن العالم وعن نفسي، قريبا من العالم ومن نفسي، لا أملك من عمري سوى ما يفصلني عن الموت، ساعة ساعتين، شهرا شهرين، سنةً سنتين، لا أحد يدري، لكن الذي أدركه تماما بأنني سأرسلُ خطاباً إلى الله أطالب فيه حق اللجوء الإنساني.سأخبره أيضا عن أعداد الفقراء الذين لم يصل عددهم إلى عدد المساجد والكنائس وكل بيوت العبادة، فتصور يا الله كم كثرت بيوت العبادة على هذه الأرض، كلهم ينادون باسمك وما أكثرهم الذين يفتقدونك في دواخلهم..سأروي له عن الجثث التي اصطدمتُ بها حين انزلقتُ من سفح الجبل وابنتي في حضني وأنا هاربٌ من حضن الوطن، وعن الدماء التي لونت أيادي الصعاليك، وعن اللصوص الذين يسرقون باسم الدين، وعن الناس الذين غرقوا في البحر وهم في طريقهم إلى الأمان، وعن بائعي الأكباد والكلى كيف سرقوا الإنسان بحجة الخلاص من الموت وكانوا إلى الموت مقتادين.

أنا يا الله لا أبحث عن إبرةٍ في كومة قش، أبحث عنك بين عيون الأطفال والمساكين، بين عيون الثكالى والمحرومين، بين الأيتام والمشردين، أين أنت منهم؟ فلنعِش بسلام، أو دعنا نمُت بسلامٍ يا إلهي. .

تمت

كوبنهاغن

ربيع 2015 –خريف 2019

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع